خوزيه ماريا لوبيث ثونيغا

قبر المنفي

ترجمة: حسني مليطات

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قبر المنفى

رواية مترجمة..

خوزيه ماريا لوبيث ثونيغا
ترجمة: حسني مليطات

إنّ قرية أوخيار موجودة، تماماً مثل وجود البيت الذي أعيدت فيه الحياة في هذه الرواية، والعائلة التي سكنت فيه، إلا أن كل الشخصيات، والوقائع، والأماكن، الواقعية منها أو المتخيلة، التي تظهر في الرواية هي من تخيُّل الكاتب.
أما السياق التاريخي فكان حقيقياً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحلام، أسحار مرعبة، عجائب، ساحرات، أطياف ليلية وتراتيل.

الشاعر الإيطالي هوراس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التاريخ هو إحياء للحياة في مجملها، ليست فقط تلك التي تظهر على السطح، وإنما تلك التي في أجزائه الأكثر حميمية وعمقاً.

جول ميشليه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقدمة

سيدي!
ميغيل دي روخاس يرتجف. كم مرة خاف هذا الاسم خلال الليل؟ سيدي، أنا كنت منصفاً، وملبًّيا لكل أوامرك. لماذا أنا؟
سيدي! دون ميغيل!
طلبت فقط طفلاً، فقط أردت طفلاً من أجل أن يبجّلك معي، هنا، في هذه الجنة الجديدة المحيطة بالكافرين.
دون ميغيل
سأذهب وآخذ طفلي في حضني؟ سأحبه مثل أمه فاطمة، مثل أخته فاطمة؟
هو طفل يا سيدي!
طفل، أعرفه، سيدي. لويس دي روخاس. ولم تعد ترتجف الأرض ولا السماء ولا نار الجحيم تفتح عند أقدامنا. سيدي، شكراً لك.
مع إشراقة صباح جديد، تجاويف السقف، أقواس الجبس، الأعمدة، الحديقة المظلمة. نزل ميغيل دي روخاس درجات السلّم الموصل للبرج ببطء، حيث كان يقضي كل الليل فيه، يصلّي، يقرأ من الذاكرة النصوص التي علّمه إياها أبوه والتي لم يعلّمها لأحد. الطيور تزقزق. «تعرفه»، فكرت من جديد، «تعرفه بشكل جيد أكثر مني». في الإسطبلات، في الطابق السفلي، الخيول تركل، غاضبة. سمع كيف العامل يستيقظ ويبدأ مهامه الأولى. الكل يمكن أن يكون بسيطاً، متابعاً عمله بشكل يومي، يرتب أوقاته وفق دورات الشمس والقمر التي لا يمكن تغييرها. باب غرفة النوم كان مفتوحاً بشكل جزئي. كان على أرض الغرفة حوض ماء وبعض الملابس الملطخة بالدماء. عند رؤيته يدخل، سارة الحبيبة عينان بنّيتان ووجه متشقق، الشعر كله أبيض تقريباً، مربوط على شكل ذيل حصان، يتدلّى على ظهرها الذي أوشك على الإنحناء، خرجت من الغرفة وأغلقت الباب.
ميغيل.
فاطمة رأته من السرير. وجهها كان ملتوياً، ومنمَّشا، وتظهر عليها ملامح الإعياء وألم الولادة الذي كان يراودها كل ليلة. في حضنها يتحرك جسم ملتفّ بملاءة. اقترب ميغيل دي روخاس خائفاً. وقف بجانب السرير، ولاطف وجه فاطمة، لكنه لم يلمس وجه ابنه.
ميغيل! هتفت فاطمة، وتعبيرها عن المفاجأة أعاد إليها الشعور بالألم من جديد، وبعد ذلك في ازدراء، قالت له: هو ابنك!!
كما لو أن الطفل فهم ما قالته والدته، فبدأ بالبكاء. بدأ الطفل بالبكاء. ليتنامى فيه الشعور بعدم الراحة من ميغيل دي روخاس، فعندما يستيقظ الطفل ويلتفت إلى هيئة ميغيل، يتملكه شعور عدم حبه، بل بغضه، مع بكاء يحوِّل الاشمئزاز إلى كراهية. كيف يمكن أن يكون ذلك؟ لماذا شعر بأنه يطعن قلب ابنه بالخنجر؟ إلا أن فاطمة هزّته من كتفيه، وقبّلته على جبهته وعينيه، وغنّت له أغنية:

يوجد أربعة فرسان
بسيوف من الماء

إنها ليلة مظلمة
السيوف الأربعة تجرح
عالم من الورود
وستجرح القلب...
لا تنزلوا إلى الحديقة!
لا تنزلوا إلى الحديقة
فهناك توجد السيوف التي تجرح

ميغيل دي روخاس يتصارع مع نفسه. الألم والشر ينموان فيه معاً. يظهران كائناً يغرق، يتجذر في أحشائك. وعندما تأتي إلى الحياة، فإنها تدين ماضيك ومستقبلك، وكل ما قمت به حتى هذه اللحظة، وكل ما ستفعله من هذه اللحظة. يُقال إن من بين الموريسكيين سيأتي الملك الذي سيحرر العبيد وبلداتنا. سيكون من بيت خلفاء قرطبة، ويتوّج باسم ابن أمية. وسيأتي معه شيطان (عفريت)، المنتقم الذي سيغطي الأرض بالدماء. في اليوم نفسه سيولدون. وسترتجف الأرض والسماء. وسيأتي واحد من أجل الخير، وآخر من أجل الشر. قال له القديس:

«استمعوا، استمعوا، أبناء الشرق، استمعوا إلى مصائر الغرب. ستحلّ (تحدث سيّد الملائكة إلى النبي)، لعنة من الله: وستجفّ الحقول مع نسائمها، ليفقد الناس قوتهم. وستحل اللعنة على ينابيع الماء؛ والقمح الذي سيزرع من الصباح إلى منتصف النهار، بدون المطر أو موسم الانتظار، سيحتفظ به في مكان يناسبه إلى وقت متأخر. والشجرة ستزرع باليد، وستصل مع أخرى لتثمر؛ وبصوت حفيفها سترى البحر يتماوج بشدة، في بركة من الحليب المتحول. تركب خائفاً على جمل، يجول بك الأرض ستة أيام؛ والرشوة والشر سيكونان أسماءه، وسيخطئ كل النّاس في حقّه. مَن، بأعلى صوتي الذي لا يخيف؟ السر المقدس هو الآن شائعة: بداية يتمسك بالأرض، الكلمات التي سمعها من الله. استمعوا، استمعوا، أبناء الغرب: استمعوا إلى مصائر الغرب. يا الله!، ستنسى شعبك في هذه الأيام؟، سأل النبي. لا، ردّ سيّد الملائكة. سيعالجون أمراضهم؛ التي فقط الله من يقدر على شفائها، فإنَّ الله عادل وعظيم. الرماح ستنبت الأغنياء، الحجارة ستحني السيوف القاطعة؛ وفي البشرات ستظهر راية المولى. في جبالها الوعرة، ستلوح دائماً مبتهجة، وسلطة عدو المسيح ستأتي لكسرها. قبور الكافرين ستخفي التلال، وقمم التلال سيسمع عليها غناء العار. بالونات من نار الكبريت ستعبر الهواء ليلاً، وستتير عظامهم، وأماكن تواجد الطيور المنذرة بسوء. الموت من أجل القانون سيمنحك تاج الشهيد: يغطون الحور العين بأيديهم السماوية. قال: «تعود الجبال إلى الأماكن التي كانت عليها، ونور الشمس يُشع مثل وجه سيّد الملائكة. إلى الحمراء، إلى القيادة، إلى الموت! الحرب، الحرب على عرق السيد!»

سيظهر له السيف، يقول ميغيل دي روخاس في النهاية.

على مضض، كشفت فاطمة عن كتف الطفل. تلمع على الكتف اليمنى بقعة سوداء داكنة، كانت حينها مرتبكة، ميغيل دي روخاس خرج من غرفة النوم. كان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر أكتوبر لعام 1546م، كانت أوخيار مع بزوغ الفجر في صمت. تظهر حجارة القرميد في شوارعها، بالإضافة إلى الأخشاب المكسرة، والحيوانات الميتة، وبقايا الإعصار الذي قد دمّر البشرات الذي سيتذكرون آثاره لعقود قادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوصول

«كنت قد رأيتكم، وسأكون بانتظاركم»؛ أعتقد أني سمعت ذلك.ورأيت عيوناً مظلمة وقاسية من تلك التي تنظر إلينا من بين المجموعات التي تتبعنا منذ عبورنا ل «ميناء الرغوة»((1)). كما لو أن الجبال العالية كانت جداراً تتجاوزه لمرة واحدة، جبال تسحبك إلى وادي الأساطير » المغذية بالتاريخ وبدماء كل أولئك الذين قدّموا للأجيال حياتهم هناك، كأنهم قرابين. في منحدر طويل، انتقلنا من البرد إلى الحرء من الثلج الذي كان متراكماً على أطراف الطريق الطويلة بحوالي 1700 متر إلى الأمطار الجميلة وإلى الشمس الخجولة التي أطلّت علينا إنه الوصول بالفعل، أجراس كنيسة أوخيارً((2)) تظهر لنا.

تقع قرية أوخيار في منطقة منخفضة عميقة، محمية بسلسلة جبال نيبادا والساحل، حيث تنحدر تدريجياً بين الأطراف الأخيرة لسلسلة الجبال التي يطلق عليها العرب اسم «سوليرا»، وتاجوس دي جورياتار، وهي قرية أخرى قريبة منها. هذا وادي الأساطير، الذي كان يطلق عليه اسم «وادي البشرات»، كان هدفاً للحجاج منذ زمن سحيق، ربما بسبب موقعه الجغرافي، الذي يحتوي على «الحلل التيلورية»(3) التي عن طريق جذبها المغناطيسي تحولت إلى أرض عامرة بالسكان.

ولأجل هذا، كان هذا المكان هو الأنسب بالنسبة إلى إيفا وبالنسبة إليّ أنا أيضاً، نحن المدانون بسبب التضحية، بسبب خطأ في حكمها يجب علينا التكفير عنه. والد إيفا توفي بسرطان الرئة قبل بضعة أشهر، أصبح لفترة تقدمه في المرض تأثيرات سلبية على علاقتي بإيفا، حيث فككت تلك الفترة علاقتنا، سجنت إيفا نفسها في سكون مهلك، في صمت طويل، وجب عليّ شرحه. (أراها الآن تخبرني: «كان بإمكاننا أن نفعل شيئاً آخر». وحزنها تحوَّل من جديد إلى عتاب، رغم أنني أجبتها: «وماذا بإمكاننا أن نفعل قبل الموت، تريدين أن تقولي لي؟». وصمتها. وتفكيري. والتخيل قبل الفعل، والمشروع قبل أن يكون، والرغبة في القيام برحلة).

شيء ما حدث لبابلو، على الرغم من أنه كان في حالة تفرض عليه تفسير صراخ وشتائم آنا، العنف المرضي الذي لم يُكتشف بطريقة طبيعية، ولكن بطريقة سريعة وغير متوقعة. شخصية عصابية تلك التي شاركت معنا أيضاً المكان الذي اخترناه، ذلك الذي تبدل فيه خلال عدة قرون الرعب والجمال، الشجاعة والقسوة؛ لأن بيت لوس توباريس اسم العائلة الأخيرة التي سكنته يعود تاريخ بنائه إلى فترة ما قبل ثورة الموريسكيين. وفق ما يقوله المؤرخون، فالمالكون الأوائل للبيت كانوا لاس روخاس، أنسباء ابن أمية، أحد نبلاء الموريسكيين، الذي تغيّر اسمه إلى دون هيرناندو دي بالور، رغم أن نسبه يعود إلى خلفاء قرطبة. ابن أمية كان زعيم الثورة، وجعل من هذا البيت نفسه المكان الذي حبك فيه سيناريوهات الثورة؛ وللاعتقاد بأسطورة المكان، حفرت أنفاق أسفله، تتصل مع الكنيسة، التي كانت عبارة عن مسجد قديم، مع بيوت نبلاء آخرين في المنطقة نفسها.

احتلت واجهة المبنى كاملة أحد جوانب الساحة الرئيسية. مباشرة أمام الكنيسة، لتبدو أنها تتحدى برجها الأندلسي، الذي ينافس في طوله أجراس الكنيسة. المعبد كان عبارة عن مبنى بسيط من الحجارة الحمراء التي تذكّرنا قليلاً بماضيها الإسلامي الرجل المتحضر هو المدافع عن الدمار، قرأت مرة، والبيت، في ساعة الظهيرة، تدخله أشعة الشمس بتأنٍّ، ليبدو لي كامرأة ناضجة، تستلقي أمام عشيقها، الذي كان يتغزل بها منذ عدة قرون. جلد البيت كان أبيض كلسياً، متشققاً قليلاً، ويحتوي على

ما يقارب أربعة عيون متمثلة بالنوافذ الخشبية الكبيرة، مسند فوق مرفق، يصل طيفه من الرأس والأكتاف حتى شارع فرعي، حيث توجد بوابة حديدية، ويغطيه شعر طويل من بلاط القرميد، الذي نشأ في البرج وتمدد فوق سطح المبنى.
هذا المنزل، المكوَّن من جسدين، يبدو أنه يحتوي على منزلين، الأكثر حداثة يقع في جزء الواجهة التي تنحدر حتى البوابة، والآخر يقع أسفل البرج، رغم أننا من المكان الذي التقينا فيه سوية لم نستطع رؤية أي بوابة أخرى. بين العاشقين (المنزلين)، تستمر الطريق في خط مستقيم وتعبر القرية حتى صومعة بيرجين ديل مارتيريو، وجمعية البشرات، وفي نهاية الساحة وجدنا شارعاً مفتوحاً يصل نزولاً حتى مبنى البلدية ودير الفرنسيسكان، وفق ما هو مشار إليه في خارطة القرية الكبيرة الموجودة على مدخل الساحة نفسها، وذهبنا معاً من أجل إيقاف السيارة في منطقة قريبة من هناك.
ما زالت أشعة شمس الخريف المتعبة تلمع، وأسفل إشعاعاتها اكتشفت أن المباني في الشارع الرئيسي لم تكن مماثلة للهندسة المعمارية التقليدية لبرانكو دي بوغيارا، في القسم الغربي، حيث المنازل المربعة والمنخفضة، مع الجدران المبنية من الحجارة غير المصقولة (الدبش)، ذات اللون الأبيض الكلسي والأسقف ذات العوارض الخشبية المائلة إلى اللون البني المحروق، مكملة بغطاء من الألواح.
كانوا هنا أكثر تقليدية، المباني المكوَّنة من طابقين أو ثلاثة أكثر حداثة، باستثناء بعضها، نجدها مبينة بجانب الكنيسة، التي يمكن الاكتفاء بوصفها بأنها فخمة. تذكرت أن أوخيار كان يطلق عليها اسم «مدينة الأبراج»، وحتى وقت قريب كانت العاصمة الإدارية والقضائية لمنطقة البشرات، الآن قرية أورخيبا هي المسؤولة عن كل ذلك، وكنت أردد في هذا الوقت:
هناك كل من يبحث عن طريقة..
ليقدمها في سلام، أو في ورود، أو يقدمها بالموت
بارانكو.....
بالكاد كان هناك عدد من السيارات السائرة، لأخلص بأن القرية عبارة عن جثث، ليعود الصمت إليها من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كونجا

كان يجب علينا البحث عن السيدة كونجا، التي كانت مسؤولة عن رعاية البيت. سألت عجوزين كانا يجلسان مستمتعَين بالهواء اللطيف على إحدى مقاعد الساحة، وينظران في الآن نفسه وبلا خجل إلى آنا، التي خرجت للتو من السيارة. ببنطال زهري اللون، وسترة بيضاء، لتبدو وكأنها خارجة للتو من استعراض للأزياء، ليفكر العجوزان بأنها امرأة قادمة من المريخ، على الرغم من أنهما قد ظهرا وكأنهما خرجا من تابوت: فجلدهما مجعد بحكم أنهما كانا يعملان في الحقل، وواحد منهما الذي كان يجلس على اليمين أراح يديه القاسيتين والمتشققتين على عصا؛ عيونه بيضاء كالحليب، يتوسطهما لون بني قاتم، ينظران إليّ دون أي اعتبار لوجودي، وعلى الرغم من أنهما لم ينزعجا في الرد عليّ، حرك واحد مرة وثانية لسانه حول شفتَيه المشققتين. الآخر، الذي نظر إليّ لثانية واحدة فقط عيناه سوداوان ومشرقتان، يرتدي قبعة من القماش، ويبلغ من العمر خمسة وسبعين عاما قال بصوت أجش:

كونجا؟

مكتفياً بنظراته التأملية بآنا، فعلى الرغم من أنها لم تكن طويلة جداً، إلا أن مظهرها كان مثيراً لمن يراها لأول مرة بشعرها الأشقر وجسمها النحيف والمشدود، فبالكاد ذلك العجوز يحتوي على الطاقة التي تمكنه من استغلالها في أي لحظة. عندما يقترب منك، يكون مختلفاً: نظراته زرقاء، التي وفق توقيت اليوم يمكن أن تكون رمادية أو خضراء فاتحة أو مظلمة، تسبب خوفاً غريباً، ليزداد ذلك الخوف في حال توجيه نظراته إليك مباشرة. بابلو، من جانبه، يسير بكلبه المخصص للحراسة، إذ لم يكن للمعان الوجه الأبيض والدائري والشعر الممشط إلى الخلف، ذلك الذي يتناقض مع طريقته في اللبس، صحيحة ولكنها بسيطة، وخاصة مع شخصيته، فهو دمث، وهادئ، وحتى أنه عصبي في بعض الأحيان. قد نزل من السيارة، ليفتح لها الباب، كخادم مأمور، أو كمداد للعلاقة التي تحتاج إليها آنا مع العالم. حتى كونها امرأة بالغة، تبلغ من العمر الثامنة والعشرين تصغر بابلو بسنة واحدة، فإنها كانت تتعالج عند طبيب نفسي منذ أن كان عمرها ستة عشر عاماً، الشيء الذي لا أحد منّا كان يتحدث عنه عندما تكون هي حاضرة بيننا. أنهت آنا درجة البكالوريوس في الحقوق لتتعثر بعد ذلك وتتهاوى، ومنذ ذلك الحين وهي تقفز من دورة تدريبية إلى أخرى، من دون الحصول على أي عمل مستقر. بابلو، الذي كان زميلها منذ أيام دراستهما معاً في المعهد، عمل في مكتب محامين، لكنه بدأ للتو، كما يقولون، لهذا فإن وضعه الاقتصادي لم يكن قوياً كثيراً.

تعيش في إحدى شوارع الحارة الأخرى، التي تقع أعلى القرية تابع الرجل العجوز، الذي أشار بشكل مبهم إلى الطريق مشمِّرا عن ذراعه كمن يتثاءب، رغم أنه بالكاد كان قادراً على تحريك رأسه. وتمتم بعد ذلك بشيء مثل: «الآن ستكون في البيت. من الصعب العثور على تلك الساحرة في ليلة الموتى»([4]). أو هكذا ظننت أني فهمت، وكأن سلسلة ابتهالات الموتى ترافقني، يلف الناس من حولي، أحدد لهم ما ينبغي التحدث به، بنفسي. ربما لأن الرجل العجوز ذكّرني بوالد إيفا: وجهه شاحب بسبب المرض، تجاعيد جبهته وخدوده. لم نتحمل المسؤولية بشكل جيّد، ولا حتى إيفا، التي ربما من أجل هذا شعرتْ أكثر بالذنب وجعلتني أشعر بالذنب أكثر.

لكن فرانثيسكو كان هذا اسم حماي (والد إيفا) لم يعد معنا، فقط ذلك الرجل الذي رفع رأسه لينظر إليها، الذي كان واقفاً بجانبي. رغم ذلك الذي رأته، فإنه لا ينبغي أن يؤثر فيها كثيراً، أصدر صوتاً

مزعجاً بلسانه، الشيء الذي يمكن أن يكون تفسيره بأنه «شفقة»، أو «إن هذه الطفلة بالفعل ليست في غاية الجمال». ربما لأن إيفا لم تكن مثيرة، ولكنها جميلة، على الرغم من حزنها على أبيها: شعرها قصير وكستنائي، ملامحها ناعمة، جسدها في الغالب أعطاها مظهر الطفلة، نعم، باستثناء تينك العينين البنّيتين، اللتين توحيان إلى بلوغها، تينك العينين اللتين كانت تنظر من خلالهما إليّ بثقة، وفي أغلب الأحيان بأناة ورفق. بشخيصتها الثابتة، المعاكسة لي تماماً، دفعتها لتبدو في بعض الأحيان باردة، إيفا كانت شخصية عملية بالأساس، الصفة التي حُسدت عليها كثيراً، لم تكن الحياة بالنسبة إليها معقدة على الإطلاق، عملت لعدة سنوات كإدارية في شركة بناء. لكن بعد موت والدها، تحفظت على شخصيتها المعتادة وأصبح صمتها عميقاً، حاجزاً مثل الجبال التي تركناها وراءنا تلك العقبات التي تمنيت أن تختفي نهائياً في هذه الرحلة.

كنا متزوجين منذ عامين. زواج الرغبة والشوق والذي كان رغم ذلك ذا نتيجة محزنة: أولاً بسبب الصعوبات التي واجهتني في الحصول على عمل، حتى حصولي على وظيفة كمحرر ثقافي في صحيفة غرناطة، ثم بسبب ممانعة أهلها، لنقضي الكثير من أوقاتنا وطاقاتنا من أجل إقناعهم. إننا كنا شباباً يافعين، كان الزمن في بدايته... كان عليّ أن أشرح لهم الأشياء مراراً وتكراراً، لأنهم لم يفهموني، ولم يحاولوا أن يفهموني. ولعل هذا هو السبب الذي جعلني أشعر أنني شاركت فعلياً الحياة مع إيفا، رغم أننا لم نبلغ الثلاثين بعد.

بدأت بالسير باتجاه العنوان الذي أخبرني عنه الرجل العجوز، الذي كان يتابع بنظراته إيفا. أومأت إلى بابلو وآنا بذلك، إلا أنهما بقيا في السيارة، ولم يرياني. في الواقع، بدآ بالجدال من أجل تسلية العجوزين، اللذين بابلو وآنا كانا قد صادفا بعض المشاهد المثيرة والغريبة في القرية، على الرغم من أنني لم أتمكن من سماع ما يقولان. لم أقلق من أجل ذلك؛ كان شيئاً معتاداً في سلوكهما تقريباً، وبوصولي إلى الارتفاع المشار إليه، دخلت في سرداب كان عبارة عن زاوية مع شارع مبلط وضيق. وفق ما قالوه لي، فإن هذا الشارع، الذي ينحدر بشكل متعرج حتى الجزء السفلي من القرية، تم إنشاؤه من الطريق الرئيسي إلى حوض النهر مروراً بفوقه حتى تل أطلق عليه اسم «الغجر».

بيت السيدة كونجا، يتكون من بضع بوابات سفلية، لا يوجد أي اختلاف بين البوابتين، لكن يوجد للمنزل باب خشبي جميل، وحوله فُتحت شرفتان محميتان بستائر خضراء، معلقة بشكل مائل في القسم الخارجي من الدرابزين، بطريقة تمكنك فقط من رؤية مَن في الداخل. قبل أن أتمكن من الوصول إلى الباب، وصلنا صوت أحدهم:

مَن القادم؟ كانت المتحدثة مختفية على الشرفة، شعرت بصوت الكرسي، الذي كان مهيمناً على الشارع كله. بجانبها، كانت هناك امرأة أخرى، بالكاد يمكنك رؤيتها.

حضرتك السيدة كونجا؟

لا توجد امرأة أخرى بهذا الاسم في القرية كلها إلا أنا علَّقت مبتسمة أنتم قادمون من أجل البيت، أليس كذلك؟

نعم من أجل ذلك، قلت لها.

يمكنكم أن تختاروا تاريخاً آخر أجابت ناهضة وساحبة نصف جسدها من الشرفة، كمن يتكلم مخاطباً الآخرين في عمل مسرحي، أو كمن أراد أن يُعرّف النّاس كلَّهم بما يتحدث به. منذ خمسة عشر يوماً، على سبيل المثال، كان هناك معرض. وفي الصيف يكون الجو حاراً.

مَن الذي سيأتي في يوم تودوس لوس سانتوس (يوم جميع القدِّسين)؟

اخترنا هذا اليوم بالضبط؛ لأنه يوم عطلة، ويمكننا أخذ يوم الخميس، وهكذا يمكننا الاستفادة منه حتى نهاية الأسبوع، رغم أننا لم نتواصل مع بعضنا بشكل رسمي حتى الآن .
الآن لا يوجد أحد «أفضل»، تذكرتُ أنني قلت ذلك في اللحظة نفسها.
كان البرد قارساً في الليل. وكان يمكنهم بالفعل الصلاة من أجل ألا تتساقط الثلوج. جيد، جيد.. هو يوم جيد من أجل هذا قفزت ضاحكة، وإيفا، خلفي، وكزتني كادت تسقط.
منحتني شعوراً يغرقني في المهمة الأولى الموكلة إلينا وحيث تلعب فيه هذه المرأة دوراً بارزاً. جاء في خاطري عبارة: «التراجيديا هي أفضل إنتاج يمكن أن يخرج من الطبيعة البشرية». بعد ذلك بقليل، سُمع صوت قوي، وفُتح الباب.
هيا، هيا، لا تكن وجوهكم عابسة فحصتنا من رؤوسنا حتى أخمص قدمينا. ووجهها كان مجعداً مثل حبة التفاح الذابلة. أنا في سنواتي، يمكنني أن أكون جادة، ولكن حضراتكم.... ضحكت من جديد. سبعون!، أضافت رافعة يديها، ومظهرة راحتيهما.
لم تبد لهم أي شيء على الإطلاق. شيء مكدس باللحم، قصيرة، تبدو مفعمة بالصحة. ارتدت سترة خفيفة فوق فستان وردي، رقيق جداً من أجل المناسبات، على الرغم من أن في أسفله تظهر كنزة بيضاء. «وهذا ربما بسبب البرد القارس» فكرتُ، تثبتت على قدميها المتورّمتين، كما لو كانا يريدان الخروج من قماش قديم. لديها بعض التجاعيد العميقة بجانب عينيها الصغيرتين والسوداوين، لكن جلدها يلمع، وخدَّيها حمراوان ممتلئان، كفاكهة ناضجة، نعم. وتوجت شخصيتها بشعر كثيف (متلبد)، ولكن بدون وجود شيب.
بالكاد منحتني وقتاً للرد عليها، هكذا نظرت من جديد باتجاه الشرفة، حيث الشخصية الأخرى التي لم تكن تتحرك.
أختي قالت كونجا. وضعها سيّئ. لم تتحدث منذ عام 1977م، تعبّر عن احتياجاتها بلغة الإشارة فقط. منغلقة. يا إلهي تابعت من دون أن يسألها أحد. لكنهم يريدون الذهاب إلى البيت، أليس كذلك؟ هيا، هيا، قالت وهي تلوِّح بحزمة المفاتيح.
اجتمعنا بآنا وبابلو في الساحة، وقررنا الذهاب بحقائبنا التي تفحصتها كونجا بفرح وفضول.
لكنهم ليسوا ستة؟ سألتني بوجه يوحي إلى خيبة أمل كبيرة؛ وذلك لم يكن مزحة، شيء غريب!!، فقد كان السعر نفسه بغض النظر عن عدد الأشخاص الذين يريدون أن يسكنوا المنزل.
هناك شخصان غائبان، سيحضران غداً، أجبتها.
أفضل قالت. كلما كان هناك أناس أكثر، يكون ذلك أفضل. هذا البيت كبير جداً عادت إليها الضحكة الشباب، من يقدر عليهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البيت

دخلنا من البوابة الرئيسية، من تلك التي يمكن أن ترى من خلالها الحديقة التي وفق ما ذكرته كونجا كانت أيضاً من ممتلكات البيت، محمية ببوابة عالية من الرماح الحديدية، وكأن جيشاً زرعها للتو. كانت هناك أشجار من البرتقال والليمون، وفي وسط الحديقة عمود حجري، مغطى بقرميد أبيض وأزرق، محاط بسلك نحاسي. في المدخل، تظهر لوحة أخرى مكتوب عليها «بيت لوس توباريس»، الذي يحكي أصله وصلته مع الثورة المشهورة. كان باباً خشبياً ضخماً، وسحبت كونجا مفتاحاً ثقيلاً لفتحه.

لكن هل سننام هنا؟

واجهة البيت، مع أربع شرفات معرشات والبرج من فوق، لديه مظهر العجوز المقعد: تشققات الجدران تشكل تأثيراً بصرياً غريباً، كما لو كان هنا وجه مئوي يلوح فوقنا. بالفعل لم تقصد امرأة، بل رجلاً مريضاً استيقظت عيون ميتة من الشرفات، وفتحت الباب بالفم، لكن ما زال ذلك الرجل شديداً، جائعاً وسادياً. بابلو وخاصة آنا، ينظران إليّ نظرة غير مريحة، علماً بأنني أنا مَن كنت مشغولاً بالبحث عن هذه الإقامة عن طريق إحدى الوكالات.

لا. هذا هو البيت القديم. أنتم ستنامون في البيت الجديد، الذي بُني حيث كانت إسطبلات الخيول. توجد هناك شقتان. لكنكم تريدون رؤيتها، أليس كذلك؟

نعم بكل تأكيد أجبنا بارتياح.

صرّ الباب ونظرنا إلى المدخل، حيث يوجد البريد الذي تتراكم فيه الرسائل، والتي بدأت كونجا بجمعها.

حتى لا يأخذوا الرسائل!! تتذمر.

مَن هم؟ سألها بابلو.

مَن سوف يكونون!! أجابت كونجا كما لو أنها تعلمنا عن ملك عام. لوس توباريس!! أصحاب المنزل!! بالفعل لا يرغبون في المجيء هنا. الذكريات... قالت مكتئبة تعرفون؟

سحبت مفتاحاً صغيراً من أجل أن تفتح الباب الثاني، الذي كان هو الآخر من خشب، لكن مع شبك في القسم العلوي منه، حيث يمكن أن يدخل من خلاله الحشرات الصغيرة، كما يمكن من خلاله رؤية الحديقة الداخلية والممر الذي كان ذا أربع زوايا ويقودك مباشرة إلى الطابق الأول. في الباب كانت هناك مطرقة على شكل يد، تشعرك بعدم الراحة أثناء لمسها.

ادخلوا قالت كونجا. لكن عليكم الانتباه حيث تضعون أقدامكم. لا تلمسوا شيئا أضافت وهي تنظر إليَّ بفضول، وكأنها لاحظت شيئاً فيّ لفت انتباهها.

عند عبور العتبة، قاطعتنا سيمفونية كاملة من جرش وزقزقة ونشيج الطيور، وحتى صوت فتح وإغلاق الأبواب. وقد كان في استقبالنا دبور كبير الحجم بأزيزه، وكان مثل أمر من أجل إيقاف العزف بالأوركسترا واستبدال موسيقاها بصمت غريب، مثل نفس مكتوم.

المنزل كان مهملاً قليلاً، لكنه كان ضخماً. في الفناء المربع، المفتوح أسفل السماء، يظهر طابقان. في الجانب الأيسر كان هناك درج كبير من الحجر، وقوس يصل مع الباب الذي يؤدي إلى الحديقة. في الأمام كان هناك بابان آخران، غرفتان، كما افترضت، وفي الجانب الأيمن لم يكن هناك أي شيء، إلا

فتحة نصف دائرية صغيرة سوداء وبعض السلالم الأخرى التي في هذه الحالة يمكن أن توصل إلى المستودعات السفلية للبيت.
تنبعث من الأرض رائحة قوية لفضلات الطيور، ربما من الحمام الذي سمعناه يرفرف فوق رؤوسنا، وفي وسط الفناء، كنا نتمايل ويتداخل بعضنا في بعض، كانت هناك ورود متسمة بأوراقها الطويلة والعريضة. يستحضرون غابة، أو نافورة ماء ربما. وفكرت أنه ربما كانت لكل شيء من تلك الأشياء المهجورة هناك وظيفة محددة. كانوا عباقرة، شياطين، أفكار غير مادية ونقية، في انتظار اللحظة الدقيقة للعودة إلى أخذ شكلها الحقيقي. تملّكني شعور بالحزن، كحال المرء الذي يعود بعد فترة طويلة إلى المكان الذي يألفه: فجأة يعتقد أن يتعرف بنفسه على الجدران والأثاث وعلى الأشياء المجزأة المهجورة، ما يوقظ تلك المشاعر، فقط أن ذلك لم يكن منزلي.
سأذهب إلى إشعال الضوء قالت كونجا، مختفية أسفل الدرج.
ما أسوأه من قدوم، أليس كذلك؟ قالت آنا وهي تفرك كتفيها.
كان الظلام قد حلّ تقريباً، وبدأ الجو بالبرودة. تمسّكت آنا ببابلو، الذي كان ينظر حوله بحذر.
بالنسبة إليّ، يبدو أن المكان مدهش قلت لها، لكن رطوبة البيت، مليئة الآن بالصمت والتحذيرات، تتسلل إلى جسمك، وتصيبك بإحساس الشيخوخة، أو المرض فكرتُ، بماض لا يمكن تعويضه.
كئيب إلى حد ما قالت.
هسسس، شاركت إيفا الحديث بمسك إصبعها ووضعه على شفتَيها.
إذا دخلتم هنا من أجل شيء ما، فلا تنسوا إطفاء الضوء بالضغط على مفتاح الضوء الموجود في نهاية الدرج نزلت كونجا بالفعل. سأترك لكم باب الحديقة مفتوحاً؛ حتى تتمكنوا من إدخال الحطب أشارت إلى القوس الذي تحمله معها. لكن أنصحكم بألا تقضوا وقتاً طويلاً هنا. هو بيت قديم... أضافت بصوت كئيب مماثل لذلك الذي يتردد في فناء المنزل.
عاش هنا بعض العائلات، أليس كذلك؟ سألتُ. بدت كونجا متشجعة لسؤالي.
عائلة واحدة فقط. كان دون أنطونيو كاتب العدل في القرية، وعاش هنا مع السيدة كارمن، التي هي الآن في رحمة الله هذا ما قالته متطلعة إلى السماء بعينين دامعتين ومندهشتين، لتعطي انطباعاً بأنها في الوقت نفسه يمكنها أن تضحك وأن تبكي؛ وحذرت من أجل دهشتها الكبيرة، التي عبّرت فيها عن اسم الله، لتعبر الأصابع المشار بها، ووسط اليد اليسرى: لفتة كنت قد رأيتها في أفلام الرعب، لكن بدى لي أن الذي عاشته كونجا مع أطفالها الأربعة كان مضحكا. واصلت حديثها: كانت تعيش هنا الخالات أيضاً، بطبيعة الحال أضافت، ولكن من الأفضل ألا نتحدث عنهن الآن.
حضرتك عملت هنا، أليس كذلك؟ سألت هذا السؤال بصورة طبيعية ليتوافق مع تفكيرها.
خلال أربعين سنة أجابت مفتخرة . وأمي أيضاً. أنا ولدت في هذه الغرفة أشارت إلى الباب الأيمن تعالوا.
كان للباب مفتاح في القفل، فتحته كونجا بعناية لنكتشف ذلك الذي كان بالفعل ما يشبه بيتاً صغيراً: مصحوباً بحديقة صغيرة، وفي داخله، كانت هناك الغرفة الأولى مع المدفأة التي كانت في وقت ما عبارة عن غرفة صغيرة أو مطبخ، وبعد ذلك مباشرة، كانت هناك أيضاً غرفتان صغيرتان. الأولى لم تكن تحتوي على أثاث، تحتوي فقط على سرير حديدي وعجلات دراجة هوائية قديمة: حيث كانت الإطارات صدئة، والمطاط كان تالفاً ولم يعد صالحاً للاستخدام.
سريري هناك قالت مشيرة إلى مكان منعزل.

أما الغرفة الثانية، فقد كانت تحتوي على خزانة آيلة للسقوط؛ كانت أبوابها مفتوحة، وفي داخلها أسلاك مكشوفة وأخرى ملفوفة، تبدو وكأنها لجهاز أشعة سينية قديم. تخيلت وجود هيكل عظمي حول النافذة المظلمة: عظام الأرجل الطويلة، اليدين، الأكتاف التي تومض مثل لمبة بيضاء قابلة للتلف، القفص الصدري مفتوح مثل أرجل عنكبوت، الجمجمة التي تُظهر الأسنان العارية فوق اللثة المجردة، ليتم التخلص منها لاحقاً. ورأيت جثة فرانثيسكو داخل التابوت، وجهه يلمع كما لو كان قد وضع عليه مستحضر تجميلي (كريم) أو كأنه تحوَّل إلى شمع، ومع ذلك، كانت ملامحه نحيلة جداً، لتبدو وكأنها بدت تمزق الجلد؛ تعابير السلام جلية على وجهه، عادة مزاجية. عدت إلى سماع التعليقات التي لا قيمة لها من العائلة والأصدقاء قبل طقوس الدفن. عدت إلى الشعور بالنظرة الفارغة لإيفا. وحقدها المكتوم ومعاتبتها الممزوجة بالاهتمام والحرص تارة، وبالضجر تارة أخرى.

يبدو أن هذه استشارة الطبيب قال بابلو.

نعم، كانت استشارة طبيب ردّت كونجا. والد دون أنطونيو كان طبيب أوخيار لعدة سنوات. وكان طبيباً جيداً، نعم سيدي، دون خوزيه، رحمه الله. يداه هما اللتان أحضرتاني إلى هذا العالم رفعت كونجا يديها ونظرت إلى كفّيها، كأنها تبحث عن شيء ما. لديكم الوقت خلال هذه الأيام، ربما أحكي لهم هذه الحكاية في هذه الفترة.

عند المغادرة، أدركت أن السلالم التي تنحدر من الحديقة كانت مسدودة بجدار من الطوب مع عتبة القبة.

ماذا كان هناك، كونجا؟

مخزن كان وجهها يغلب عليه التوتر أثناء النظر إليه.

ولماذا هو مسدود؟

واحد من أبناء دون أنطونيو والسيدة كارمن ماتا هناك في الداخل. ناهيك عن الأموات الآخرين أضافت كونجا مختصرة المحادثة. ولم تتمالك آنا نفسها، فضحكت ضحكة صاخبة، ليصدمني سلوكها أكثر من تعليق كونجا نفسه هيا إلى فوق.

ما زلت أحدّق في الجدار. وبالتحديد في وسطه، حيث كانت هناك بقعة خافتة مميزة، ربما تكون من الرطوبة. لم أستطع أن أدقق النظر فيها بشكل جيد، فجأة، عدت إلى سماع صوت الدبّور، طنينه الصاخب.

هيا!! حثّتني كونجا.

صعدنا الدرج، الذي يؤدي إلى باب خشبي آخر، الذي يبدو أنه كان عبارة عن مدخل لغرفة ملابس القساوسة، كان منحوتاً، وفي الوسط، برزة من الخشب، حيث كان هناك صليب أسود، وعلى جانبيه يوجد رأسا مَلَكَين: الأول مبتسم، والآخر لا. فتحت كونجا الباب بمفتاح ثقيل، أخرجته من كومة المفاتيح التي تحملها.

لماذا يوجد هذا الباب هنا؟ ما فائدة وجوده هنا؟ سأل بابلو.

عندما تم شراء البيت، كان موجوداً هنا. ربما كان جزءاً من الكنيسة التي تحاذيه ردّت كونجا متملصة؛ أو أن هذا الانطباع هو ما أعطاني ذلك الحكم عليها بالتملص من السؤال.

في هذا الطابق، الممر كان مزوداً بنوافذ كبيرة، تمتد من الشرفة الكبيرة، والدخول في هذا الممر يسبب الشعور بأنك في غرفة كبيرة مغلفة، حيث كانوا يسجنون الزمن، والأثاث، وحياة عصر آخر. كان الممر مغطى بسجاجيد نظيفة وفي حالة جيدة، متأكد أن ذلك يعود بفضل راعية البيت كونجا.

واجهات الممر كانت مزينة باللوحات التي تمثل مشاهد الصيد، الحيوانات، مشاهد البشرات والصور الزيتية، وفي كل جانب يوجد على الأقل بابان. كانت كونجا تذهب إلى فتحها وإغلاقها بعناية كبيرة، كأنها تحتفظ بكنز، أو سر، ربما هي فقط التي تعرف كل شيء هنا، والحقيقة هي التي أبقتنا مندهشين أمام الغرف بأسرّتها الحديدية، والمرايا الكبيرة، والأواني البرونزية. أكثر من سكن، كان هناك أربعة، كل جانب يحتوي على شقة صغيرة مستقلة بكل ما فيها، فيها غرفة نوم، صالون صغير، ومطبخ، على الرغم من أن معظم الصور والأشياء الشخصية اختفت، إلا أن الغرف كانت دافئة، بل دافئة جداً. يوجد درج آخر صغير، يقود إلى الطابق الثاني، متجهاً إلى المخازن وإلى برج الحمام، رغم أننا لا نستطيع الصعود، فإننا أيضاً لم نجده في حالة جيدة، تجعلنا نغامر في صعوده.
في الدهليز العلوي احتفظوا بحبوب القمح والزيت القديم جداً وضّحت كونجا ، لكن منذ سنوات لم يستخدموه.
هذا محزن، أليس كذلك؟ قلت لها. الحفر العميقة الموجودة على الجدران بلون أحمر غريب، مثل قطرات الدم التي تتساقط من شفتَي فرانثيسكو بعد سعال خانق ومزعج على خزف التواليت الأبيض: رموز لمعاناتنا. فكرت أن الشيخوخة والمرض يشتركان في جعلنا نقبل بطبيعة ذلك الشيء الفظيع: العجز، الضعف التدريجي في وضوح الأفكار وفي الشعور بأعضاء جسدنا . ألم يأتوا لتصليح البيت؟ سينتهون من بيعه قالت كونجا . هناك مَن يريد أن يشتريه أضافت ملغزة إلى بعض الأمور.
عادت آنا إلى الضحك الهستيري. في الواقع، يبدو أن بطأنا كان قد جعل مزاج كونجا سيئاً، لتفاجأني تلك السرعة في تغيّر شخصيتها، كانت قد نسيت فرحتها بنا، والآن أظهرت أنها متسلطة جداً، وشكاكة، تراقب في كل لحظة بعينيها الفضوليتين أين نضع أيدينا. إيفا وبابلو كانا مستاءين بشكل واضح، وأعتقد أننا شعرنا بالراحة فقط عندما أغلقت كونجا باب غرفة ملابس القساوسة بالمفتاح، حتى هي، التي عادت إلى تحويل شخصيتها. بعد سحب المفتاح من القفل، نظرت محدقة إلى أحد تماثيل الملائكة، وقالت له:
وأنت لا تراني هكذا، آه؟
هرع بابلو وآنا وإيفا إلى نزول الدرج، ثم تبعتهم كونجا ثم أنا. وبينما كانت كونجا تفتح باب الحديقة، كنت أنا ما زلت متوقفاً للحظات في الفناء؛ لأنظر من أسفل الدهليز. تخيلت أن شخصاً ما كان ينظر إليّ من الأعلى، وعندما خفت من ذلك، نظرت إلى الأسفل، لم أتمكن من تجنّب النظر من جديد إلى الجدار، ذلك الذي لا أعرف لماذا فكرت بأنه كان عبارة عن سرداب وهمي. بدأ القلب بالخفان بصورة سريعة، حتى أنني شعرت به بين وجنتي، لأتخيل قوساً يصعد إلى فمي: البقعة لم تكن من الرطوبة، وإنما كانت جرحاً ينزف. كان ذلك الجرح عميقاً في ظاهره، على شكل فم: ينزف منه الدم في يدين متدفقتين. وبعد ذلك لم أر أي شيء آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ديخا فو

شربتُ كأس ماء في البيت الجديد، وكان الآخرون ينظرون إليّ ما بين مستمتعين وقلقين. كنا في الشقة الثانية، في السكن الأكبر، الذي يحتوي على نوافذ كبيرة العيون التي كنت أتخيلها عند الوصول كما أنها تطل على ساحة القرية.

أنت أفضل الآن؟

داعبت إيفا رأسي. كنت أجلس على الكرسي. أخيراً لقد ذهبت كونجا. كانت تقلل من أهمية إغفاءاتي وسهواتي وتخيلاتي حتى أنها كانت تضحك ، لكنها كانت تنظر إليّ بنظرات القلق، كما لو أنها تشعر بالذنب أو هي نفسها كانت تلقي عليّ اللعنات.

الشقة التي كنا نسكن فيها كانت مريحة، حيث كان فيها صالون كبير مع مدفأة، منعزلة عن المطبخ بواجهة على النظام الأمريكي، كما تحتوي على أربع غرف، وحمامين في القسم العلوي منها، حيث يوجد درج صغير. كانت الشقة مزينة بزينة من البشرات سجاجيد بألوانها البهية، الأواني والطاسات النحاسية ، كما أنها كانت جديدة، ومجهزة تجهيزاً كاملاً، مع تدفئة إلكترونية في كل غرفة، تلك التي أشعلناها بناء على نصيحة كونجا أثناء وصولنا فقط. في الطابق السفلي مباشرة، كانت هناك شقة أخرى، لكنها كانت فارغة، ويمكن الوصول إليها من خلال الحديقة، في حال إذا كنت قد دخلت من خلال البيت الآخر، أو من خلال البوابة السوداء التي توصل إلى الباب الجانبي وإلى كراج السيارة الذي لا نستطيع رغم كل شيء استخدامه.

أذهب إلى السيارة من أجل إحضار الحقائب قال بابلو. تأتين معي آنا؟

نعم ردت، متجنبة النظر إليّ.

لويس أصرّت إيفا هل أنت بخير؟

نعم قلت لها من دون قناعة داخلية كبيرة.

كانت إيفا تقول لي دائماً إنني كنت خياليا بشكل مفرط ومبالغ فيه، لكن هذا شيء مختلف. إن ذلك الذي كان يزعجها مني كثيراً هو الشعور بـــ «ديخا بو»([5]) الذي كان يلازمني منذ أن دخلت إلى هذا البيت. نظرتُ من الشباك إلى سلسلة الجبال المحيطة، إلى القمم المرتفعة المحاطة بمنحدرات يغلب عليها اللون الأحمر، وفوقها بعض الغيوم السوداء، سحبت نظري فجأة، لأكتشف في الجزء السفلي من الإطار دبوراً كبير الحجم. هل كان يتبعنا من بيت إلى آخر؟ كان صامتاً، ينظر إليّ بعينيه ذاتَي اللون الأخضر الزمردي اللتين تبرزان من جسده المشعر. لكن أنا ما زلت أتابع سماع طنينه، كما لو أن ذلك الصوت أصبح نقشاً في داخل رأسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكابوس

هذه الليلة الأولى التي كنت أحلم فيها كثيراً بأحلام مشوشة، ويظهر البيت فيها كلها كأنه الوجود الدائم. أريد أن أقول إنه يظهر كأنه الشخص الذي يأخذ وجوه الناس الذين كنت أعرفهم أو كانوا على علاقة معي في بعض اللحظات من حياتي، يحذرونني من شيء فكرت في حلمي، «جاؤوا ليحذروني من شيء» أو أنهم حددوا نقطة التحول، وعندما لا يفعلون ذلك، عرفتُ أنَّ البيت كان لا يزال هناك رغم أنني لم أره، ينظر إليّ، ظننت في أحلامي أنه يراقبني. لكن البيت كان عبارة عن مستشفى، وأنا أبحث من خلال الممر الطويل الذي لا نهاية له عن الغرفة التي يقيم فيها فرانثيسكو، حيث كانت إيفا وأخواتها وأمها ينظرن إليه. في أسابيع والدها الأخيرة، كانت إيفا تفعل المستحيل من أجل خلق البديل في رعايته معهنّ، لكن لم يبدُ ذلك كافياً، فقط لمجرد أنها لم تعش في بيت العائلة نفسه، حيث المرض وتوقعات الموت يمثلن يوماً على يوم مسببات الكآبة.

تيريزا ولوسيا ما زالتا تدرسان وكانتا غيورتين من استقلال شقيقتهما الأكبر بعد زواجها، عاتبنها بحالة أكثر أنانية وهجومية، على اعتبار أنها تركتهما وحيدتين لتحمّل مسؤولية والدهن، كما لو أنه لم يكن لهما الحق الطبيعي في التنعم بحياتهما. وفق رأيهما، كان على إيفا ألا تتزوج في هذه الفترة، لكن الحقيقة هي أنه عندما قررنا الزواج، لم يظهر على فرانثيسكو أي أعراض من هذه «البكتيريا الطفيلية التي ظهرت عليه»، كأنني كنت أشير إلى مرضه في بعض الأحيان، وأنني في حلمي استعدت شكل كرة مغطاة بمصابيح التي يزداد حجمها من أجل أن تظهر وجه فرانثيسكو، وأطرافه المتورمة والمشوهة. إلى جانبه كانت تقف أم إيفا مثل دائماً، والتي كان اسمها ماريا، صامتة وعدائية، تجلس على كرسي آيل للسقوط إلى جانب رأس السرير الذي تنام عليه، كذلك الذي كنت أراه في كثير من الأحيان في المستشفى، شغلت كل وقتها بآلام زوجها وماضيه، وبالحياة التي كانت تتمنى تغييرها حتى لا تحصل على نتيجة قاتلة. لأن ماريا كانت مقتنعة بأن حياتها تنتهي بانتهاء حياة فرانثيسكو؛ ربما لأنها كرَّست له كل الرعاية والاهتمام، له ولبناتها أيضاً؛ ففرانثيسكو كان الزوج الذي يعمل بجد حتى لا ينقصهم أي شيء هكذا يتذكرونه باستمرار كما أنه كان الرجل الذي يسلم يديه وصحته في الأعمال التي كان يديرها على اعتبار أنه رئيس العمل. وماذا فعلنا؟ أن نكون مثلهم؟ هل ربما سنتغير من أجلهم؟

أنا، كنت بالكاد أحتفظ بعلاقة مع والدي خارج الزيارات الضرورية وبعض المحادثات الهاتفية، لم أفهم لماذا كل هذا الاهتمام لمعرفة كل شيء عن حياة الآخرين، ربما لمراقبتهم، حتى من دون ترك مساحة للخصوصية. أشعروني بأن ماريا كانت قد اتخذت تجاه تلك الحيوانات العجوزة والهزيلة التي قررت فجأة أنها لم تعد بالفعل قادرة على الاستعانة بنفسها وأنها تفضل أن تُترك وحيدة لتموت. الكآبة المصحوبة بالمرض تطغى على الأشخاص المحيطين بها، تقيدهم بعارها نفسه وبعدم قدرتها على العيش. ولهذا السبب شعرت بحزن شديد تجاه موقف إيفا، ذلك الذي كان في تلك اللحظات مشابهاً لموقف والدتها، لتنحاز لهن «هم عائلتي، ماذا تريد مني أن أفعل؟» عندما انتقدت سلوكياتها. اختلطت هذه المشاعر مع الأحداث التي حدثت اليوم، وفجأة كان المشفى بيت لوس توباريس الجديد، ولوسيا وتيريزا وفرانثيسكو وماريا، انتظروني في الغرف التي كنا نتنقل فيها مع كونجا، وكان تاريخه ذلك الذي حكت لنا عنه كونجا، ينبغي أن يكون تاريخي أنا أيضاً.

انتهت الصورة بإدهاشي. مع هذا المنطق الغريب للأحلام، وجدت إيفا في الغرفة الأخيرة من البيت، الغرفة التي لم نرها صباح اليوم، تلك التي تقع في نهاية هذا الدرج المتهلهل، الذي كنا قد وقفنا عليه من قبل. بقيت إيفا راكعة أمام السرير الفارغ، سرير المستشفى حيث مات والدها هناك. وصلّت صلاة: «تحرسها الملائكة، وترافقها...». وحول ظهرها، ظهر ملاك فارداً جناحيه. لكن مظهره كان متوعداً. يحمل سيفاً في اليد، وكان يحوم فوق رأس إيفا. ووجه الملاك كان شبيهاً بوجهي، الذي كان يظهر ابتسامة ممزوجة بالقسوة والرضا.

وهكذا بقيت مستيقظاً للحظات، مستمعاً إلى هبوب الرياح الذي كان عالياً جداً، وإلى أجراس الكنيسة، واحد، اثنان... خمسة، ستة.... في الساعة السابعة استيقظت، محاولاً ألا أثير أي ضجيج، على الرغم من أن حركة السرير تثير صوتاً مزعجاً أثناء النهوض.

إلى أين أنت ذاهب؟ سألتني إيفا.

لتنامي أجبتها. وقبّلتها على جبينها وعينيها، كما اعتدت أن أفعل لها ذلك، عندما كانت هي تحلم بكوابيس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكتب

نهضتُ، وارتديتُ اللباس نفسه، الذي لبسته البارحة ودخلت إلى الحمام. القسم السفلي من السكن كان على شكل حرف L، ويحتوي على غرفتي نوم وحمام في كل جزء من الممر. نحن كنّا قد اخترنا الجزء النهائي القصير. آنا وبابلو كانا قد اختارا الجزء النهائي الطويل، الذي يقع في الجانب الآخر. راشيل ورافا، عند وصلوهما، اتفقا بود فيما بينهما أنهما سيقيمان في الغرفة التي لا تحتوي على سرير مزدوج. «كان عليهم أن يأتوا من قبل وأن لا يتأخروا»، قلت في نفسي. ولكن باستثناء ذلك، كانت الغرف متشابهة في حجمها، نظيفة، وتحتوي على أثاث متكامل، وفي كل واحدة منها نوافذ تطل على الحديقة، إلا غرفتنا، التي كانت فيها شرفة مزينة بالزهور، من أجل ذلك، عندما تخرج إليها، تمنحك انطباعاً بأنك موجود في غرفة صغيرة أشبه ما تكون بزنزانة ضيقة. أرضية البيت كله كانت مبلطة بصلصال أحمر، لامع وبارد في بعض الأجزاء، بفضل بعض المواد التي كانوا يرمونها على الأرض لجعلها تلمع بهذا الشكل، فكرتُ.

نظفت نفسي وصعدت إلى الصالون. اليوم السابق، وبينما كنا نتناول وجبة العشاء كنا قد أحضرنا معنا مؤونة تلك الليلة، فقد كان ذلك اليوم عطلة ولم يكن بمقدورنا شراء أي شيء حتى اليوم الثاني كنت قد رأيت بعض الكتب الموجودة على رفوف المكتبة فوق المدفأة. ظننت أن هذه الكتب تعود إلى مالكي البيت، وأنهم كانوا قد قرروا تأجير هذا الجزء، فقاموا بوضع هذه الكتب خصيصاً، من أجل المستأجرين، الذين ربما يكون بعضهم يحب القراءة، ويجد في بعضها ما يتحدث عن تاريخ البيت، الذي بدأ بالفعل يثير في نفسي بعض الهواجس. على الرغم من أن معظم هذه الكتب كان عبارة عن روايات بوليسية لستانلي غاردنر، ومجلدات قديمة في القانون دون أنطونيو كان محامي القرية، تذكرتُ كان مستعملاً فيها الزخرفة، على الرغم من أن هناك نسخة مبهمة من كتاب «إلى جنوب غرناطة» للكاتب الإنجليزي جيرالد بيرنان، فقد كنت أعرف الكتاب، الذي كان عبارة عن كتاب من جزءين يتحدث حول ثورة الموريسكيين ومرشد الجيب لمنطقة البشرات.

بدأت أقلّب الورقات الأولى من كتاب بيرنان، أبحث عن الجزء الذي خصصه للحديث عن قرية أوخيار. وفق «الإنجليزي»، أو «الدون جيرالد»، كما كان يلقبه جيرانه، فإنّ هذه البلدة لم تكن سوى أوديسسيا، التي تم تحويلها بعد ذلك إلى الاسم اللاتيني أوليسيا، حيث يوجد معبد مخصص لأثينا، وحيث أوليسيوس نفسه، جذبته رمال النهر الغنية بالذهب، الذي سيغادر نتيجة التصويت من قبل على الرحيل بدروعه وسفنه.

في هذه الأسطورة يمكن أن نجد أثرا للحقيقة التي تقول إن قرية أفيرا، وقرية مارتيريو، هما هدف صيادي السواحل من أجل العبادة، الدعاء الذي كانوا يتذرعون به في كثير من الأحيان مثل منطقة بحر الميريا وأدرا. يسلط بيرنان الضوء أيضا على معرض الماشية المشهور يمثل الاحتفال الأصلي الذي أخبرتنا عنه كونجا في يوم سابق، والذي يكون في فترة العاشر إلى الرابع عشر من أكتوبر ، الذي قد زاره في ذلك الوقت، عندما كان يعيش في يجن، القرية القريبة من بالور، حيث ولد ابن أمية. قادتني هذه الإشارة إلى التفكير في حميه، لاس روخاس، الأصحاب الأوائل لهذا البيت، رغم أنني ما زلت أتخيل قليلاً مع أوليسيس وفكرة الرحلة، فكيف اعتاد الأدب على تغيير حياة من يدركونه ويفهمونه، وذلك الذي يمكن أن يحضر لنا (التحرير أو القطعية مع الماضي القريب، أو على الأقل ماضي إيفا وماضيَّ أنا).

بعدما بدأت بقراءة كتاب «مسلمو غرناطة» للكاتب الإسباني خوليو كارو باروخا، تأملت أن أعثر على أي شيء يتعلق بالبيت، أو أي شيء يتحدث عن لاس روخاس. هناك جزء خاص بالبشرات، لقد كانت المملكة الأخيرة لعبد الله الصغير (بوعبديل)، الملك الصغير، قبل ذهابه إلى بلاد البربر إفريقيا. وفق شرح الكاتب، بعد سقوط مالقة، باثا وألميريا، أصبح الوضع خارج سيطرة المسلمين، ولم يعد هناك إمكانية للدفاع عن المدن المتساقطة، فعلى الرغم من أن بوعبديل حاول المقاومة، إلا أن المدينة كانت منهكة؛ بسبب الصراع الأهلي الطويل في الواقع، كان صراع النسب، مثل ذلك الذي واجهه الثغري، المدعوم من قبل الثغريين، والذي واجهه بوعبديل نفسه، ابن أخيه، بدعم من بني السراج، الفقيرة والمكتظة بالسكان، من اللاجئين والمهجرين، الذين كانوا يتوافدون باستمرار إليها، والذين كان عليهم الاستسلام.

هكذا، في الثامن والعشرين من شهر نوفمبر من عام 1491م، سنّ هيرناندو دي ثافرا، سكرتير الملكين الكاثوليكيين، شروط الاستسلام، التي كانت مقبولة تماماً بالنسبة إلى المهزومين. تخيلوا وفق روح التسامح في القرون الوسطى، بأنهم سمحوا لهم بالحفاظ على ممارسة عاداتهم المختلفة، «القضاء الخاص بهم، أطبائهم، ومنفذي القانون الديني»؛ فقهائهم وعلمائهم، الذين سيتابعون مسؤولياتهم تجاه رئاسة المدن الإسلامية. كما ستحترم خصوصياتهم بكل الجوانب، رغم أن التنازلات ستنهار قريباً. بهذه الطريقة، حصل بوعبديل بصورة عملية على كل البشرات، كما هي معروفة اليوم: «قرى وأماكن باريخا، وداليا، ومارخينا، وبوجودو، لوتشار، وأندراكس، وسوبليس، وأكشيار، وأرخيبا، والخوبيل، وفيريريا، وبوكجيرا، وكل المناطق الموجودة في الوسط وعلى اليمين وفي المناطق العشوائية الأخرى التابعة لهذه المناطق كلها»، تمكنت من قراءة الاتفاقية الثالثة المنصوص عليها في اتفاقية التسليم؛ فقد استقر الملك الصغير في لاوخار أندراخ Laujar de Andarax. قُسِّم الإقليم إلى محافظات ومناطق متعددة إقليم لا يرأسه أكثر من رئيس بلدية واحد([6])، مسيحي، يكون عنده قصر، حيث يسكن، ويقيم ويقضي أحكامه، وكانت البشرات قد قُسمت هي الأخرى إلى ثماني مناطق: بيرخا، لوتشار، أندراخ، أوجيار، كادیار أو خوبيلس، بيتريس، بوبيون وأوركيفا.

هذا يُفسر وجود البيوت الفخمة بشكل كبير في هذه المنطقة، وتعد قرية أوخيار مثالاً على ذلك، حيث استقر فيها أيضاً جزء من سادة عائلات المجتمع الغرناطي، الذين تبعوا أو سبقوا ملكهم؛ سلالة الذين بعد سنوات سيقودون الثورة، فعلى الرغم من التهجير القسري لهم، إلا أنهم احتفظوا بجزء كبير من ممتلكاتهم وسيادتهم، رغم أن معظمهم كانوا صغاراً في أعمارهم البالور كانت عائلة الدون هرناندو، والتي سيكون منها في المستقبل ابن أمية.

احتفظ بوعبديل ببعض ممتلكاته الخاصة لعدة أشهر فقط؛ لأن الملوك الكاثوليك كانوا قد حكموا عليه بالإقامة الإجبارية، بمعنى أنه بالفعل لم يعد ملكاً، وأن وجوده في شبه الجزيرة الإيبيرية يمكن أن يخلق بعض الصعوبات مع مرور الزمن. كان ملوك الكاثوليك قد اشتروا سكرتير بوعبديل، والذي كان اسمه ابن كوميكسا Aben Comixa، ومن خلاله ومن خلال سكرتير بوعبديل الخاص هيرناندو دي ثافرا، اقترحوا عليهم أن يبيعوا كافة ممتلكاته، ويرحلون إلى إفريقيا. «تنازلت عن المملكة لأكون في سلام، ولن أذهب إلى شخص غريب كي يكثر عليّ أسئلته»، أجاب بوعبديل، الذي

لم يكن متأكداً كيف سيحصل على شيء هناك عمه، الثغل، الذي كان قد فعل الشيء نفسه بثروته النادرة قبل عامين.
ومع ذلك، فإن ابن كوميكسا استمر بالتواطؤ مع هيرناندو دي ثافرا، تابع إثارة القلق في نفس ملكه، بالحديث عن وجود مؤامرات وتهديدات مزعومة، وسافر كوميكسا إلى برشلونة بحجة الاعتناء بمصالح بوعبديل، إلا أن الحقيقة تتمثل في رغبته ببيع كل ممتلكاته وما يقع تحت سيادته إلى الملكة إيزابيلا والملك فيرناندو، وقد باعها بملغ تسعة ملايين ماربيديس، «أجبروه على مغادرة أرض إسبانيا حتى لا يعود إليها مطلقاً». خلال الإعداد للرحيل، زوجة بوعبديل، التي كان يطلق عليها اسم مريم، والمشهورة بجمالها، ماتت في نهاية المطاف من الحزن، في عام 1493م، الثغوبي أو الديسبينتورا ديو، كما كانوا يسمونه في ذلك الحين عبر المضيق، ليتم استقباله بمصالحة كبيرة في فاس. دافع عنها حتى موته في ساحة المعركة عام 1526م.
أما بالنسبة إلى المملكة التي تركها وراءه، فقد فعل فيها الملكان الكاثوليكيان بعض اللمسات الأولية، ما يسمى بمجلس الأساقفة الأعلى، الذي عمدوا إلى تأسيسيه بدعوة الراهب هيرناندو دي تيليبرا، قس أبيلا ورجل الدين المعترف به في المملكة كلها، «رجل رائع جداً وبارع، يعمل كثيراً، ويعلم الكثير عن الحروف المقدسة، على معرفة واسعة بفلسفة الأخلاق، نموذج للحياة المقدسة، والمحادثة الطيبة واللطيفة»، إنه الرجل الذي سيبدأ بعملية «التحويل»([7])، مع احترام ومعزة خاصة من الموريسكيين أنفسهم، ولذلك فإنهم كانوا يطلقون عليه اسم «فقيه المسيحيين المقدس».
ومع ذلك، ومع وصول فراي فرانثيسكو دي ثيسنيروس إلى غرناطة بدأ الوضع بالتغير، وهذا «أكثر غيرة على الإيمان»، بدأ باتخاذ الإجراءات التي تشكل عنفاً خطيراً من القرارات إحراق الكتب العربية أو العمل على تحويل المساجد إلى كنائس، كما فعل بمسجد حي البيازين الذي حوَّله إلى كلية سان سالبادور لتنشب بعد تلك الأفعال الثورة الأولى في حي البيازين، بقيادة الثغري وبعض المتمردين الآخرين؛ ثورة لم تكن لتنتهي لولا تدخُّل الأخ هيرناندو. منذ تلك اللحظة، أصبح يطلق على المسلمين المتحولين اسم «الموريسكيون»؛ وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة للعودة إلى الاتفاقيات المبرمة، إلا أن الوضع كان مخلخلاً، ولم يعد قائماً على الإصلاح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آنا

بينما كنت منهمكاً في القراءة، التي لم تجعلني أدرك أن آنا كانت قد دخلت إلى الصالون، وأنها كانت تنظر إليّ بوجه غريب، استغرقت متأملاً في عينيها الخضراوين، مع إشراقة الصباح الأولى.
هل اطلعت على الجو الغائم؟ قالت.
الحقيقة هي أنني لم أقم بفتح النوافذ. فقد كنت جالساً على الكرسي، بجانب المدفأة، أقرأ على ضوء المصباح العمودي. إلا أنها هي مَن قامت بفتح النوافذ كلها.
وماذا؟ أجبتها، ثم تحدثت آنا كما لو أنها كانت قلقة.
ألا تتذكر ما قالته لنا كونجا البارحة؟
أنه يمكن أن تتساقط الثلوج وأن نجمع القليل من الحطب؟
إنها لم تكن بهذا السوء أيضاً. كنّا مرتاحين بجانب المدفأة وهذا كل شيء. من أجل هذا كنت تنظرين إليّ بنظرات غريبة؟
لا، قالت متملصة من الإجابة.
ثم، ماذا بعد؟
عندما دخلت إلى الغرفة، أنت من كان يظهر على وجهه الغرابة.
ماذا تريدين أن تقولي؟ كنت أقرأ.
كان شيئاً أكثر من ذلك... كان عليك أن تنظر إليّ، تشعر بوجودي، لم تبدُ أنك أنت، كنت كأنك أنت مؤكدة إلا أنك لم تكن حاضراً بروحك.
لحسن الحظ، في هذه اللحظات، ألقت علينا إيفا تحية الصباح. لتقطع المحادثة، وتبقيها مفتوحة. لم أكن أرغب في الاستماع إلى جنون عظمة آنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المنفيون

مع كارلوس الخامس، استمرت سنوات الهدنة والتعايش السلمي، لكنهم بدأوا بأخذ التدابير اللازمة والأكثر تقييدا على الموريسكيين تأسيس محاكم التفتيش في غرناطة عام 1525م، في السنة نفسها التي قرر فيها الإمبراطور وضع نصب تدشين المبنى الذي يحمل اسمه داخل قصر الحمراء، ومن هذه التدابير التي اتخذت بحق الموريسكيين، رفع الضرائب التي يدفعونها، وإجبارهم على ارتداء الزي المسيحي، على الرغم من أن الإمبراطور أعفاهم من هذه القرارات، ومساهمتهم السابقة في تدمير سفن التاج الملكي.

في زمن فيليب الثاني، كان الظلم كل مرة يزداد قسوة على الموريسكيين، المحظورات 1560م ليس فقط حظر اللباس الموريسكي، ولكن أيضاً حظر عليهم استخدام السلاح، واللغة، واستخدام العبيد السود، الذي كان شائعاً بين العائلات الغنية. كما أن الوضع الحساس للإمبراطورية الإسبانية أسهم في ذلك كله.

كان عام 1538م، عام الانتصارات العظيمة لسليمان القانوني، وكان لمفاخره ومآثره تأثير مزدوج: تشجيع الموريسكيين وبث الأمل في نفوسهم، من جانب، والتأكيد على خوف المسيحيين، الذين بدأوا بالتفكير في وجود عدو لهم في الداخل من جانب آخر.

في عام 1549، أخذ سليمان القانوني يفكر بقوة غزو البشرات، وبالتالي فإن الهدف التركي أصبح يرتكز في البحر المتوسط والجزائر، والذي سيشكل بدوره خطراً حقيقياً على إسبانيا. في عام 1558، هاجم 4000 تركي منطقة مينوركا Menorca واقتربوا حتى منطقة بيرخا Berja. بعد ذلك بعامين، قام الأتراك بغزو البحر المتوسط، ليتحكموا فيه بسفنهم. في عام 1560، قام دراغوت بإغلاق مدينة نابولي، وظن أن سفارة موريسكية قدمت إليه لتخبره بالخطر المحدق الذي قد يلحق بمنطقة البشرات. في عام 1566م، استولى الأتراك على 28 سفينة أثناء خروجها من ميناء مدينة مالقة، أسروا 4000 أسير في إحدى الغارات التي قاموا بها على أراضي تابعة لمدينة غرناطة.

ولمواجهة هذا الوضع المريب، قرر فيليب الثاني أن يتخلى عن مرونته تجاه الموريسكيين، وألا يعترف بالادعاءات التي قدمها الوفد الموريسكي له، والتي تحث الملك على تعليق قرارات الحظر التي من شأنها أن تمحق عاداتهم. انزعجوا، الكثير من الموريسكيين نفذوا عمليات سرقة وقتل، وقاموا بالعديد من الغارات على بعض المحميات «في الأراضي الجبلية والسهلية الجرداء» في قادش وبيثا وألميرية. لتتخذ الإمبراطورية تدابير صارمة لقمع هؤلاء اللصوص، الذين أطلق عليم اسم «المنفيون»، ما جعلهم يضطرون للوفاء وإعطاء الولاء للملك. ولهذا الغرض، تم تعيين بيدرو دي ديثا رئيساً للأساقفة، والذي كان في ذلك الوقت رئيساً لمحاكم التفتيش. وفي الوقت نفسه، كان الميسورون من أغنياء الموريسكيين يدعمون التمرد بشكل سرّي، ذلك التمرد الذي أوشك على إنهاء أكثر من سبعين عاماً من الهدوء والتعايش. حيث برز من بينهم ابن فرج، والذي يعود نسبه إلى بني السراج، والزغير، مساعد مأمور غاديار وعم الدون هيرناندو دي بالور، الذي كان من نسب بني أمية ومن سلالة خلفاء قرطبة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأصدقاء

وصل رافا وراشيل في منتصف النهار، مما ساعد على تبدد القلق والاضطراب الذي كنّا نشعر به بطريقة أو بأخرى. كان رافا يعمل طبيباً، أكبر مني قليلاً، رغم أن بابلو وأنا كنا قد تعرفنا عليه منذ فترة طفولتنا، كنا نحن الثلاثة نقضي عطلتنا في ألمونيكار(8) écar،Almun، في الساحل الغرناطي، على الرغم من أنه كان ضمن «مجموعة من يكبروننا سناً»، ومع وصولنا سنّ المراهقة لم ننفصل عن بعضنا. عاش رافا في مدينة خآين، حيث تعرف هناك على راشيل، التي رغم أنها لم تكن طبيبة إذ أتذكر بشكل جليّ أنها كانت قد درست بيولوجي (علم الأحياء)، وحصلت على درجة أخرى في العلوم، إلا أنها كانت تعمل معه في مكتبه، مسؤولة في القسم الإداري.

يشبه رافا الإنجليز بالنسبة إليّ فهو على وجه التحديد يذكرني بـــ جيرالد بريـنان: فهو أشقر، وطويل القامة، وله عينان واسعتان كبيرتان، ووجه مليء بالنمش. ولكن على عكس بريـنان ذلك الذي قيل إنه كان لطيفاً مع الأصدقاء فقد كان شخصية جدية ولكن حنونة، وهذا بكل تأكيد ينبثق عن ذاته هو نفسه، والذي عادة ما يشير إلى اختلافه عن غيره من الأطباء.

في الواقع، كان قد صنع بالفعل اسماً لنفسه في هذه المهنة. لديه الأموال، يحب العيش بشكل جيد رغم أنه لم يكن محبًّا للتباهي، وبأناقته وابتسامته الجميلة التي كانت تسحر كل الذين يتعرفون عليه. هذا هو الذي يقوله الناس عنه، وخاصة النساء، كما أنه كان في الحقيقة ورعاً ومتفانياً في عمله إلى أقصى الحدود، لدرجة أن رجلاً آخر أقل صبراً منه، كان يعتبره بطيئاً، وأن صبره لا يطاق.

راشيل كانت طويلة، بوجه حنطي، وشعر طويل مجعد وعينين سوداوين وحادّتين، ملامحها واضحة جداً، غيورة ومتملكة، من أجل ذلك تستحضر صوت مغنية في علاقتها، على الأقل حتى يغضب رافا، الشيء الذي كنت أنا ألاحظه في عدد قليل من المرات. بالنسبة إلينا كان رافا الأخ الأكبر، وأنا أحسده في سرّي، لما يتمتع به من احترام، وفي قدرته على البقاء في موقعه، بينما أنا أفقد طاقتي في الحفاظ على البيت، وكل شيء يفلت من يديّ. وفي هذا يتوافق رافا وإيفا: لم يكن عليهما أن يفعلا أي شيء ليكونا على ما كانا عليه، بينما نمت فيّ فكرة أن معظم حياتي لم تكن أكثر من مجرد خيال عاصف ومنتشر. لكن طمأنتني حقيقة اهتمامه بالبيت القديم وأنه يناقش مع ضحكة هستيرية تجربة اليوم السابق، عندما تحدثنا عنها.

ما هو اليوم الذي نرى فيه تفضيلك لتجلس جلسة لهو مع الشبح؟ قال، وكلنا ضحكنا معه.

علاوة على ذلك، صحيح أنه كان من الصعب علينا رؤية بعضنا البعض، على الرغم من أننا كنا نعيش بعيدين عن بعضنا بضعة كيلومترات فقط، إلا أن المرات التي تواعدنا فيها انتهت بتأجيلها بسبب التزام كل واحد فينا بعمله. في الأساس، أعتقد أننا لم نكن مشتركين إلا في مرحلة المراهقة، وأن صداقتنا خلال سنوات طويلة لم تكن أكثر من محاولة للحفاظ على العلاقات بسعادة لا مثيل لها. رغم أنّ بابلو وآنا يعيشان في غرناطة، إلا أننا لم نتمكن لا أنا ولا حتى إيفا من رؤيتهما في الكثير من الأوقات، لذلك كان يجب علينا الاستفادة من هذا الوقت. ألم يكن ذلك استمراراً للعودة إلى الأماكن الأكثر دراية في سيرتنا الذاتية نفسها؟ المشكلة ربما بالنسبة إليّ فقط كانت الاستمرار في التواصل التعارفي معهما.

قررنا تناول الطعام في بيدآنا، أفضل مطعم في البشرات، وفقاً لما يقوله أصحابه، الذين كانوا فخورين جداً بحصولهم على «ميدالية الطهي الذهبية»، الامتياز الذي لم أسمع به أنا في حياتي، ولكن يبدو أنه

منح هذا اللقب من قبل مجلة أمريكية مهمة متخصصة في فن الطهي. يقع بيدآنا على الشارع الرئيسي نفسه، إلى اليسار، أعلى قليلاً، وهناك تمشينا قليلاً حتى الساعة الواحدة، بعد أن قمنا بشراء بعض الأشياء. في يوم الجمعة رأينا أن هناك الكثير من الناس في ذلك الشارع، وبعد يوم واحد من الاحتفال، بدا أن القرية كانت تستعيد صخبها ونشاطها. كانت هناك حلقات من النساء اللواتي يدردشن أمام أبواب المحلات التجارية، تسير الكثير من السيارات، ونحن بالفعل لم نكن مستمتعين كثيراً، رغم أن كونجا كانت ضمن إحدى الحلقات النسائية الجالسة أمام مجزرة اللحم، أرسلت لنا تحية وهي تتقول بعض الكلمات إلى جيرانها، الذين أضفوا علينا اهتماماً فضولياً. كان الجو بارداً، وعادت الرياح تهبّ من جديد، ليكون ذلك مبشراً بشيء ما لفترة المساء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأساطير

في بيت لوس توباريس؟

صاحب مطعم بيدآنا يتفحصنا لا ينبغي عليّ أن أنظر إليه كثيراً بعينيه المغمضتين كلهما تقريباً بسبب التجاعيد، والمرفقة بحاجبين عريضين يمنحانه شكلاً شبيهاً بالبومة، وأنفه المتصلب والمتقلص يبدو كأنه يشم الهواء، يقربه ليكون كالكلب، الكلب الذي عليه أن يأكل نقانقه المفضلة، وتلك المروية بالدم مع مشروب خمر كونترابيسا([9]) الخطير خطير على الأغنياء ولكن يعبئ الرأس، بعد ذلك تفحصناه، كان له بطن كبير.

ذلك المشروب نفسه الذي شربناه أيضاً نحن من جرار خشبية، التي كانت في الجزء الخلفي من المطعم، منفصلة بسلسلة من الطاولات.

لم يحدث هناك أبداً أي شيء جيّد.

أومأتُ إلى رافا الذي أراد أن يقول «انظر؟»، لكنه لم يبدِ أي اهتمام لي.

هذا المشروب رائع جداً قال مع ابتسامة جميلة. أين تحتفظ به؟

إنه مسكوب من برميل قديم أجاب صاحب المطعم سعيداً بالثناء على ذلك المشروب. أجدده كل سنة، ولكن آخذه من السلالة نفسها دائما، من أجل ذلك طعمه لذيذ جداً... أشار إليّ بأن هذه العائلة كان لديها حظ سيّئ دائماً.

هممم أردف رافا. وكيف الخامون([10])!!.

هذا هو أفضل مطعم مفتوح هنا منذ فترة طويلة. سأخبر أصدقائي بذلك.

صاحب المطعم كان مغروراً بنفسه كثيراً وهذا كان ممكناً مثل الديك الرومي، وأجابه عن أسئلته بسعادة.

كأن ذلك هو تريبليث، ألم يكن رجلاً جيِّدا؟، القضية هي أنه منذ شرائه البيت، والعائلة لم يمر عليها سوى الشقاء والتعاسة.

تريبليث، آه، سينبغي عليه أن يبيعني واحداً... ما هذه التعاسة؟

فتح الرجل فجأة عينيه بشكل واسع، وعادت البومة للظهور مرة أخرى.

إنهم مجانين!

مجانين؟!، هذه الخمرة بالفعل، تعيدك مجنوناً، حتى تلك المأخوذة من البرميل، أليس كذلك؟

من البرميل، نعم سيدي، ذلك المصنوع من خشب البلوط.

ومَن هم المجانين؟

مجانين، مجانين أصرّ صاحب المطعم . الأول كان واحدة من الخالات، الكبيرة فيهن، وبعد ذلك واحد من الأبناء.

جيد، هذا اسمه خرف الشيخوخة قال رافا.

ليست الشيخوخة، وليس أي شيء أجاب صاحب المطعم إن الطفل كان عمره ثلاثة عشر عاماً عندما حدث له ذلك.

أنا ينبغي عليّ أن آتي للعيش هنا قال رافا . لأنني بالفعل لن أتمكن من فعل أي شيء من دون هذا الخامون ينظر الآخرون إليه منبهرين، وإلى صاحب المطعم، الذي كان يسيل لعابه . عندما حدث ذلك ماذا حصل بعدها؟ سأل رافا في النهاية.
عندما قتل شقيقه أجاب صاحب المطعم بشكل جدي . ضربه السكين هنا أضاف مشيراً إلى رقبته وإلى ما بين الرقبة والأذنين.
بدأ قلبي يخفق، ورأيت الدم من جديد يسقط من الجدران. ضمّتني إيفا إلى حضنها، وآنا عادت إلى ضحكها الهستيري الذي يثير الغضب، والذي كنت في مرة أتحمّله بدرجة أقل من المرة السابقة. هههههههههه، تمهلي، تمهلي، كما لو أنها ضبع، كنت سأخنقه وأنا مسرور بذلك.
بابلو لم يقل شيئاً منذ اليوم السابق بالكاد أجده يفتح فمه، منذ الشجار، فكرت في هذه اللحظة مع آنا، وراشيل أظهرت استعدادها بأن ترسل إلينا استحسانها العظيم لأداء زوجها، أوسكار في أحسن الأحوال خلص إلى ذلك.
ولم يقولوا لماذا؟ أصرّ رافا.
لم يقولوا شيئاً لأحد، وكأنها كانت عائلة مهمة جداً، مدنيين أشار إلى الأمن المدني لم يكد حتى أن يتورطوا في هذه المسألة. أموالهم الكبيرة كانت هي التهمة.
تاريخ مدهش قال رافا. ولماذا قلت حضرتك إن المجنون الأول كان الخالة الكبرى؟
لأنهما كانا دائماً معاً، الطفل وهي. في القرية كانوا يتحدثون عنهما كثيراً، لأن ذلك لم يكن شيئاً طبيعياً، الطفل بسنواته القليلة، والمرأة بالسبعينات وأكثر، لا أعرف إن كنت قد فهمتني... صاحب المطعم ينظر بعينيه فقط إلى رافا، الذي يبدو أنه كان ينوّمه مغناطيسياً، لأن الآخرين لم يرونا.
أريد أن أقول أن.....؟ سأل رافا فاتحاً عينيه في هذه اللحظات بصورة كبيرة جداً . الفَرْج!!
هذا هو نفسه الذي قلته لزوجتي! فَرْج عاهرة كبيرة.
وبعد استراحة قصيرة أضاف:
هذا البيت ملعون وعلى الفور، كما لو أننا كنا في حالة نتحدث فيها على الوقت، ليعيد إلينا جميعاً الانتباه: أتجلسون لتناول الطعام؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أشباح

صاحب البيت فَقَدَ كل الاهتمام بتلك المحادثة، وأكثر انشغالا الآن بترفيهنا مع وجبة لذيذة شوربة بيكاديلو، نقانق منقوعة، سجق، أرز مفلفل وحمام مشوي، ويرافقها مشروب النبيذ المشهور والمعتق داخل البراميل الخشبية، وخاصة بالنسبة إلى بابلو، على الرغم من أننا نستطيع أن نحصل له على أشياء أكثر.

«الخالات» اللواتي كنّ على قرابة للأب دون أنطونيو، أخوات أمه، ودائماً كنّ يسكنّ في هذا البيت، حيث ولدن هنا أيضاً. في الواقع، لوس توباريس، مع فروعها العائلية المختلفة، كانوا لفترة طويلة أصحاب كل الأبراج الموجودة هنا تقريباً البيوت الفخمة في أوخيار، ولكنهم أيضاً كانوا أصحاب مواقع أخرى في خورايراتار، القرية الرمادية الحزينة، كانت قد قالت آنا التي تقع على بُعد ثلاثة عشر كيلومتراً، وحيث نشأت العائلة. مشهدها يدعو إلى هذه الفكرة، وأنا تذكرت قراءتي عن منطقة آلركون التي وضعت خورايراتار في نفس الجحيم. تتلاقى هناك سفوح التلال الأخيرة لمنطقة كونترافيسا، مشكّلة بذلك ممراً من المنحدرات العالية والصخور، مثل الأرض التي تفتح أقدامها.

صخرة كبيرة ترتفع حول القرية، على استعداد لسحقها في أي لحظة. ربما على مستوى أرضها، الناس في خورايراتار لم ينظروا جيداً، رغم أنه لا أحد يعرف يشرح لماذا لم يفعل ذلك صاحب بيدآنا ؛ لكنه قال إنهم عاشوا من أجلهم هم أنفسهم، كانوا يتزوجون بشكل دائم تقريباً بعضهم من بعض، من العائلة نفسها، الأعمام وأبناء الإخوة، ذلك الذي في الكثير من الأحيان يجعل حكم الناس عليهم بأنهم سيئو السمعة، وأيضا يذهبون إلى القرى الأخرى من أجل القيام بالشراء أو القيام بالأعمال التجارية الأساسية، كما لو أنهم لا يريدون إنشاء علاقات كثيرة مع مواطني المناطق الأخرى. لكن الثروة نفسها من أعمال العائلة التجارية كانوا ملاّك أراضٍ التي كانوا يقومون بها في أوخيار، وكانت لديهم مستنقعات أرضية من خورايراتار إلى أوخيار، ومن أوخيار إلى جيغين وحتى إلى ميثينا في الجزء الغربي أو إلى تشيرين في الشرق، من أجل ذلك في الحقيقة كان لديهم أو كانوا قادرين على الوصول لامتلاك الجزء الجيد من أراضي المحاصيل الزراعية في منطقة أوخيار حتى منطقة أندراكس. وتقريباً كلها مثل البشرات نفسها، في أبيات شعرية من كالديرون، قرأ لنا صاحب بيدآنا من قصيدة:

«أنا أيضاً لدي دراستي، آه» قائلاً:
أربعة عشر فرسخاً في هذا الاتجاه
لديه، عدا عن أربعة عشر فرسخاً،
أكثر من خمسة عشر إضافية
مساحة فارغة،
لأنه بين زاوية وزاوية
توجد الوديان التي تجملها
الحقول التي تخصبها
الحدائق التي تبهجها
كلها مأهولة
بالسكان وبالدروب
بحيث عندما تغرب الشمس

لتلمح الذين يتركونها،
لتبدو المنحدرات مولودة
مقعرة بين الصخور
المحاطة بالقمم
رغم أنهم لم يصلوا السفوح

كل هذا غنّاه لنا بين صحن وآخر حتى أثناء تحضيره للقهوة، عندما يكون يوم الجمعة وتحديداً في منتصف النهار، يكون المطعم ممتلئاً «دائماً يمر من هنا الكثير من الناس»، أكد صاحب المطعم؛ «ولكن القليل منهم من يبقى»، ومعظم الطاولات تكون محجوزة. وعلى الرغم من أننا كنا نود إطالة السهرة بعد العشاء، إلا أننا قررنا العودة إلى البيت، وكنا كلنا سكارى.

منذ أن وصل رافا وراشيل، وأنا لا أفهم وظيفة مفتاح الباب الآخر، فنحن ندخل ونخرج من خلال البوابة ذات اللون الأسود. ما زلنا نحضر الحطب الوفير، ورافا رغم أنه كان مهتماً كثيراً بالبيت القديم «إلا أنه لم يأخذ مني بصورة جدية حكايات وأساطير البشرات»، قال: إنها لم تكن اللحظة المناسبة للذهاب، وهكذا صعدنا مباشرة إلى الشقة. استرحنا أمام المدفأة، وحضرنا الكؤوس؛ «المساعدة على الهضم»، كما أطلق عليها رافا، «لأننا بالفعل أكلنا بشكل جيد، آه».

في البداية، انقضت فترة المساء بسرور وسعادة، متذكرين فيها بعض طُرَف وحكايات الشاطئ، تحدثنا عن أيام العمل وعن كل الأشياء التي يمكن الحديث عنها مع أصدقاء جيدين بعد غياب عدة شهور دون أن نرى فيها بعضنا؛ لكن بدأ الجو يتغير قليلاً قليلاً. لم تكن الساعة قد أصبحت السادسة مساء بعد، إلا أن الناظر في الخارج يبدو له أن الظلام قد حلّ بالفعل، وكنا صامتين. في الخارج بدأ تساقط الثلوج، ورياح قوية تصطدم بمصاريع النوافذ جاعلة من ذلك التصادم صوتاً إيقاعياً، ويمكنني القول إنه صوت غير طبيعي، كما لو أنه يمرر لنا الوقت، أو كما لو كان سيحثنا على فعل شيء ما.

كنا جالسين أمام طاولة صغيرة، عليها القهوة مع الزجاجات والأكواب، كنا موزعين بين أريكتين أمام المدفأة، وكلنا نلتفت إلى النار، كأنه منوم بابلو وآنا يجلسان على حافة الأريكة، فكانا أكثر قرباً إلى الباب. مرر بابلو ذراعه على كتفَي آنا: رأيت خصلات شعرها الأشقر من الطرف الآخر، مثل الصنجيات التي تزحف على صدر بابلو، تخنقه، ربما لأن رأس إيفا كان جاثياً على صدري، وكان من الصعب عليّ التنفس؛ رافا وراشيل يجلسان بضيق ووقار في الجانب الآخر من الأريكة، مثل المتفاجئين الذين ينتفضون بسبب رد فعل من النيران، أو بسبب روائح الكحول، ربما ، عندما قامت آنا بسحب ذراع بابلو، بدأت بالصراخ:

راشيل!!، ألديك ما يكفيك مع رافا؟

أذهلنا جميعاً سؤالها. راشيل تنظر إليها وكأنها تفكر مع ذاتها: «ما الذي تتحدث عنه هذه المرأة؟». ولكن أعتقد أنها كانت قد تعرفت على شخصية آنا الصعبة، تلك التي برهنتها بالفعل أكثر من مرة أثناء وجودها معها، أجابت راشيل بهدوء:

إلى ماذا تشيرين؟

لِمَ تتصرفين بغباء وسخافة!! استمرت آنا بالصراخ .

ألا تتوقفين عن النظر إلى بابلو، لقد أكلته بعينيك.

كانت قد تغيرت على نحو سخيف؛ راشيل نفسها يمكن أن تفعل الأمر نفسه بأن تطرح سؤالاً مشابهاً في ظروف أخرى. ظنّت أنها كانت غيورة ومتملكة لـرافا. على الرغم من أنه لم يمر عليها مثل هذا

الأمر من قبل. انتفخت عروق آنا من شدة الصراخ، وظهرت عروق أخرى على جبينها. في العتمة علاوة على وجود النار، أشعلت فقط اللمبة الطويلة التي كنت قد استخدمتها هذا الصباح ، كانت عيناها رماديتان، وتلمعان بانعكاس ضوء المدفأة عليهما، مع حدقة موسعة. كان بابلو ينظر إليها باهتمام «كأنه طبيب»، فكرت في البداية، أنه قد يتدخل. بابلو حاول أن يطمئنها:
لم تبدأ، آنا.
وأنت، اسكت!! كانت قد وقفت. المرة الأولى في العمل والآن هنا.
أنت غاضبة من دون أي سبب، اجلسي بابلو تحدث معها بهدوء مطلق، محاولاً أن يقلل من أهمية موقف آنا، لكن من دون فائدة.
إلى ماذا تشير مع الذي تعمله؟ سأل رافا من دون العودة إلى القصة، كأنه فجأة اهتم بحياته الزوجية أكثر من غضبه الذي لم يكن عادياً، الذي كان يجب أن يتدخل فيه بشكل طبيعي، يعرفها كأنه عرفها منذ فترة طويلة، وليس مثل مشاهد متعطش لـتيلي نوبيلا([11])، تلك التي تمنحه انطباعاً بأن يكون، وآنا وارشيل المفسرات.
تغلغل في رأسها أنني منخرط مع زملائي في العمل أجاب بابلو؛ أنا ظننت أن هذا كان هو سبب الخصام في اليوم السابق، بجانب السيارة . ولهذا لا يمكنني أن أتركها وحدها للحظة أضاف بمرارة.
أنت ديّوث!! ديّوث!! آنا تبكي، وتفرك صدغيها. نهض رافا وحاول تهدئتها في النهاية. لا تلمسني!! قالت له مبعدة يده عنها بقوة.
تغيّر وجه رافا، الذي فاجأني أكثر، لم أره من قبل مطلقاً على مثل هذه الحالة؛ موقفه تنافر مع شخصيته، ليس فقط مع الدماثة التي بسبب مهنته التي يتباهى بها في هذه الظروف. كان غضباً بشدة.
فجأة قزّزوني بخروج مادة سائلة بيضاء من قدمه، نمش وجهه، رقبة الدجاج التي تظهر منها تفاحة آدم بشكل بارز ، إيقافه لذراعيه، شعره اللامع.
ستكونين غبية!! قال.
ينبغي على شخص ما أن يهتم بهذه الفتاة قالت راشيل بصوت بدا قاسياً، كأنها سعيدة بردّة فعل زوجها الغاضبة. كانت قد وضعت نفسها بجانب رافا، مستعدة للدفاع عنه بأي ثمن. مع جسمها البارز وصوتها الخميل، بدت مثل عاهرة في ذلك المظهر.
مهلاً، لا تتدخلوا تدخلت إيفا، التي ينبغي عليها أن تكون الشخص الوحيد الذي يكون في عقله التام؛ لكن وعلى وجه التحديد أزعجتني كلماتهم، كما لو أنني كنت بحاجة إلى ذلك الحدث التراجيدي من أجل مشاركة العالم، معي. النظرة أو التخيل الفانتازمي لوالدها بجانبنا؛ أنظر إلى وجهه المحنط في التابوت، قبل تحويله إلى رماد؛ شعرت في شفتَيَّ بآثار قدمه الباردة عندما قبَّلته إيفا.
تراجيديا؟ رأيت ألسنة اللهب تقذف بالجسد إلى داخل التابوت، لكنني لاحظت بابلو: كان ينظر إلى رافا بتحدٍّ، نسي تماماً آنا؛ وجهها كان أبيض، غارقاً بالعرق، وحتى بدت لي أن رائحتها وصلت إلى درجة الحموضة، نسمة الهواء التي تخرج من فتحات الأنف كانت ساخنة وآسنة. أنا، في حالة من النعاس، أنظر إليهم من دون التعرف عليهم.
أحاطهم الآن لون قرنفلي داكن متوهج، كما أحاطهم البخار الذي تمدد على وجوههم وصورهم المظللة: امرأة بشخصية مشابهة لآنا، ترحب بها بالأحضان، تريحها، تبتسم ابتسامة نفاق بينما تحفر أصابعها في صدغيها؛ رجل بلحية طويلة مدببة، يعبّر عن كراهيته، يضغط على كتفَي رافا، يهمس

في أذنيه، ليُسمعه عبارات تجعله يغضب، يصرخ عليه بلغة غير مفهومة؛ ضبابة تحيط ببالو، لينشأ منها شكل واضح لسكين نصلها منحنٍ يستقر في جانبه، يبحث عن الحافة التي مزّقت ملابسه وجعلته ينزف، إلا أنه لم يعثر عليها؛ أحاط الضباب براشيل من رأسها إلى أخمص قدميها، كأنها تتلمسه، وآنا رأيتها عارية ومثيرة: ثدياها كبيران بحلمتين سمراوين وبارزتين، شامة سمراء فوق فرجها، كما لو أنها داخلة فيه؛ إيفا، إلى جانبها، اختفت، ذابت بين جسيمات البخار، عيناها البنيتان والحزينتان فوق صندوق أخضر، مبتعدة عنا. انصدمت، نظرت حولي، ولكن لم يكن هناك أحد معي. ضربت مصاريع النوافذ الزجاجية بعنف؛ قالوا: «انتظر، انتظر، لم تر شيئاً بعد». رافا وبابلو بدآ هما أيضاً بالمجادلة:

وأنت لماذا تنظر هكذا، آه؟ هاجم رافا.

قضية أنك طبيب، تبدوا فكرة كاذبة رد بابلو بدهاء.

وماذا تعرف أنت عن الأطباء؟ ألا ترى أنها مريضة؟

غطت آنا أذنيها، كما لو أن كلمة «مريضة» تسببت لها بألم لا يُحتمل. وجهها كان ملتوياً مشوَّها وجسدها كله كان يرتجف. خرجت مصدومة من الغرفة.

هل تدرك أنك ديوث؟ نهض بابلو من أجل أن يساعد آنا، لكن بدلاً من ذلك ضربت رافا بدفعه بقوة.

أنا نهضت أيضاً من أجل الفصل بينهم؛ الشخصيات التي أحاطت بهم تخلّت عنهم، ينظرون إليّ؛ يضحكون مني. عادت إيفا من عالمها الخاص ما زلت أرى كيف أبعدوا عنها يدَي والدها الشبيهتين بيدَي شبح وأمسكت براشيل، التي استعدت بالفعل لضرب بابلو. وبعد ذلك سمعنا صوت صراخ في المطبخ، ذلك الذي جعلنا نعود إلى حالة من الهدوء، نعود فيها إلى ذواتنا، كما لو كنت قد قطعت موسيقى عازفة: في هذه اللحظة، بالنسبة إليّ كانت مفاجأة، لم يسمعوا ضربات مصاريع النوافذ. آنا كانت مقرفصة على الأرض، تحمل سكيناً في يدها اليمنى، وكانت قد أحدثت جرحاً عميقاً في معصمها الأيسر، الذي كان ينزف. لاحظت أن بجانب معصمها المجروح، وجود خطوط داكنة؛ «ندوب»، تذكرت في ذلك الوقت أنه وقف فيه شعر جسدي. كانت بالفعل تحاول الانتحار.

آنا!! صرخ بابلو منحنياً. أمسك بها من الذراع التي كانت تحمل فيها السكين، بينما رافا وأنا حاولنا النهوض بها، لكن آنا قاومت، وأظهرت قوة مدهشة. بالكاد نجحنا في إفلات السكين من يدها، إلا أننا اكتشفنا أنها كانت تخفي سكينتين أيضاً في أكمام سترتها التي كانت ترتديها، كما لو أنها تيقنت أننا قادرون على نزعها منها. تذكرت أن كل شيء يمر ببطء وبسرعة في الوقت نفسه، وأنني فكرت في بابلو، كم مرة كان يعيش وضعاً مماثلاً. تخلصنا منهن أيضاً، أنلهث، وعادت هي إلى السقوط بركبتيها على الأرض، تصرخ وتبكي في الوقت نفسه، غاضبة من نفسها لعدم قدرتها على القيام بذلك. ارتكبت فعلاً غبياً.

ولكن كيف يمكنك فعل شيء كهذا؟ سألتها بصوت أتظاهر من خلاله بلطفي، ولكن ربما بدا صوتاً ساخراً، وهو ما قد يعبّر عن ردة فعلها. في لحظة، وقفت آنا على قدميها، بسرعة كبيرة حتى أن لا أحد منا استطاع الإمساك بها. وقبل أن نتمكن من لسمها، أخذت أول شيء كان في متناول يديها قطعة صغيرة من الخشب، والتي فيها عدد من المسامير من أجل تثبيتها. بعد ذلك شاهدت الكراهية والموت في عينيها ذاتَي اللون الرمادي الصلب في هذه اللحظة، وتذكرت أن الموت بدا لي سخيفاً.

لسبب ما لم أستطع أن أتحرك، وفكرت في شيء مثل: أحاول مساعدتها وستقوم بقتلي؟ من أجل هذا الهراء أذهب إلى الموت؟ الوقت الذي شعرت فيه بالضربة في الجزء الأيسر من رقبتي، تحديدا إلى

الأعلى من عرق أذني، وهذا لم يؤد إلى أي قطع، فقط تسبب لي بكدمة عميقة. هي وضعت يدها على فمها وبابلو ورافا أمسكا بها. إيفا جاءت لمساعدتي. صوت مصاريع النوافذ عاد من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحلم

لم يمض وقت طويل بعد أن تمكنوا من وضع آنا على السرير، ليرافقها بابلو، الذي أكد لنا أنه لن يتركها وحيدة في هذه اللحظة. وعلى الرغم من أننا تحملنا الآخرين لحظة أخرى، إلا أننا استلقينا، وغرقنا في تأملاتنا، إيفا خافت كثيراً من ذلك الذي لم تره من قبل في حياتها، كانت قد فهمت كم كنت أنا قريباً من الموت، رغم كل الذي حدث كنت ذلك الذي يفكر بالصدفة، جرّنا نوع من القصور والخبل، كتيار من باطن الأرض الذي انتهى به الأمر ليظهر لنا في أعمالنا وشخصياتنا.

«وصل بك لتكون سكينا»، بالفعل قالت لي ذلك وهي على السرير، تبكي. «أنت أيضاً ذهبت إلى الموت أضافت؛ وهذه «أيضاً» آلمتني، أظهرت أن إيفا ما زالت تستمر في التفكير بوالدها، كما لو أنني أنا خيارها الثاني، دليل على أنها بالفعل سحبتني من مكانها الحميمي، المحتل بسلاسل من الدماء، ورغم ذلك، فإنها تصرفت كما لو أنها كانت في جزء آخر. لم أفهم ذلك الذي حدث لنا، لويس. لا أعرف أنك أنت، نعم أنا هو أنا أو أن كل ذلك الذي حدث في الشهور الأخيرة غيّرنا. ولكن لم نكن في حالة جيدة، لا .....».

لقد كانت نائمة تمزج بين المشهد المؤلم الذي تعرضت له في وقت متأخر مع وضعنا الشخصي والعائلي، كما لو أنه لم يكن شيئاً مؤلماً بحدّ ذاته وكريهاً لإضافة احتمال الانفصال، ربما. تجدر الإشارة إلى أنني لم أنم كثيراً. مع مرور الوقت، والأجواء تزداد سوءاً، ومن خلال أضواء الشوارع، رأيت الثلج متجمداً على الشارع وحول السيارات وفوق سطوح القرميد، وأنا أفكر أنها لم تكن تلك لحظة مناسبة للبقاء هناك حبيساً مع مجنونة التي يمكن أن تفعل أي شيء.

«مجنونة»، أتذكر أنني هكذا وصفت آنا، ذلك الذي جعلني أتذكر محادثة بيدآنيا والعودة إلى التحكم بأفكاري نحو البيت. ربما لهذا السبب، ولقراءاتي الصباحية، في اللحظات القليلة التي نمت فيها كان هناك حلم واضح جداً، توقف وعدنا إلى البدء من النقطة نفسها التي كنت قد توقفت عندها؛ «واضح جداً مثل ذكرى»، فكرتُ. أو كالشخص الذي كان يحكي لي تاريخاً على مسمعي، الشخص الذي يعرف كل ذلك، الذي كان قد حدث بالفعل في هذا البيت، وأيضاً كل ذلك الذي سيحدث.

في الحلم، أنا كنت أعيش وألعب في بيت لوس توباريس لسنوات لقرون ماضية. أنا كنت طفلاً لوس روخاس، ورفقائي في اللعب وبعد ذلك في الحرب كانوا: ابن فرج «الأسود»، كما كنا قد أسميناه، من عائلة بني السراج، من عاش أيضاً في أوخيار، وابن أمية ظهروا في الحلم بأسمائهم العربية، من نسب بني أمية، ومن بالور. نلعب موريسكيين ومسيحيين، ابن فرج كان قائد أطفال أوخيار، وابن أمية كان قائد أطفال بالور. كلنا أردنا أن نكون موريسكيين، بطبيعة الحال، وبين هيرناندیو، كما أطلقوا علينا ازدراء اسم يوليسيسيون، وقائدنا ابن فرج منافس كبير. لكن كان لدي القليل لأفعله ضد قائدنا، الأكبر سناً والأقوى، والذي كنت أحلم به ضمن أحلامي العجيبة، إلا أنه لم يكن كذلك؛ لأن النساء والأطفال كانوا يعتبرون الآخر هو قائدهم الشرعي، فقط من أجل أنسابهم وأسلافهم.

هكذا، انتهى بنا الأمر إلى أن نكون مسيحيين، ويل للذي وقع في يد ابن فرج! بالفعل، فقد كان يُنظر إليه بأنه شخص مستعد لفعل أي شر، مشهور بالعنف الذي كان يوظفه عندما كان يلعب معنا في أيام طفولتنا، يرسل بعضنا في الكثير من الأحيان مضروباً في رأسه إلى البيت، وحتى يقوم بتكسير عظم البعض الآخر. من أجل هذا بدأنا بتسميته بـ«الأسود»، الشهرة التي استحقها والتي ستعود إليه في وقت لاحق من أوقات الحرب.

في الحلم كنت قد تعجبت منه، تشوقت فقط لأن أكون مثله، وحاولت تقليده حتى ولو بشعور أقل، ما تسبب في نفس الألم الذي تسببت به، وتوظيف العنف نفسه الذي قام به. لذلك كانت أمي قلقة للغاية رأيتها بوضوح: عينان سوداوان، والشعر الطويل نازل بشكل مستقيم على كتفَيها عندما كانت في المنزل، مغطاة برداء من الحرير الأزرق يغطيها حتى أخمص قدميها، أخبرتني أنه سيأتي يوم أكون فيه بائساً...

لكن لا. لم يكن حلماً. كان هو مَن ناداني باسمي في صمت آخر الليل. من كان قد هجر قبره في بيت لوس توباريس وفتح باب الحديقة من أجل صعود السلالم حتى الشقة، كأنه بالفعل يفعل ذلك لأول مرة، يطاردني. وشعرت أن هذا ماضٍ يحضنني. إنّ هذا الصوت أقنعني بأن أعيش حاضراً لا قيمة، لا فائدة منه. أصدقائي كانوا فيه، إيفاً كانت فيه. هذا الصوت استفاد من وهني وضعفي، من حزني، ومن هاجسي من الموت، قال لي إنه يبحث في داخلي، يكرر عبارات محتدمة: «أنا أنام بينما قلبي يقظٌ. أنام، لكن قلبي سيوقظك. اسمع، لويس دي هارو. هذا هو تاريخي، الذي سيكون أيضاً تاريخك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تاريخ الدون لويس دي روخاس

سيدي!
ميغيل دي روخاس يرتجف. كم مرة خاف هذا الاسم خلال الليل؟ سيدي، أنا كنت منصفاً، ومتابعاً لتعليماتك. لماذا أنا؟
سيدي! دون ميغيل!
طلبت فقط طفلاً، فقط أردت طفلاً من أجل أن يواصل معي مديحك، هنا، في هذه الجنة الجديدة المحيطة بالكافرين.
دون ميغيل!
سأذهب وآخذ طفلي في حضني؟ سأحبه مثل أمه فاطمة، مثل أخته فاطمة؟
هو طفل يا سيدي!
طفل، أعرفه، سيدي. لويس دي روخاس. ولم تعد ترتجف الأرض ولا السماء ولا نار الجحيم تفتح عند أقدامنا. سيدي، شكراً لك.
ضوء النهار الأول المشرق، تجاويف السقف، أقواس الجبس، الأعمدة، الحديقة المظلمة. ميغيل دي روخاس نزل السلّم من البرج ببطء، حيث كان يقضي كل الليل فيه يصلّي، يقرأ من الذاكرة النصوص التي علّمه إياها أبوه والتي لم يعلّمها لأحد. الطيور تزقزق. «تعرفه»، فكرت من جديد، «تعرفه بشكل جيد أكثر مني». في الاسطبلات، في الطابق السفلي، الخيول تركل، غاضبة. سمع كيف العامل يستيقظ ويبدأ مهامه الأولى. الكل يمكن أن يكون بسيطاً، متابعاً عمله بشكل يومي، يرتب أوقاته وفق دورات الشمس والقمر التي لا يمكن تغييرها. باب غرفة النوم كان مفتوحاً بشكل جزئي. كان على أرض الغرفة حوض ماء وبعض الملابس الملطخة بالدماء. عند رؤيته يدخل، سارة، الحب عينان بنيتان وتعيش في وجه متشقق، الشعر كله أبيض تقريبا، مربوط على شكل ذيل حصان، يحيط بالظهر الذي أوشك على الانحناء، خرج من الغرفة وأغلق الباب.
ميغيل
فاطمة رأته من السرير. وجهها كان ملتوياً، ومنقوشاً، وعليه ملامح الإعياء والألم في كل ليلة من الولادة. في حضنها يتحرك جسم ملتفّ بملاءة. ميغيل دي روخاس اقترب خائفاً. وقف بجانب السرير، ولاطف وجه فاطمة، لكنه لم يلمس وجه ابنه.
ميغيل! هتفت فاطمة، وتعبيرها عن المفاجأة نقلها من جديد إلى الألم، وبعد ذلك في ازدراء، قالت له:
هو ابنك!!
كما لو كان قد فهم والدته، بدأ الطفل بالبكاء. ويتنامى فيه الشعور بعدم الراحة من ميغيل دي روخاس، فعندما يستيقظ الطفل على هيئة ميغيل، فإنه لا يحبه، بل يبغضه، مع بكاء يحوِّل الاشمئزاز إلى كراهية. كيف يمكن أن يكون ذلك؟ لماذا شعر بأنه يطعن قلب ابنه بالخنجر؟ إلا أن فاطمة هزّته من كتفيه، وقبّلته على جبهته وعينيه، وغنَّت له أغنية:
يوجد أربعة فرسان
بسيوف الماء
إنها ليلة مظلمة
السيوف الأربعة تجرح

عالم الورود
ستجرح قلوبكم
لا تنزلوا إلى الحديقة!
لا تنزلوا إلى الحديقة
فهناك توجد السيوف التي تجرح
ميغيل دي روخاس يتصارع مع نفسه. الألم والشر ينموان معاً. يشكّلان كائناً يغرق، يتجذران في أحشائك. وعندما تأتي إلى الحياة، فإنها تدين ماضيك ومستقبلك، وكل ما قمت به حتى هذه اللحظة، وكل ما ستفعله من هذه اللحظة. يُقال إن من بين الموريسكيين سيأتي الملك الذي سيحرر العبيد وبلداتنا. سيكون من بيت خلفاء قرطبة، ويتوج باسم ابن أمية. وسيأتي معه شيطان (عفريت)، المنتقم الذي سيغطي الأرض بالدماء. في اليوم نفسه سيولدون. وسترتجف الأرض والسماء. وسيأتي واحد من أجل الخير، وآخر من أجل الشر. قال له القديس:
«استمعوا، استمعوا، أبناء الشرق، استمعوا إلى مصائر الغرب. ستحلّ (تحدث سيّد الملائكة إلى النبي)، لعنة من الله: وستجف الحقول مع نسائمها، ليفقد الناس قوتهم. وستحل اللعنة على ينابيع الماء؛ والقمح الذي سيزرع من الصباح إلى منتصف النهار، بدون المطر أو موسم الانتظار، سيحتفظ به في مكان يناسبه إلى وقت متأخر. والشجرة ستزرع باليد، وستصل مع أخرى لتثمر؛ وبصوت حفيفها سترى البحر يتماوج بشدة، في بركة من الحليب المتحول. تركب خائفاً على جمل، يجول بك الأرض ستة أيام؛ والرشوة والشر سيكونان أسماءه، وسيخطئ كل النّاس في حقّه. مَن، بأعلى صوتي الذي لا يخيف؟ السر المقدس هو الآن شائعة: بداية يتمسك بالأرض، الكلمات التي سمعها من الله. استمعوا، استمعوا، أبناء الغرب: استمعوا إلى مصائر الغرب. يا الله!، ستنسى شعبك في هذه الأيام؟، سأل النبي. لا، ردّ سيّد الملائكة. سيعالجون أمراضهم؛ التي فقط الله من يقدر على شفائها، فإنَّ الله عادل وعظيم. الرماح ستنبت الأغنياء، الحجارة ستحني السيوف القاطعة؛ وفي البشرات ستظهر راية المولى. في جبالها الوعرة، ستلوح دائما مبتهجة، وسلطة عدو المسيح ستأتي لكسرها. قبور الكافرين ستخفي التلال، وقمم التلال سيسمع عليها غناء العار. بالونات من نار الكبريت ستعبر الهواء ليلاً، وستنير عظامهم، وأماكن تواجد الطيور المنذرة بسوء. الموت من أجل القانون سيمنحك تاج الشهيد: يغطون الحور العين بأيديهم السماوية. قال: «تعود الجبال إلى الأماكن التي كانت عليها، ونور الشمس يُشع مثل وجه سيّد الملائكة. إلى الحمراء، إلى القيادة، إلى الموت! الحرب، الحرب على عرق السيد!»
سيظهر لهم السيف، يقول ميغيل دي روخاس في النهاية.
على مضض، كشفت فاطمة عن كتف الطفل. تلمع على الكتف اليمنى بقعة سوداء داكنة، كانت مرتبكة، ميغيل دي روخاس خرج من غرفة النوم. كان ذلك في اليوم الثاني عشر من شهر أكتوبر لعام 1546م، كانت أوخيار مع بزوغ الفجر في صمت. في شوارعها تظهر حجارة القرميد والأخشاب المكسرة، والحيوانات الميتة، وبقايا الإعصار الذي قد دمّر البشرات والذي سيتذكرون نتائجه لعقود.
كان ميغيل دي روخاس رجلاً عملياً، وسرعان ما فهم أنه يمكنه الاحتفاظ بثروة جيدة في يد واحدة، فهو يمتلك المساحة التي يمكن أن يضع فيها الآلاف من بيض ديدان القز. في شهر مايو يُفقس البيض وتخرج اليرقات، وبعد ثلاثين يوماً من تغذيتها أوراق شجر التوت، فإن الدودة تنعزل في بيتها الذي

ستهجره بعد أسبوعين، تترك إلى ميغيل دي روخاس التركة التي لم تكن في الحقيقة أكثر من زيادة إنتاجها السنوي.
كان يزرع أشجار التوت في حقوله، يبني المخازن من أجل تربية الديدان التي يضعها على حافة النهر، وقوافله تسافر إلى غرناطة، ألميرية ومرسيا، ومن هناك حتى بورغس، كاستيا وأرغون، من أجل أن يكون الحرير الذي ينتجه منتشراً في أنحاء الإمبراطورية كافة. بينما ينشغل الآخرون في السياسة وبمطالبات الشعب الذي يحتضر، الشيء الوحيد الذي كان يُشغل بال ميغيل دي روخاس، درجة حرارة البيض والديدان، اللواتي لا يلائمهن البرد، فإنه في كل بيت من بيوت الديدان يسحب على الأقل ألف متر من الخيوط النيئة.
ولو كان الأمر يعود له، لزرع كل حقول البشرات بأشجار التوت، وجعل ورشات العمل فيها تحل محل إسطبلات الخيول، ولكانت الثورات الوحيدة التي سيتحدث عنها هي حول إنتاج الحرير. المناخ كان ممتازا من أجل زراعته. محميّ بالجبال، وبحقول أوخيار التي تشكل حوضاً كبيراً ليستفيد من تأثير البحر القريب الذي يخلّف مناخاً معتدلاً، بالإضافة إلى سلسلة جبال نيبادا، التي تحتفظ بالغيوم المحملة بالمياه، ومن أجل ذلك لا الصيف ولا الشتاء كانا صعبين على عمل ميغيل.
يحب مغيل دي روخاس هذه الأرض، التي سمحت له بتطوير الحرير الأجمل في العالم، وشكر الله كثيراً على أن أجداده وضعوا أقدامهم على هذه الأرض. هو نفسه كان يهودياً بالدم، موريسكياً بالمولد ومسيحياً بالإكراه.
الصوت الأول الذي سمعه لويس دي روخاس عندما كان في بطن أمه، هو صوت زلزال الأرض وغضب السماء. وأول ما شعر به كان الخوف واحتقاره لأبيه، وحبه لأمه. على الأقل هذا ما أخبرته به عشيقته سارة فيما بعد، وأن ولادته استمرت لساعات، وأنه اليوم نفسه الذي كانت فيه الولادات الفظيعة في أرض باثا، وأنه كان قد ظهر فيه عدد من الطيور الغريبة في مدينة غرناطة ووديان البشرات، وعدد من الجنود المدججين بالسلاح على سفوح جبال نيبادا التي تخلصت من إرادة سيطرتهم عليها، وخسوف الشمس الذي يحمل معنى الفأل السيّئ بالنسبة إلى المسيحيين؛ وأن المعجزة في حياته كان يكتنفها الغموض.
الشيء نفسه الذي غلب على محادثات الخدم، وبعض معارف عائلته، الريبة التي فاجأته أكثر من مرة كانت في عينَي والده. لويس دي روخاس. اسمه لا يدلل على شيء، لم أجد شيئاً فيه لأشرح له ردة فعل الناس عند ذكره، فقط الغضب المحتدم، الذي كان ينمو بداخله ضد أهل بيته وأصله، وضد نفسه هو، كأنه سيكتشف ذاته بعد حين. الغضب الذي ارتبط بأجراس الكنيسة عندما تقرع في جنازة ميت، كما تقول سارة؛ الغضب الذي سيصبح الأمنية الأولى للموت، وبعد ذلك للقتل، فعل الموت الذي هو طقس من طقوس الخلاص، الوسيلة الوحيدة للبقاء التي سيجدها لويس دي روخاس.
لكن من أجل هذا، ما زال أمامه بعض السنوات، لويس دي روخاس الآن هو طفل، انطوائي، عنيف بعمر ست سنوات، ذلك الذي كان يعذب محبوبته سارة ويتسلى فقط في إلحاق الأذى بها. الموت بدا شبيهاً بالخوف، لم يكن يخاف من الموت، وبكل تأكيد، لديه إدراك أنه سيكبر ويموت في يوم ما، إلا أنه كان يخاف من موت والدته فاطمة، فهي الرابط الودي الوحيد الذي يربطه بهذا العالم. الآن هو الطفل الذي لم يعرف مطلقاً الجنة التي كان يحدّثه عنها أبوه كثيراً. ربما تكون الحقل، النهر الذي يحد أوخيار، الجبال التي تجرأ بالفعل على تسلّقها، رائحة الأزهار والياسمين وأشجار الفواكه التي كان

يقطفها في الصباح الباكر، عندما يحل الفجر، ويستعد لمغادرة المنزل، يشرب حليب الماعز ويأكل قطعة من الخبز.
يتجول في الشوارع الصامتة، ولا يزال حائراً ومرتبكاً مع ظله، ويلمع في عينيه فقط ضوء الإرادة والتصميم المحتوم الذي يمثله لويس كأنه حرية؛ المفهوم الذي كان قد سمع به أثناء الحديث بصمت، كأنه منه هو نفسه، الكلمة التي لم يستخدمها لويس مطلقاً، على الرغم من أنها أغوته بشكل غامض، كأنها شيء، كأنها الموت الذي ما زال يجهل أسراره.
الحرية إذن هي عبور مجرى النهر، ليجد أن برج بيته وأجراس الكنيسة قد اختفيا في الأفق. كان يرافق في مشية الصباح باتجاه الحقول سائقي البغال ويشاركهم قطعاً من الجبنة، يرافق الرحالة الذين يهجرون أوخيار باتجاه بالور أو مونيكا ويعتقد أنه هجر منزله وعائلته إلى الأبد؛ كان يصعد الجبل حتى ترتجف ساقاه ويستريح في الكهف الذي هو فقط مَن يعرفه، ويظنّ بأنه هو الكائن الحي الوحيد في هذا العالم.
هذا هو لويس دي روخاس ابن ست أو ثماني أو تسع سنوات، الذي لا علاقة له بأعمال والده، والذي بالكاد كان يتحدث معه، وهو الابن المدلل والمفرط في دلاله من قبل أمه، التي يستريح دائماً في حضنها منذ الغسق. إن احتضان والدته له قوي ومفعم بالحياة، ويهدد كل ما علّمه إياه والده. بين جسديهما يمزج بين الحب والمتعة، والكراهية والخوف من الله ومن المستقبل؛ ففاطمة هي الأم والآلهة والعشيقة.
يلجأ إلى حضن أمه فاطمة وإلى أخته الكبرى فاطمة، التي هي أيضا تريده كأنه ابن لها أو كأنه عشيق، وهذا حاصل عندما الرغبة والغريزة يمتزجان في فترة مراهقة الأخوين. فهي تكبر لويس بعامين، فاطمة لديها نفس الشعر الأسود والعينين الداكنتين، الجسد النحيف والقوي نفسه، إلا أنها أكثر نحافة ومرونة، لكن جمالها الناعم أخذته من أمها، وشخصيتها متينة وراسخة مثل صخرة. وقد تعلمت منها حب لويس من دون تحفّظ، متجاهلة تذمّر الناس وليس مخاوف والدها، الذي يتحدث عن الجنة والنار، عن الروح الطاهرة التي يجب أن تستريح ويتم الاحتفاظ بها ورعايتها حتى يطلبها الله.
ففاطمة يمكنها أن ترى روح أخيها: تلتقي به، عندما يكون بقية من في المنزل نائمين. تشعر بخفقان في صدرها، وكأن قلبها كان يمكنه أن يسمع خطوات لويس وهي تخرج من الحمام، ويمر الرواق بصمت، ويعبر إلى غرفة سارة، يبقى في الغرفة نفسها، تنتظر إيقاع خطوات قدمَيه، تنتظر احتضانه. وهكذا مكثوا الكثير من الليالي، يتركون الساعات تمر حتى اليوم الجديد. وهي تشعر بحرارة جسد أخيها، الذي بدت تمتصه. وقبل أي أحد يستيقظون، قبل أن تبدأ الطيور بتغاريدها الصباحية، يتركها لويس ويعود إلى غرفته، كأنه لا يحتاج إلى راحة ويفهم هو فقط الإيقاعات الحميمية للأشياء كافة.
لكن في إحدى الليالي، لم يعد لويس. لتتلمس فاطمة وقلبها يرتجف الطريق التي كان يسلكها أخوها عادة إلى غرفتها. تجلس على السرير، على ضوء الشمعة، ينظر لويس إلى يديها ويشم رائحتهما، يبحث عن بعض الروائح التي يدركها هو فقط لا غيره. رائحة شبيهة برائحة فاطمة أمه، الأزهار الممزوجة بأفضل الأشياء الموجودة في البيت: الحبيب، الحب الأخوي، الحب البنوي. يرفع لويس عينيه باتجاه أخته. فاطمة لا تنظر بحب، بل نظرة خوف وكراهية، تنظر نظرة هزيلة لنفسها. في الكهف أحبت لويس فتاة ريفية بملامح ناعمة، جميلة لكنها متسخة، يصدر منها رائحة قذرة، ومن الأرض ومن نبات الزعتر، ثدياها الكبيران كادا يُسقطان لويس من الضحك الهستيري الذي أصابه.

لويس يحب الصمت، لويس يحب رائحة الفاطمتين، وتلك الأشياء التي يجد فيها جزءاً من هذه الرائحة التي تجعله يحبها خلال الوقت. حتى أنه يكتشف رائحة والده المرة، وهو غارق في صمته داخل هذا الكهف، فإن ضحكات البنت الريفية تسبب له الضجيج كثيراً وتمتزج مع هسهساته، ومع همساته، ومع أساطيره وتنبؤاته التي تشير إلى أنه شخص مختلف، نوع من الوحوش التي ستجلب معها الدمار والموت.

لويس دي روخاس، عاشق رائع ورجل ناضج، بدأ بإحكام يديه بالقوة التي تجعل جسده كله يرتجف، مع بذل المجهود الذي يجعله يصرخ من أجل إخماد نداءاته، الآخرون يصرخون وطقطقة رقابهم تتحطم أسفل يديه. اليدان، نعم. اليدان اللتان يفكر بهما بعينيين مدهشتين تحت أنظار الرهبة والفزع من أخته فاطمة.

رآها لويس عدة مرات، في الصباح الباكر، في طريق خورايراتار مع قطيعها من الماعز. أول ما لفت انتباهه إليها كان بساطتها، التي احتلت بطبيعتها مكانها في العالم وفي الوقت نفسه بقيت أكثر غربة عنه، كأن لويس في زنزانة مغلقة. ثوب الفتاة من القماش الخشن بدا جافاً إلى حد ما، وبالكاد كان يكفي من أجل تغطية جسدها، الذي خرج منه رأس مستدير من الشعر الأسود المتلبد، الذراعان متسختان بجلد محروق، الصدر منتفخ أسفل الطيات الذي تخيله لويس دي روخاس أبيض، دافئاً مع حلمات كبيرة من الممكن أن تتصلب تحت يديه بعد لمسهما. خجلت عندما رأته يمشي بجانبها، ولويس كان قد اتفق مع ذاته منذ البداية أن يمشي بجانبها للحظات بصمت. وكان أكثر ما يحبه فيها: أنها لم تكسر مطلقا صمتها، ولا ترغب في طرح السؤال ولا حتى تلفظ اسمها. بعد ذلك انتبه إلى أنها صامتة وقصيرة النظر، ولكنّ هذا لا يمثل أي عقبة، بل على العكس من ذلك.

يبحثان عن المراعي بجانب النهر، واستمر لويس بالمشي بهدوء عندما توقفت هي مع قطيعها، شعرت بنظراته المستاءة تتجه نحوها، كأن يداً تداعبها للاحتفاظ بها. وفي أحد الأيام، قرر مداعبتها للحظات، جلس إلى جانبها وتبنى دور الأمير المتعجرف، الفخور والمتحمس. فكانت الفتاة راضية عن وضع رأسها على صدره، ووضعت يديها داخل لباسه الداخلي، بينما تحدث لويس وهو غاضب عن معارك القتال، وقتل المسيحيين وتحرير شعبه. هو سيكون ملكاً عظيماً، وسيحبه مواطنون بسبب قوّته وبسالته. وهي لا تفهم شيئاً من ذلك الذي يقوله، فهي تركز فقط في عذوبة جسده وجمال شعره، في رائحة جسده، في مذاق منيه.

لويس مفتون بمهاراته التي تقدمه على أمنياته، والتي لا تعلمه ولا تهمه مَن كان. ولذلك كانت متعته الوحيدة تكمن في الوحدة الحزينة، التي كانت قد تحولت إلى كراهية وقوة متضمنة داخل جسده. هو لا يحتاج إلى أحد، وأكثر شيء كان يقدره في مجون الريفيين هو أنهم بعد دفع حساباتهم يعودون إلى عزلتهم، والعيش وحيدين. بقي لويس يشعر بالوحدة مع الفتاة، وحرارة جسده كانت ترتفع بشكل مستمر أثناء وجوده في بساتين الزيتون والكستناء، والجلوس أسفل أشجار الفواكه المثمرة التي غمرت حوض النهر والتي أنشأ تحت أوراقها علاقة حميمة مدهشة، عزلة صامتة دامت لبضعة أسابيع، وربما تتكرر في كل صيف. حتى أن لويس دي روخاس بدلاً من أن يمارس الحب، وجد القسوة، المتعة المهذبة للوعة من يحبه أكثر.

بدأ بتأخير ملاطفتها، باحتقاره لها، بإهانتها بأكثر الكلمات ابتذالاً. وبعد ذلك، عندما تبدأ هي بالبكاء، يُقبّلها، يخلع ملابسها، يستمني عليها حتى يتشنج جسده. يُحضرها إلى الكهف، وهناك في الظل، تعود ألعابه معها أكثر تهذيباً. تناوب في أفعاله معها ما بين مداعبتها وضربها وقرصها، ورسم بعض

الجروح على جلدها باستخدام السكين. ينصرف لويس ليتحقق من أن ذلك الصراخ الذي قامت به الفتاة كان عبارة عن صراخ ألم أم أنه كان صراخ اللذة، حسناً، يبدو أنها تغرق، وأن ألمها ولذّتها كانا علامات البؤس والخدوش الظاهرة على وجهها، لتكون كلها من العوامل المحفزة بالنسبة إلى لويس.
فقط عندما تستسلم الفتاة لبكائها الصامت فواقعها وتنهّداتها العميقة تذكّره بمعاناة حيوان أليف تحرك شيئاً ما في داخله، أقرب إلى الاحتقار من التعاطف. لكن كان على لويس أن يُظهر لطفه لها، لا أن يُظهر محبته، من أجل ذلك همس في أذنها بترديد بعض الأغاني التي كانت تغنيها له أمه وسارة عندما كان صغيراً، فكان ذلك عاملاً مساعداً في إظهار سعادة الفتاة. وبالتالي عندما أظهرت للويس بعض الامتنان، وعندما كان ينظر إليها متأملاً، فهمت أنه يحبها، بدأ هو من جديد بطقوسه، بالاحتفال بالجنس، واللذة والمتعة، الذي مارسه كثيراً في ذلك اليوم.
لم يعرف لويس اسمه مطلقاً، لكنه كان حريصاً على العثور على تضحية ما في طريق أوخيار. بعد ساعات، لم يشعر بأي ندم. كان عبارة عن قربان إلى الله من والده. التضحية التي وعد بها أن تكون كتضحية الآخرين الذين اعتقدوا بوجوده. الشيطان دعاه إلى تغطية تلك الأراضي بالدماء.
مع غروب الشمس، في الحديقة، تُغطّى قمم الأشجار بالضوء الذهبي، وميغيل دي روخاس، خلال هذه اللحظات، كان يعتقد بأنه ملك ميداس الذي لن يحتاج إلى لمس الأشياء من أجل تحويلها، وإنما يكتفي بالنظر إليها بشدة، كما يفعل هو الآن. هي لحظته المفضلة في ذلك اليوم، وتحديداً عندما تبدأ الشمس بالمغيب خلال ساعات المساء، اللحظة التي يفضّلها هو للجلوس على كرسي من الصفصاف واستنشاق رائحة الأشجار المثمرة. ليتمكن من قطف حبة برتقال من أجل غسلها في حوض الماء وتذوّقها بهدوء، ليشعر كيف تذوب في فمه، ليرى فيها معجزة الزمن، الضوء والأرض.
هي الساعة التي يعود فيها ميغيل دي روخاس من الحقل، وفي الطريق يمكنه سماع ورؤية جيرانه، يتأمل خطوات الدواب المتعبة، والرجال العابرين للأزقة والشوارع المحاذية لبيته. هو فخور في أن هؤلاء الجيران دون غيرهم يسكنون بجانب بيته الرئيسي الذي يقع أمام كنيسة المسيحيين، المعبد الذي كان يستحوذ على جزء كبير من المنطقة، والذي كان في يوم ما مسجداً. في المساء، سمع أصوات نحيب ورثاء مصحوبة ببعض العبارات «قريباً لن نتمكن من الصلاة بلغتنا»، «سيدمرون حماماتنا»، «عندما لن نتمكن من ارتداء لباسنا، لن يرغب أحد في الحرير»، «الآخرون سيلبسونه»، يخلد ميغيل دي روخاس مع نفسه ليفكر بهذه الكلمات التي سمعها مع نفاد صبره الخامد، وطلب من فاطمة أن تُحضر له الخمر والتمر وماء الزهر، فهذا جيد بالنسبة إلى جسم ومعدة أولئك الذين لا يريدون إغضاب الله. لكن ميغيل دي روخاس كان يسمح لنفسه بأن يحتسي مشروبه من النبيذ عند حلول المساء، وهو على يقين بأن هدوءه لن يدوم، وأن الجنة التي عرفها في الأرض يمكن أن تُدمر تحت عينيه، وهو ينظر إليها.
لا يمكنك البقاء على الهامش لفترة طويلة من الزمن. تعتقد أنك تعيش في الجنة، فهذا الحلم لن يستمر. يجب عليك أن تتعلم استبدال بعض الأحلام بأخرى غيرها، وأن تقبل بالزمن الذي تعيش فيه بكل بؤسه ومعاناته.
الزيارة اليوم لشخصية مشهورة ولامعة، هيرناندو الزغير، حاكم كاديار، رجل ذو بصيرة خرافية. يتحدث دائماً بشكل جدّي، يستغل كل كلمة يتلفظ بها، لاسيما تلك التي لها علاقة بسلطته، كأن الحكمة التي يتقول بها لها علاقة بالمناصب، يظهر بمظهر جيد ولافت، مع رداء الحرير الأخضر الجميل الذي يرتديه من أخمص قدميه حتى رأسه، هذا النوع من الحرير الذي خرج ربما من منسوجات

ميغيل دي روخاس. هذا لا يمكن أن يُبعد عيون الأغنياء المحمرة عن الفضة التي تطوّق الرقبة، والأكمام، والتي ترصع مقبض سيفه، حيث يضع يده العريضة والقوية.
الجلد الداكن للزغير، لحيته التي يغزوها الشيب، تمنحه مظهراً شبيها بالبرابرة، هيئة رجل من الصحراء. من خدوده تظهر تشققات عميقة كأنها علامات عبارة عن أنهر مبهمة ومتدفقة بقوة تصل حتى عينيه الزرقاوين العميقتين والسحيقتين. ميغيل دي روخاس رأى فيهما شيئاً أكثر قدماً مثل شعبه، مثل عرقه وأصله، مثل الجبال نفسها التي تحيطه، البشرات؛ الأكثر صلابة مثل الحجر، الأكثر أثيرية مثل الموت. يكتشف في هذا الوجه شعبه، بل يكتشف نفسه، الحلقات التي تبدأ وتنتهي بالشكل نفسه: التاريخ، الحياة، العمر، العائلة، الحب، الصداقة. تختم حياتهم واحد تلو الآخر، تتخلص كذلك من كل الذين يحيطون بك حتى يتركونك عرياناً، مع امتلاك لجسدك فقط. هذا يقرر أن يستغلك، أن يبلغ الذروة في تدمير الذات ببطء ليسرّع ذلك من موتك. وفي الوقت نفسه، تذهب إلى تجريد نفسك من ذكرياتك، من خبراتك، من مشهدك، وتحديداً قبل الوهج الأخير.
تزعجه اللهجة التي يتحدث بها الزغير، أستاذ الأجيال، ومنمّي اليقين فيهم، يُحدث الضجيج، مثل الماء الذي يسقط من أنبوب حوض الماء، تمتزج كلماته المكتوبة في الهواء، لتغادر في الوقت نفسه.
وألا تبدو لك أحلاماً جميلة بالنسبة إليكم، استعادة المملكة التي بالفعل لم تعد موجودة؟ أنتم أناس لا تقبلون القدر الذي كتبه الله لكم.
نعيش في هذه المملكة. التي عاش فيها آباؤنا وأجدادنا. وكذلك آباؤك وأجدادك أجاب الزغير.
ميغيل دي روخاس حرك نفسه بطريقة تدلل على عدم راحته في الجلوس على الكرسي. إنّها الحرب التي يراهن عليها، أو على الأقل يُصرّ على اعتقاده هكذا.
لا تتعب نفسك، ميغيل. الوضع في كل مرة يزداد صعوبة. نحن دفعنا الفرادا من أجل استخدام لغتنا، ولباسنا، وعاداتنا.. تلك التي يريدون تجريدنا منها. أخبرونا بأنه يتوجب علينا ألا نتحدث بلغتنا، ونحن لا نتحدث القشتالية. في أي لغة سنقوم من خلالها بالتواصل مع الآخرين، وكيف يمكننا أن نطلب أو نطرح أو نعالج الأشياء المختلفة فيما بيننا وبينهم؟ ليس إلى الحيوانات تُعطى أصوات البشر. مَن الذي حرَّم على الرجل الذي يتحدث بالقشتالية عدم قدرته على امتلاك قانون النبي محمد، والذي يتحدث اللغة الموريسكية على امتلاكه لقانون النبي عيسى؟
يأخذون أطفالنا إلى مجتمعاتهم ويدمجونهم في مدراسهم: يعلمونهم الفنون التي كان أجدادنا يحظرون تعلمها؛ حتى لا يخلطوا بين «الحقيقة» و«القانون». كل ساعة يهددوننا بأخذهم من أحضاننا وإرسالهم إلى أراض غريبة، حيث ينسون هناك مظاهر حياتنا التي كنا نعيشها، ويعلمونهم أن يكونوا أعداء للآباء الذين أنجبوهم وللأمهات اللواتي ولدنهم. دعونا إلى ترك عاداتنا، وأن نرتدي الثوب القشتالي. لكن بينهم من يرتدي التوذويسكس بطريقة أخرى، الفرنسيون لهم طريقتهم، واليونانيون لهم طريقتهم، والمتدينون لهم طريقتهم، والشباب لهم طريقتهم، وكبار السن لهم أيضاً طريقتهم. لأن كل أمة، كل مهنة، وكل دولة تستخدم عاداتها، وهذا ليس سبباً لأن يتخلوا عن كونهم مسيحيين؛ ولكن نحن موريسكيون لأننا نرتدي اللباس التقليدي المخصص للموريسكيين، كأننا نطبق القانون والعقيدة في اللباس وليس في القلب.
ولا يوجد لدينا ما يجعلنا نشتري لباساً جديداً من أجل العائلة كلها؛ فالملابس التي لدينا لا يمكننا ترتيبها وتحضيرها: استخدامها محظور، بيعها لا يفيد. عندما أنفقنا الذي كان لدينا من أجل إعالة أنفسنا، بماذا سنعيش؟ نعم، أصبحنا في حالة نطلب فيها الصدقات من أي شخص ليساعدنا كأننا

فقراء، لأننا نحن بالفعل أصبحنا مجردين من كل شيء مثل الفقراء، لا أحد سيساعدنا، لأننا نحن الموريسكيين سنعاني من هذا البؤس والفقر والمسيحيون لا يعتبروننا جيرانا لهم. يحرمون علينا خدمة العبيد السود؛ البيض لا يجعلوننا نعيش كأمة واحدة؛ ولكن كنا لهم المشترين، الناشئين والمصانين، هل هذه خسارة مبنية على خسارات أخرى؟، ماذا سيفعلون مع من لا يوجد عنده أطفال لخدمتهم، ولا يبقونهم مع الخدم المرضى أو العجائز، لتكون كل أفعالهم تحضيراً للموت؟

ذهبت نساؤنا، أطفالنا وهم يغطون وجوههم، إلى الخدمة وتقديم كل ما يحتاج إليه المسيحيون داخل بيوتهم؛ ويبعثونهم من أجل أن يكتشفوا وجوههم. ولكن إذا نُظر إليهم، فسيكونون مطمئنين وحتى مطلوبين؛ وبالتالي سينظر إليهم كيف أنهم يواجهون بجرأة الشباب والكبار في السن. حظروا علينا جعل الأبواب مفتوحة التي ماضينا ودیننا حثّانا على إغلاقها؛ وليس فقط الأبواب، لكن أيضاً النوافذ وحتى الشقوق الموجودة على واجهات المنزل. هل سنكون فريسة للصوص والمجرمين، للزناة الوقحين، وهل هم على علم بأنهم قادرون على سرقة ممتلكاتنا، والإساءة إلى شعبنا، وانتهاك شرفنا؟ لا يحرموننا فقط من الأمان، من ممارسة حرفة الزراعة، من مجدنا وعزنا، من خدماتنا، لكن أيضا من وسائل الراحة كافة: حرمونا من معظم الأشياء التي تُدخل الفرح إلى أعراسنا، موسيقى السامرا، الرقص، الموسيقى والطعام، مثل أولئك الذين هم بحاجة إلى التنظيف والراحة من أجل الصحة.

هل ستعيش نساؤنا من دون حمامات، ومن دون العادات القديمة التي نشأن عليها؟ هل سينظرن في بيوتهن الحزينة والمتسخة والمريضة، حيث كان تنظيفهن من أجل الفرح، وارتداء الثوب الموريسكي من أجل أن تنعم براحة صحية؟ قريباً، سيفرض علينا دفع ضريبة ما من أجل أن نعيش. حتى لا تستطيع تحمّل تلك السلوكيات... سنحتاج إلى دعمك.

«ستحتاجون إلى أموالي»، يفكر ميغيل دي روخاس.

وأنت أخي أنطونيو؟ تجرأ على السؤال. وأنت ابن أخي هيرناندیو، من نسب ابن أمية، حفيد النبي من نسل ابنته فاطمة ومن الممكن أن تلقب بالملك؟

أخـي قـبـل قدره، وكذلك ابنه هيرناندو الزغير نظر إليه بجدية. من الأفضل لك أن تحن على ابنك لويس وتتقبله، بدلاً من الهروب منه.

كان فصل الخريف، محطة التغيرات. ميغيل دي روخاس يفضل التفكير في كل الذي يريد أن يقوم به من أجل أن يواجه الشتاء. لكنه لا يستطيع. يجب عليه أن يستمع إلى الزغير، أن يحضر كلماته، ويموضع كل واحدة في موضعها. الهروب من قدره؟ من أي قدر، قدره هو أم قدر لويس؟ هل المصير نفسه ينتظرهما كلاهما؟ إنه الخوف مرة أخرى، جمود الخوف، يفكر. السهولة التي تدفعنا إلى تدمير ذواتنا وإلى الموت.

يمكن للويس أن يفكر في خوف الفتى الذي يركض أمامه. ركضوا معاً باتجاه النهر، من الأرض المسطحة حيث كانوا قد بدأوا اللعب هناك. اللعبة كانت بسيطة جداً: الفوز في المعركة ضد الفرسان، الأعداء، المسيحيين، يوم خاص من أجلهم، استعدوا للانتقام للآلاف من الإهانات. على الرغم من أن هذا لا يهم لويس دي روخاس؛ فقط يركض، يشعر كيف نما الغضب بداخله، واسترضاء الفتى بضربة واحدة. ابن فرج سيستحسن ذلك بكل تأكيد. بالكاد كان هناك بضعة أمتار للوصول إلى الشاطئ. تمكن الفتى من الوصول مبكراً، ليتمكن من العبور والبقاء على التل العالي. لويس دي روخاس توقف متيبِّسا، وجمع بعض الحجارة بحجم حبة البرتقال، وصوّبها باتجاه إحدى قدميه. سقط الفتى يصرخ، وجسده شقلب في الماء.

اتركني!! توسل إليه الفتى. أحكم لويس دي روخاس العصا بين يديه، واقترب منه، وهو يصرخ متوسلاً: اتركني!!
فتية آخرون كانوا يركضون خلفه. شعر لويس بوجودهم يبحثهم عنه، كانوا تقريبا أكثر تجهماً منه.
كافر، الكلب المسيحي قال. في يوم ما سنذهب لقتلكم وسنحرمكم من كل ذلك الذي سرقتموه من أبناء شعبنا لم يصدق ما يقوله، لكنه كان متحمساً لكل ما يفعله، واليوم كان قائد الموريسكيين، والملازم الدائم لملكهم. من أجل هذا كان يلاحق الفتى الذي كان في نفس عمره، والذي كان يسميه بـ هيرناندیو. ابن فرج سيكون فخوراً بأنه تشاجر مع رئيس الفرسان.
اتركني!! عاد هيرناندیو إلى التوسل من جديد . هذه كانت في الحقيقة حرباً، وأنا سأكون ملكك.
نعم؟ حمل لويس دي روخاس العصا بين يديه ليوجهها باتجاهه، وهيرناندو دي بالور، الهيرناندیو، يصرخ بشدة من الألم مثل كلب يعوي. لم يكن الأمر متعلقاً بفعل الشر أو الخير، وإنما فقط في استحضار كل تجربة إلى النهاية، وذلك الذي قصده لويس دي روخاس بالمعنى الحقيقي لحب الحياة.
خذها! الآن، أمسك الهيرناندیو بكل يديه، وبالتالي لم يعد باستطاعته أن يحمي رأسه. اقترب لويس دي روخاس منه. أحاطه مستمتعاً بالخوف، بالدموع التي كانت قد بدأت تسيل على خديه، بالتنهدات التي شنجت جسده. أهكذا يبكي الملوك؟ سأل، وركل هيرناندو دي بالور في ظهره، ليكشف في الجانب الأعلى من كتفه عن الرداء الذي يلبسه.
هيا بنا!! افتح رأس هذا الكلب الأموي! ابن فرج كان معه. بدا له أن ملامحه تشير إلى أنه كان أكبر من الفتيان، الذي كان قد ابتعد قليلاً باحترام وخوف من أجل أن يتركه يمر. كان أيضاً أطول، وأكثر قوة، ولديه نظرة أكثر قسوة حتى من تلك التي كان يمتلكها لويس دي روخاس.
لكن لويس، حمل عصاه مرة أخرى، ركع أمام هيرناندیو وفحص كتفه العاري، الذي بدا وكأنه بقعة تلمع منذ ميلاده وبالشكل نفسه: نجمة باهتة في حوافها، تذوب أثناء سطوعها. لكن هيرناندو دي بالور كان أكثر وضوحاً، ومميزاً في شكله؛ فلم تكن بشرته سوداء، وإنما كانت حمراء.
في هذه الأثناء، ظهر عدد من الجيران في القرية، الذين جاؤوا قلقين من صياح بعض الفتيان، وكان لويس دي روخاس وابن فرج قد هربا، ولكن ليس من دون أن يتركا آثار ضرباتهما القوية على هيرناندیو.
منذ ذلك اليوم، ابن فرج ولويس دي روخاس لم ينفصلا، حتى أن لويس دي روخاس كان معتقدا بأن ابن فرج أكثر قرباً إليه من أخيه الأكبر، وربما أقرب إليه من والده أيضاً. منح ابن فرج لويس كنية جديدة ورسمية، ابن نصار، للاقتداء والثناء «بالملوك الناصريين، السادة الحقيقيين لهذه الأرض».
أحب لويس دي روخاس هذه الكنية، واقترح عليه العلو به وترقيته. ابن نصار والأسود، كما أطلقوا أيضاً على ابن فرج، سيكونون قريباً مشهورين في منطقة أوخيار، من مدينة ألفاهار إلى تشيرين ومن نتشيت إلى لوكاينينا وحتى أبعد من تلك المناطق، على الرغم من أن سلطتهم كانت فقط خمسة عشر وستة عشر عاماً بالتوالي.
كهف لويس دي روخاس كان قريباً على مناطق خورايراتار، المنطقة الأكثر حلكة والتي يصعب الوصول إليها، فقد كانت مليئة في السنوات الماضية بالحجارة الكريمة التي تم انتزاعها من الجبال، السيوف والخناجر، الأقمشة وأكياس التوابل، الدوقات، كل ذلك يقومون بسرقته من المسيحيين والموريسكيين على حد سواء، وحتى قوافل والده لم تسلم منه.

كانوا يفاجئون أصحاب القوافل خلال أحلامهم في منتصف الليل، يطلون عليهم من الظلال، هكذا كان يقول التجار، الذين لم يتمكنوا على الإطلاق من رؤيتهم، رغم أنهم كانوا يحرسون قوافلهم بالحراس. «هذا المهيمن»، كانوا يقولون؛ «هذا الأسود»؛ وكانت أخبار السرقات تصل إلى ميغيل دي روخاس، الذي كان يشعر بالعار بسبب سلوكيات ابنه لويس، إلا أنه ورغم ذلك، فقد كان يتحدث معه بلطف. بتوجيه من دون هيرناندو الزغير، كان دي روخاس قد خطّب ابنته فاطمة إلى هيرناندو دي بالور، ذلك ما أثار غضب لويس، الذي قام برفقة ابن فرج بالاعتداء على بيت دي بالور، وقاما بوضع كلب ميت بجانب السرير الذي ينام عليه ملك المستقبل، ليكون ذلك السلوك بمثابة التهديد المباشر بموته. لهذا لم يتعجب أحد بالأنباء التي تفيد بأن لويس دي روخاس، ابن نصار، كما يعرفونه، كان قد قام بقتل فارس من ميثينا اسمه كريستوبال دي لوبيانو، الصديق المقرّب لدون بالور.

أصبح دون هيرناندو بالفعل المسؤول الحقيقي عن شعبه، وبناء على توصية من الدون أنطونيو، والده، ومن عمه الزغير، كان قد أرسل بعض المبعوثين إلى جميع مناطق غرناطة؛ لمعرفة المؤيدين والداعمين للقضية الموريسكية، وحساب عدد الأشخاص الذين يمكن أن يكونوا في اليوم المحدد لاستعادة حياتهم القديمة. لهذا فقط استفاد في الحالة التي كان عليها كفارس يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، من اللقب الذي كان قد ورثه عن والده، المسؤول عن ضمان العدالة في المدينة.

منحهم الملك إذناً لإقامة مشفى لمرضى الجذام وإنشاء جمعية دينية (كوفراديا) من المسيحيين الجدد، الذين كان يُطلق عليهم اسم «القيامة». ذهب المبعوثون إلى المملكة يطلبون الصدقات، وللتعرف على الطرق الأكثر أمناً وسرّية، وعلى الناس الذين كانوا على استعداد لأخذ السلاح ومعرفة العدد الأكبر ممن يمكنهم التسلح في المملكة. وكريستوبال دي لوبيانو كان المميز بينهم. عثر على جسده على طريق أوخيار، وصدره وظهره مفتوحان، حيث كانوا قد انتزعوا قلبه منه. وبعد ذلك وضعت الكنيسة مبلغاً لمن يجلب رأس لويس دي روخاس، الذي اتخذ من الجبال مسكنه، والذي عاش فيها أكثر من بيته نفسه.

في الليلة نفسها، حلم لويس دي روخاس بأن صدى صداقته الحميمية ما زالت مع ابن فرج، سعادته وحتى نشوته التي كانت تتملكه أثناء شربهم لعدد من قناني الخمرة. هذه الليلة نام لويس دي روخاس في كهفه، حيث هجر الأول صيحات الفرح، بعد الغضب والتعب، بعد حلمه. من دون شك كان نائماً، لكنه كان يشعر في كل لحظة ببرودة جسده الجاثي على صخرة، حتى لم يكن يمتلك القوة للزحف نحو فرشة القش الموجودة هناك. ربما لهذا السبب فإن كل الذي حدث له في الحلم بدا له أكثر واقعية كأنه قد حدث حقاً. ينظر أولاً إلى أمه. بعض المرات في الفراش، يتصارع مع ذاته بشراسة. بعد ذلك والده الذي اختفى بعد عناقه لوالدته، التي تحولت فجأة إلى أخته فاطمة، تلك التي تنظر إليه متأملة متفحصة، تتطلع إلى عينيه وتهمس له بأن يعتني بنفسه، وطلبت منه ألا يعود إلى الاختفاء، وألا ينفصل عنها أبداً. لماذا ينبغي عليه أن يجعلهم يعانون؟، لماذا ينبغي عليه أن يصبح وحشاً؟ أم أنه لم يدرك الجحيم الذي كان بالفعل يمثل حياته؟ تلك الكلمة التي أوصلته في الحلم مع والده، بدأت بالتأثير في كل الصور، وتحولاتها.

ذابت وجوه الفاطمتين ولويس يتطلع إلى أنه يقوم بخنقهما، يقتل أخته أولاً ثم أمه، ويقتل كل أولئك الذين ارتكبوا أخطاء في حبه. تحت الجلد عضلات الوجه كانت ملتوية، محززة لتعمل على توسعته، تضيقه من أجل تشكيل كل وجوه النساء اللواتي كان ينظر إليهن في بعض الأحيان، اللواتي تعرضن للإساءة، للاغتصاب، للقتل، وكلهن اتّهمنه وقمن بلعنه قبل أن يصبح كلباً أسود ضخماً. وسمع كلمات

من والده: «احفظ روحك من أجل الله وإلا فإن الكلب سوف ينزعها منك»؛ والوجه كان وجه ابن فرج، ذلك هو أيضاً مَن عانقه وأحبه، لننقسم إلى قسمين ونلتفت إلى بعضنا في ساحة القتال، القتال كان مع المسيحيين، نرتدي الدروع اللامعة، ونحمل الرماح الطويلة تلك التي نغرزها في الجنود، إلا أن عددها يكاد لا يُذكر في ظل شخصياتهم المهيبة.
لكن الجنود كانوا من جديد الأشخاص الذين كان يعرفهم، ذلك الذي لم يمنع مرورهم مع سيفه، ليقطع أعضاءهم، ورؤوسهم، التي احتلت بشكل كامل أرض الكهف، ليدوس عليها رغم أنه يعرف أنه كان هناك مستلقياً، يحلم. وفي اللحظة نفسها فكّر أنه قد سقط على الأرض، منكهاً. شعر بدم كل الجثث المتراكمة حوله وتملأ الأرض، يسبح جسده المستلقي، الذي وجده رفقة جسد كريستوبال دي لوبيانو. عندما استيقظ، كان لا يزال يشعر بمتعة حرارة جسده اللزجة.
حفرة أوخيار كانت قد ظهرت مغطاة بالغيوم، الذي اخترق الكهف. محتار معها، حول جسد لويس لتطفو منه عينا أمه السوداوان والعميقتان، عرفها من بين آلاف الوجوه. أو ربما عينا أخرى أعادته إلى طفولته وأحلامه من خلال ضباب الزمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حلم؟

هكذا انتهى الحلم، نعم إنه كان كذلك، مع أمي القلقة، كانت توبخني في حديقة المنزل القديم، رغم أنني كنت أتطلع من خلال هذه الحديقة إلى ولادتي، طفولتي وإلى مراهقتي المجزأة، بعض المشاهد العابرة في الدماغ، مع طلباتها القائمة على معرفة كل شيء، أو كما لو كانت صفحات ممزقة من الكتب التي كنت أقرأها كل صباح، التي الآن أصبحت مرتبطة بالحنين، يتبعها حجة غير معروفة بالنسبة إليّ. وكان الأكثر فضولية، أنه حتى معرفة هذه الأشياء لا يمكن أن تكون من ذكرياتي، ليس هؤلاء أصدقائي، وليست هذه المرأة أمي، أنا شعرت أنهم كانوا، بالقوة نفسها التي كانت تعيشها مشاعري، أو حتى أسوأ من ذلك، كما لو كانت هذه مشاعري في الواقع، وأنا كنت قد استبدلتها مع الآخرين، المتطفلون، استبدلوا أصولي وحقيقة عائلتي بالمعتقدات والشخصيات المتحكمة، التي تضمني إلى حاضر متصنّع.

ومع ذلك، في تلك الليلة نفسها حدث شيء أزعجني كثيراً. مع الفجر، بدأ هبوب قوي للرياح، ليوقظني صوت ضجيج في الممر، صوت لهاث متقطع، أصبح عبارة عن تنهدات وصراخ. نهضت من السرير وخرجت لأنظر ما الذي يحدث في الخارج. يبدو أنها أصوات قادمة من غرفة رافا وراشيل، حيث كان باب غرفتهما مفتوحاً جزئياً، وحيث يخرج منه شعاع ضوء، منخفض، الذي رسم ظلالاً على الجدار وعلى الأرض. كانوا يُضربون ويئنون ولم أجد أحداً مستيقظاً غيرهم. عاد إليّ شعور ديغو فو الذي استولى عليّ منذ دخولي هذا المنزل، وتملكني شك إن كنت قد نمت فعلاً فيه. لكنني شعرت أن الطين يغمر أسفل قدمي وصولاً إلى ارتفاع الباب. لا يمكنني أن أتجنب فضولي ونظرت إلى داخل الغرفة: كان ضوء السرير مشعلاً، لكنهم كانوا قد غطوا المصباح بقميص. في غبش الإنارة داخل الغرفة، كان رافا يضاجع راشيل، التي كانت تتذمر، لتأمره بالتوقف في الحال. لكن رافا لم يواصل مضاجعتها فحسب، بل جدد اندفاعه نحوها، وأمسك شعرها باليد اليسرى، وضربها على مؤخرتها في اليد اليمنى. سحب قضيبه ليرسم وجهاً قتوماً، وأنا أنظر إلى ذلك القضيب الضخم في يده، أطفئ الضوء، تورمت الأوردة مثل عقد جذع الشجرة، والأسود والفرج المستدير ما زال مفتوحاً، ليتدفق من القضيب ويخرج من ذلك الفرج بعض السائل الأبيض، ليعود رافا من جديد إلى إيلاج قضيبه.

بالكاد كنت أتحمل الرائحة المنبعثة من جسديهما والتي تملأ الغرفة: رائحة حمض، العرق، ممزوجة برائحة الدم والبراز. ضوء المصباح يشع أسفل أقدام رافا وراشيل، قطرات من العرق تنز من ظهريهما وأردافهما، من كتفَي وصدر راشيل، ذلك الصدر الذي يتمايل مثل أضرع بقرة لكبرهما، ليمسك بهما رافا بيديه، ويظهر السواد المحيط بحلمتيها الكبيرتين كأنهما قبّتان مقلوبتان، كما لو أن رافا يرغب في تمزيقهما، لتبدأ راشيل بالصراخ مرة أخرى.

أسوأ ما رأيت كان وجه رافا، الملتوي، تعبيراته القاسية والممزوجة بالشهوة، تماماً مثل تعابير وجه الأسود ابن فرج الذي كان يراودني في حلمي، والذي كان ينظر إليّ كأنه يقول لي: «تنظر؟ هكذا هي الطريقة التي يتم بها ذلك. تبدو جيدة». وعاد إلى ضربها من جديد ولكن هذه المرة بقوة أكثر، ليترك بعض الرضوض على جلدها، لتمتد بعد لحظات من ذلك بعض الأصابع الشبحية؛ لأنه لم يكن هناك حب، ولا دافع جنسي، ولا إثارة جنسية، ولكن كان هناك الشر، الأمنية والمتعة الوحيدة كانت فعل الضرر، وأنا شعرت برغبتي في التقيؤ. أغمضت عينيّ وفتحتهما مرة أخرى. غرفة رافا وراشيل

كانت مظلمة، يمكن تمييز انتفاخ جسديهما تحت غطاء السرير، كما لو كانوا كلهم عامل تخيلاتي، والبيت كان في صمت. عدت إلى السرير، لكن في حلمي ابن فرج رافا؟ استمر ينظر إليّ بتعبيرات قاسية، ليشجعني على تقليده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشر

منذ متى وهي هكذا؟
رافا وبابلو يتحدثان في الصالون، كانا واقفين بجانب النافذة ويدخنان بعض السجائر. أنا كنت جالساً على الكنبة أقرأ، أحاول أن أبقى مثل الغريب عن تلك المحادثة. الآخرون ما زالوا مستلقين. مع بزوغ الفجر، كانت القرية مغطاة بغطاء أبيض كثيف، وعلى الرغم من أن ساعة الصباح هذه لم تهبّ فيها الرياح، فإن السماء كانت ملبدة بالغيوم، ليمر منها ضوء خفيف يمنحها انطباعاً بأن الجو قاتم، شديد الظلمة. كُنّا قد عدنا إلى فتح أبواب النوافذ الخلفية أغلقناها في الليل حتى تتركنا ننام بهدوء، ولكن حتى هكذا فقد كنا نترك مصباحين مشتعلين. «موسيقى الرياح ليست بالفعل موسيقى»، فكرت. وهذه التراتيل دائماً أنا أحب القصائد تذكّرنني بأخرى:
الخوف لا يصدر الضجيج لأن الخوف
اعتاد الصمت، وآخرون اعتادوا الضجيج
يحتلون هذا المكان ويجعلونه لهم
أنت تعرف أنها استحضرت هذه المشكلات منذ سنوات، لكن في النهاية كانت أفضل بكثير، لا أعرف ما الذي كان يحدث لها علق بابلو.
ولكن هي لم تتابع العلاج؟ كنت أتجسس على رافا من فوق الكتاب، لكن بدا لي أنه رافا الذي أعرفه دائماً، لم يتغير فيه أي شيء.
«أنا أيضاً كنت قد حاولت اللجوء إلى طبيب نفسي»، فكرتُ.
كانت على ما يرام إلى أن تركها طبيبها.
كان علاجاً قائماً على استخدام الليثيوم، Lithionate الاسم الدوائي، الذي كان مفعوله عليها جيداً جداً. لم يكن لديها أي أزمة خطيرة في الشهور الأخيرة. الآن فقط مطلوب منها الهدوء في الصباح وفي الليل أيضاً.
أي واحد كانت تختار؟
تراكيثامين.
وتناولته كله؟
طبعاً.
لا أفهمها قال رافا. هل فعلت ذلك من قبل؟ أنا تذكرت باشمئزاز الندوب التي كانت على وجه آنا.
نعم أجاب بابلو. المرة الأولى عندما كنّا في المعهد، والثانية عندما كنا في حفلة سمر.
وكيف تركتها تشرب؟
الأمر لا يتعلق بأنني تركتها تشرب أم لا هذا ما قاله بابلو. هي تعلم ما الذي ينبغي عليها أن تفعله بالضبط. البارحة بالكاد كان بمقدورها أن تشرب. إلا أن ذلك كان محظوراً عليها. لتكون لديها القدرة على التحكم بنفسها في هذا الشعور. علاوة على ذلك، لم يفكر أحد بأن خارج ما حدث كان من الممكن أن يحدث لاحظت أن بابلو يشيح بنظره عني بسرعة ويخفض صوته. هو شيء آخر..
إلى ماذا تشير؟ رافا ينظر إليه بالوجه نفسه الذي كان ينظر إليه إلى آنا في الليلة السابقة، أكثر اهتماماً بالحقائق من عواقبها. فكرتُ من جديد أن ذلك الشخص لم يكن رافا الذي كنت أعرفه. ربما خارج عمله المهني تتغير طباعه ليتحول بذلك إلى شخص آخر. في القسم الذي أعمل فيه في الجريدة، حيث

كان فيه الكثير من الأخبار والريبورتاجات حول ضرر المجتمع بالثقافة، أنا كنت أقرأ وأعدل كافة الريبورتاجات حول مهنة الطب. من المعلومات التي تحذر من الشرب التعسفي للكحول أو تناول الحبوب كممارسة اعتيادية من أجل أن يكون قادراً على تحمّل ضغط العمل، إلى سجلات المهنيين الذين لم يعودوا يسمحون لتأجيج المشاعر مثل الرحمة والشفقة والحزن لمواجهة حياتهم اليومية. الأخبار حول شكاوى الإهمال كانت في كل مرة الأكثر شيوعاً، وعلى الرغم من أنه في كثير من المناسبات كانت أخباراً مثيرة، تثير إعجاب البعض. الأوقات تتغير، والمبيعات تنخفض، وكل العناوين أيضاً تتطور، ليؤدي ذلك إلى توسيع محتوياتها من كونها مجرد خبر صحفي إلى مشهد عاطفي، درامي، مخصص فقط لجذب انتباه الجمهور.

شعرت بالتوتر لمجرد وصولها إلى القرية. صحيح أننا في المنزل كنا نتناقش، ولكن ليس كثيراً مثلما نفعل هنا. أنا كنت قد قللت من مخاوفها «إنه الشيء الذي كنت قد تعودت عليه»، أضاف بابلو، كأنه يعتذر، وهي كانت قد أنهت ضحكتها. اعتقدتُ أنها قد نسيت الموضوع.

لا أعرف. المرضى الذين يعانون من اضطراب ثنائي يمكنهم أن يتصرفوا بعنف. في الواقع، الانطباع الذي عادة يعطونه عندما يكونون في أزمة مثل هذه هو أن يكونوا أشخاصاً سيئين، وهذا ما يمكننا أن نقوله لبعض الأشخاص؛ على الأقل من وجهة نظر علمية. وعادة يفهمون ممن هم أكثر قرباً إليهم؛ مع من يعزونهم، في الواقع. ألم تفعل لك شيئاً مطلقاً؟

لا، أبداً. عندما تكون غاضبة تشتمني، مثل البارحة. الحقيقة هي أنه يمكنها التلفظ بأشياء غريبة جداً، لكن لم يحدث ذلك منذ خروجنا. بعد كل شيء قد يحدث لك أو لي شيء مماثل لما أصابها، أليس كذلك؟ وربما كنا سنحصل على مساعدة كالذي لا يريد الحصول على شيء، يتذكر بابلو أنه كان يستحق لكمة. فهي تتصرف مثل شخصين مختلفين، وهذا كل شيء، وهذا يتوقف على مرحلة المرض الذي تعاني منه أو الهوس أو الاكتئاب.

نعم، أعرف، أعرف نبرة الصابر رافا عادت أيضاً إلى أن تكون نبرة شتيمة . في مرحلة الهوس ستشعر بالبهجة والقدرة على فعل أي شيء تقريباً. رغم ذلك، سيكلفك العمل بالتركيز على شيء واحد. بعض المرضى يعانون من الأوهام والهلوسات. ويمكنهم إنفاق الأموال بشكل مفرط لممارسة الجنس. هذا يجب أن يكون مثيراً للاهتمام، أليس كذلك؟

يا ابن الحرام...

ولكن في مرحلة الاكتئاب يحدث العكس. يفقدون الاهتمام بالأشياء التي كانت تمتعهم من قبل يبتسم رافا في هذه اللحظة، وأنا عدتُ إلى النظر إليه كأنه وجه ابن فرج. قد يعانون من مشاكل في النوم، فقدان الشهية أو تناول الكثير من الطعام، رغم أنهم في بعض الحالات، وخاصة النساء، غالباً ما يشعرن بالقلق بسبب مظهرن البدني هنا عاد إلى رسم الابتسامة من جديد. عادوا في هذه المرحلة يفقدون الطاقة كلها ويشعرون بتعب شديد.

نفث رافا سحابة دخان من فمه، كأنه هو نفسه يفرغها من داخله. غالباً خمس أبناء من بغية، فكرتُ. أكثر من مرة لم يقصد مهنته، ولكن نجاحه. كان أرستقراطياً، وبالفعل لم يكن يهمه ذلك الذي يحدث للآخرين، ولا حتى ما يحدث لأصدقائه. أزعجني حديثه بهذا الاستياء من آنا، وأكثر من ذلك ستلدغه كلمات بابلو. وفي عينيه لمعة.. أي لمعة؟، ربما هي لمعة شر؟ والشيء المضحك كان قلقهم عليّ، كأنني أنا الذي كنت مسؤولاً عن كل الذي حدث. هذا ما كنت أفكر فيه. وبدأت بالشعور بمعاداتهم لي.

ربما فكرة السفر معهم لم تكن فكرة جيدة. فجأة أصبحنا مثل الأعداء المحبوسين في البيت نفسه، على الرغم من أننا نخفي مشاعرنا تحت عادة الحفاظ على الصداقة المتقطعة منذ سنوات طويلة.
كان ذلك ما حدث مع بابلو، فكرتُ. لديه أعداء داخل بيته، أو حتى داخله هو نفسه، نعم نعتبر ذلك الذي يشعر به تجاه آنا. العدو الحميم الذي يحبه فوق أي شيء كان، حتى أنه يحبه أكثر من نفسه أو أكثر من صحته. وهل كان ذلك أيضاً عادة؟ في النهاية كانوا دائماً معاً، من أيام المعهد، وهو أيضا لم يكن يعرف حياة أخرى يمكن أن تعتني بآنا. هل كان على علاقة بامرأة أخرى؟ يجب عليه تحمُّل المشاق، مثل رافا؛ وفي بعض الحالات، كان من الممكن أن يتجاهل ما ستكون عليه حياته إذا حققت آنا هدفها في النهاية. وكان من المحتمل أنه بعد الأحداث العرضية مثل تلك التي كنا نعيشها في الليلة السابقة، هو نفسه كان يرغب في قتلها. الشيء الوحيد المؤكد هو أننا أوضحنا من وجهة نظرنا أننا نود عاطفياً أو طبياً، وفق الظروف وإحباطاتنا الشخصية تغيير الأشخاص، لنتمكن من التصرف كالملائكة كأبناء حقيقيين لمرأة عاهرة.
«العدو الداخلي»؛ كان فضولياً من يستخدم هذا التعبير. وهي العبارة نفسها التي استخدمها بعض المؤرخين للإشارة إلى موريسكيي البشرات وإلى وضعهم في الإمبراطورية الإسبانية. والتعبير الذي كان يستخدمه والد إيفا هو «التطفل». الكل يمثل الأعداء الذين ينخرونك ببطء. الأعداء الداخليون، البدنيون، النفسيون، الذين انعكسوا على بلدتك، عائلتك، أصدقائك، على الأشخاص الذين ترغبهم أكثر، أولئك الذين ترى فيهم نفسك، كأنك تنظر إلى صورتك نفسها، ذلك الذي لا يعني شيئاً في العمق، ولكن الرغبة في تدمير الذات.
في الواقع... بدأ رافا بالحديث([12])؛ ولكن أنا قررت الاستمرار في قراءة الكتاب الذي بين يديّ.
كنت أدرس الآن «مراجعة تاريخية لثورة الموريسكيين وفق المؤرخين العرب»، واحدة من المراجعات التي لم أسمع بها من قبل. كتاب مطبوع بنسخة منفردة، الطبعة التي بين يديّ صدرت عام 1894م، رغم قدم الطبعة إلا أنه كان في حالة جيدة، ولم أفهم كيف تركوه في هذا البيت. ربما لأن جلدته الرئيسية كانت مفقودة، واحتفظوا فقط بالأوراق، فكان محميا بغطاء داخلي، وكرتون سميك. في القسم العلوي من الجهة الممزقة، يمكن رؤية تشكيلة من إكليل الورود والفواكه ورؤوس الحيوانات أسود، خنازير برية، حلزونتين مع قرون وفي الوسط توجد ميدالية كبيرة، حيث تظهر الجزء الجانبي من رأس الإمبراطور فيليب الثاني، الملك الذي حكم إسبانيا في زمن الثورة.
الكتاب يعكس بعض مظاهر الحرب من وجهة نظر مختلفة لبعض المؤرخين، مراحلها والعائلات التي كانت تديرها، ليبدأ القلب بالخفقان بسرعة عالية عندما وصلت إلى الأحداث الأخيرة والتي وضعتْ تحت عنوان:
تاريخ دون لويس دي روخاس، ابن نصار، المنفي
تأليف
أحمد بن محمد المقري
أنساني العنوان بشكل كامل رافا وبابلو، وبدأت بالقراءة:
«الإهانة التي تعرَّض لها أبناء شعبنا كانت علامة محددة لنهايتهم القادمة وخراب مملكتهم. غضب من الله، بسبب الفواحش والذنوب التي قام بها المسلمون، والتي حلّقت فوق رؤوسهم، يهددونهم بعقوبات عظيمة لا مثيل لها. بفضل المؤرخين تلقّى الكثير من السكان عدداً من التنبيهات التي تُخبر

عما هو قادم، مدركين الجرائم التي قام بها الملوك الناصريون، الذين سينتهي بهم المطاف بفقدان المملكة تحت أسلحة المسيحيين.
أشار ابن الخطيب إلى التعويذة المعروفة باسم «ديك الريح»، والموضوع في القسم العلوي من قصبة غرناطة القديمة، ومع الإصلاحات التي قاموا بها: أصبح هناك سبعة معادن يتبعها نقش مكتوب عليه: «قصر غرناطة الجميل، يستحق الاهتمام. تعويذيته تمنحه العودة وفق تقلبات الزمن. تحكم الرياح على فارسها، على قدرة صلابته، لكن من دون أسرار؛ لأنه في الحقيقة، بعد البقاء لفترة وجيزة، قد تصيبه مصيبة تدمر القصر وصاحبه»
«وفي الحقيقة لم يمض الكثير من الوقت حتى قام الملك كارلوس بإصدار أوامره للشروع ببناء قصره في القصبة نفسها. فقدت المملكة، وتحت ذل الإمبراطور، بدأ الفقهاء بوصف العجائب أثناء إعلانهم عن المُحرّر الذي سيعود إلى قيادة شعبه. أخرجوا من الأرض الكتب التنبُّئية التي أنقذوها من نيران ثيسنيروس، وقالوا إنهم شاهدوا في السماء لهيب نيران احتراقها، وركضت جحافل الجيوش، ودار النجوم الغرناطيون في اتجاه غير محدد، وظهرت وحوش مجنحة تقاتل بغضب مستميت».
هي العلامات التي ينتظرها بقلق أفراد العائلات المشهورة ذات النَّسَب العريق في البشرات: فرج بن فرج، من سلالة بني سراج، دون هيرناندو الزغير، من دم بني أمية والنبي، شريف كاديار وأخوه، دون أنطونيو دي بالور وقرطبة، وابن هذا، دون هيرناندو دي بالور وقرطبة، الذي سيتوّج باسم ابن أمية، ملك غرناطة؛ وحماه الدون ميغيل دي روخاس، الموريسكي الغني جداً من الذين قالوا عنه إن نصفه يهودي، والمتلهف لخوض الحرب للأسباب القليلة التي ينبغي أن يأخذ بها في حالته.
زوّج ميغيل دي روخاس ابنته من ملك المستقبل؛ من أجل أن يدعم الثورة، على حد قوله، ومن أجل المساهمة في زيادة ثرواته، ولكن في الحقيقة كان من أجل إسكات ضميره الداخلي، الذي طلب فقط المغفرة من الله بأن يرزقه في هذا العالم ولداً، والذي سيكون أسوأ من الشيطان. لويس دي روخاس، الذي لُقِّبَ بـ «ابن نصار» مفتخراً بالملوك الناصريين، كان ابن نصار قد نشأ في أوخيار، ووفق قوله فإن ولادته كانت قد مرت في ساعات قاسية، وفي الليلة التي ولد فيها حدث زلزال لم يسبق له مثيل في تلك الأراضي. يُحبّ كثيراً أمه وأخته فاطمة، التي لن يغفر لها زواجها من الدون هيرناندو دي بالور، والخوف من والده، الذي كان ينظر إليه كأنه وحش نشأ في بيته.
كان الأسود ابن فرج صديق لويس دي روخاس الحميم، وارتكب كلاهما أعظم قسوة خلال الحرب، كما فعلا في زمن السلام. من طفولتهما وهما يركضان في الحقول، ويسرقان على الرغم من أنهما كانا غنيَّين، يتشاجران مع الأطفال الآخرين، يحلمان بقتل المسيحيين. الأمنية العظيمة التي كان يتمناها الأسود ابن فرج أن يكون ملكاً، وأن يكون الملك الأكثر قسوة تشهدها هذه الأرض. حتى أن ابن فرج كان دائماً مستعداً وحكيماً، يتسم بالصفات التي لا تجدها في دي روخاس، حيث كان ابن فرج أكثر رصانة ومتهوراً، فعلى الرغم من أنه كان محارباً، طويل القامة وقوياً، وبشعر أسود مجعد وعينين مهيمنتين فإن ابن فرج وأمه فقط كانا باستطاعتهما المواجهة.
بالكاد كان لويس دي روخاس غلاماً ناضجاً عندما قتل فارس ميثينا وهرب إلى الجبال ليصبح «منفياً»، ليتسبب بإلحاق العار بعائلته والفخر لابن فرج، وقريباً يقوم دي روخاس بتشكيل عصابة، اشتُهرت بأفعالها الإجرامية، وقبل الثورة كانوا قد قتلوا تاجراً اسمه إينثيسو وقتلوا تاجراً آخر كان عائداً من معرض في أوخيار، وكان من النادر ألا يسحبوا الرجال المقتولين إلى مدينة غرناطة، أولئك الذين آثروا وضعهم في الحقول القريبة بوجوههم الممزقة، وقلوبهم المنزوعة من ظهورهم.

ولذلك كان لويس دي روخاس المطلوب الأول لرجال محاكم التفتيش، الذين سخّروا كل رجالهم للبحث عنه، بأمر من الدون بيدرو دي ديثا نفسه، الذي طلب إحضاره إلى «الساحة الجديدة»، حيث كانوا سيحاكمونه هناك أمام الملأ.

وعندما جاء يوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر/كانون الأول لعام 1568م اجتمع بعض القادة؛ للاعتراف بأحقية ابن أمية بأن يكون ملك غرناطة، إلا أن ابن فرج عبّر عن استيائه، وتحدّث مع لويس دي روخاس من أجل جمع أفراد عصابته، الذين كانوا بمثابة المتعاونين الرئيسيين للقيام بأعمالهم القادمة. وصعد ابن فرج ودي روخاس في الليل مع رجالهم إلى البيازين في محاولة منهم لتأجيج الثورة في المدينة كلها، ليتراجعوا إلى الخلف، ليجدوا موريسكياً طاعناً في السن، يغني:

لقد حضرت متأخراً يا زيد

وأحضرت معك القليل، حضرت متأخراً

وكان لويس دي روخاس، ابن نصار، هو من قتل عدداً من كتّاب ونبلاء أوخيار في منطقة بوكويرا، وهو نفسه من تسلل في منتصف الليل إلى كاديار وقطع رؤوس الفرسان: ديغو دي هيريرا وخوان مورتادو، مع خمسين جندياً آخرين. فكان ابن فرج وابن نصار مع عدد من المنفيين هم من أعلنوا التمرد في جميع المناطق الجبلية المحيطة بمملكة غرناطة، من شواطئ بيرا إلى حدود جبل طارق. لقد قاموا بحرق المسيحيين المقيمين في مناطقهم، بغض النظر عن جنسهم أو أعمارهم أو الحالة التي كانوا عليها، فقد حكموا عليهم بالعذاب، وفي النهاية بالموت.

تم حرق بعض المسيحيين على نار هادئة، ويسلخون جلدوهم وهم على قيد الحياة، يشوهون الكثير منهم بوحشية، يعلقون بعضهم على المشانق والأشجار، يشوونهم أو يدخلون القصب الحاد داخل مَعِدهم، يتركونهم مستسلمين للعذاب الرهيب الذي يتعرضون له، ليعتبر الكثير من المسيحيين التعساء بأنهم سيكونون شهداء. وعلى الرغم من رفض الملك ابن أمية لكل هذه القسوة التي قام بها رجال ابن نصار وابن فرج، إلا أن هناك من صفّق لهذه الأعمال وأشاد بها، ليقوم بعضهم بإعادة بناء مسجد أوخيار، والعمل على قتل قسيس وحامل صولجان القرية بعد هذه الآلام العظيمة.

إنهم يقولون إن ابن نصار قام بسلخ جلد القسيس وهو على قيد الحياة، ليشتمه ويلعنه إلى الأبد، وإن روحه ستلاحقه حتى يدفع ثمن جرائمه، ولن يرضى عن ابن نصار الذي قام بتحطيم وحرق صورة العذراء، التي سيكون اسمها بعد ذلك الشهيدة. وحتى في هذه اللحظات، فإن ابن نصار كان يشتاق كثيراً إلى أمه، المرأة التي يفضلها على كل شيء، ولذلك يخبرنا ابن الخطيب كيف كان ابن نصار يذهب إلى زيارتها سراً، ويتخذ من الأنفاق وسيلة لذلك، حيث يخرج ويصل من خلالها إلى البيت، وبعد ذلك وقع في سوء ابن فرج بأمر من ابن أمية، حتى لا يدفع الموريسكيون ثمن تصرفاته القاسية. وعندما وصلت قوات دون خوان دي أوستريا إلى أبواب البيت، مات ابن نصار في حضن والدته، التي هي نفسها ساعدته، يقولون، إنه عثر بحوزتها على سكينه التي قطع بها رقبته ليتجنب حكم العدالة المسيحية...»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدم

وهذا ماذا حدث له؟ هزّني رافا من كتفي من دون أي عناية. وسحبت يده من على كتفي بقوة.
ماذا حدث لك، بحق الجحيم؟ صرخت عليه. ألا يمكنك أن تكون أكثر حذراً؟
لقد كنت عاقلاً عندما كنت جالساً على الأريكة!!
عاقلاً؟ كنت سأكون عاقلاً مساء الأمس، إن هذا لا يهمني!! شعرت بغضب خارج عن سيطرتي، وإنني لا أعرف من أين جاءني. نظرت إلى وجه رافاابن فرج في حلمي، ولكنني أيضاً تخيلته برقبة مجروحة بجرح مفتوح وعميق، أمال رأسه إلى الخلف وفتح فمه من جديد.
ولكن، ماذا حدث هنا؟ لويس؟ أعادني سؤال إيفا إلى الواقع. كنا كلنا نجلس في الصالون، أعتقد أننا طرحنا السؤال المزعج نفسه.
الحقيقة أنه عندما هزّني رافا، كان قد كسر فيّ الوهم الذي دفعني إلى قراءة تاريخ المنفي. ثم ألقيت اللوم على حلم الليلة، الذي كان تفسيراً للكلمات التي قرأتها وكانت تتلى عليّ بصوت داخلي، صوت لويس دي روخاس، ابن نصار، كما لو كان هو الشخص الذي يقرأ عليّ، أو كما كنت أنا نفسي هو في تلك اللحظة، الآخر الذي لم يكن سوى شظية ممزقة مني.
كلما تقدمت في قراءتي، كنت «أرى» جرائم المنفي كأنها جرائمي نفسها، كان يقتل المسيحيين القدماء ويغتصب نساءهم، وقد رأيت بوضوح تسليخه لقسيس أوخيار، إن لويس دي روخاس كان يقوم بفعل الإعدام ببراعة مخيفة، فلم يكن عيشه في الجبال عبثاً، فقد كان معتاداً على سلخ جلود الماعز والأغنام: وجه الراهب الملتوي، المربوط على خشبتين متقاطعتين، تماثل شكلهما مع الصليب الذي صلب عليه المسيح؛ تتمزق صرخاته مع الجروح الأولى في كتفه، وبدأ جلد ذراعيه بالانسلاخ مثل جلد الثعبان أثناء تبديله، تسمع ضحكات ابن نصار العالية عندما قام بقطع قضيب الراهب وانتزاع خصيتيه، أغشي على الراهب ليعود إلى الاستيقاظ من جديد، يصرخ ويغمى عليه من جديد لشدة الألم، بينما المنفي يكرر عملية فصل الذراعين عن كتفَي الراهب، كيف قطع أذنيه، وسلخ جسده ورأسه، يبلغ هدفه، إذا التفت إلى وجه الراهب، تجد مسارين أبيضين ظاهرين فيه، الفكان مجردان بشكل فظيع، كل شيء فيه مفكك، لحمه أصبح مكوماً كأنه بقايا ما زالت عالقة على خشبتي الصليب، التي تطفو على بحر من الدماء.
كانت اللعنة تخرج من شفتي الراهب متتابعة، فما تكاد تنقضي الأولى حتى تتبعها الثانية، وهذا هو الشيء الوحيد الذي كان يقلق المنفي، فعلى الرغم من وحشيته، فإنه كان مؤمناً بالخرافات، وفي النهاية فقد كان الفعل الأخير لإرادة الرجل الذي خرجت لعنته إلى الأبد. كان القسيس حامل الصولجان ينظر إلى مشهد تعذيب الراهب وهو جالس على مقعد الانتظار حيث كان مربوطاً، يتبول ويغوط على نفسه، يتقيأ ويغشى عليه، يفكر أكثر من مرة في المصير الذي ينتظره. لكنني لم أشاهد سلخه، فرقبته كانت تلك التي رأيتها مفتوحة نتيجة جرح عميق عندما هزّني رافا، لأعترف له بأن شعوراً كان يتملكني بأنني ما زلت أمسك سكيناً في يديّ.
لم أكن أبداً رجلاً عنيفاً، لكنني بذلك كنت أشعر بقلق مجهول يعيش بداخلي، وما زلت أشم رائحة الدم وأتذوّق طعماً مرًّا في فمي، الأمر الذي قد يساعدني أكثر للوصول إلى النقطة النهائية لكل ما كنت أعرفه من قبل، ربما لأنه كان شيئاً غير طبيعي ولا يمكن تخيله. وتذكرت أنني فكرت من قبل أن آنا يمكن أن يحدث لها شيء مثل هذا، إنه الشيء الذي يمكن أن يؤدي بها إلى الانتحار أو إلى محاولة

قتلي، من أجل أن توصف بعد ذلك بالمريضة، عبدة مضطربة بشخصية ازدواجية أو أي شيء من هذا. ورغم ذلك، في حالتها، كانت بالكاد يمكنها التحكم بنفسها، وهو ذلك الشيء الذي يفعله الإنسان دائماً، القتل والتعذيب بطرق أكثر وحشية، ومن المرجح أنه بسبب مشاهدتنا للأفلام الدموية أو أفلام الرعب في الوقت الحاضر، وكلما كان الفيلم أكثر عنفاً كان ذلك أفضل، فقط بعد تخيلنا لمشاهد مثل هذه لا نخرج في منتصف الشارع مستعدين لتنفيذها. «الأشخاص المضطربون وعندهم ازدواجية يبدون أكثر سوءا»، قال رافا. لكن لم تكن هناك حاجة إلى المرض لنطلق العنان لعنفنا. فقط إعلان ثورة، حرب، أو بيت حيث يبدو أن الخوف والكراهية يتمركزان فيه، على الرغم من مرور خمسمئة عام من الواقع الذي نحيا به.

ما زال رافا ينظر إليّ بحيرة، يحتسي قهوته، وأظن أنه كان أيضاً يتبنى دور العالِم المنافق معي وإن لم يكن كذلك؛ لأن راشيل عندما دخلت الغرفة ألقت علينا جميعاً تحية الصباح، إلا أنه هو فقط كان يوجه لها نظرة الاشمئزاز. آنا، من جهتها، تشعر بالخجل، لكنها ارتدت فستاناً كأنها ذاهبة إلى حفلة، تضع يدها بيد بابلو، تطلب منا المعذرة، أما أنا فعانقتني تلك المعانقة التي كانت عميقة ومصطنعة في الآن نفسه تذكرتُ عندما كنا في الكلية وجعلونا نقدم الاعتذار علناً لأننا ضربنا زميلاً لنا، وكلنا باستثناء بابلو، كنا أكثر خجلاً مثلها، كانوا ينظرون إليها كأنها مجرمة.

لكن أنا، الفضولي، شعرت بأنني أقرب إلى آنا من الآخرين، حتى من إيفا، التي يظهر عليها الخوف أكثر من قلقها عليّ، وأنا لا أفهم لماذا!؛ كما لو أنها مقتنعة بأن الشيء المقدر ملازم لها، ربما لأنها في داخلها تفكر تماماً مثل أخواتها، اعتقدت أننا مذنبين، وهذا كان العقاب المستحق الذي بدأنا بالفعل نعاني منه. أنا لم أتمكن من تجنب التفكير بـ «الممارسة غير الشرعية للجنس» بتلك التي كان يشير إليها رافا، فمشهد الجنس والعنف كان ممزوجاً بشكل تدريجي في دماغي. وجدت نفسي تائهاً، كما لو أن ذهني وجسدي سُحبا إلى مكان آخر مجهول، حتى لو تحركت من هناك. شعور يزداد سوءاً عندما سمعت راشيل قالت لرافا: «لقد جرحتني، هل انتبهت لذلك؟ لقد جرحتني». وبالتالي، كان رافا يقترب منها ليسألها عن الذي حدث، قال شيئاً جعلني أضحك بصوت عال:

لكن هل هذا ما جعلكم تعودون كالمجانين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كونجا

مجانين، نعم.

كانت كونجا قد جاءت لرؤية الحالة التي كنّا عليها؛ فقد كانت قلقة بعد عاصفة الليل، وفق قولها؛ لكنني سألتها من جديد عن السبب الحقيقي لقلقها. أول وصولها بدأت تعد الأشخاص المتواجدين داخل البيت. والآن؟ «كل الطرق الآن مقطوعة. وبالتالي ألن تخشوا على أنفسكم من العيش هنا؟»؛ كانت تقول. كانت قد ضحكت ضحكة خبيثة، رغم أن بيئة البيت كانت جامدة. وأما كونجا فكانت ترتدي اللباس نفسه الذي كانت ترتديه في اليوم الأول من مجيئنا هنا، فقط قامت بتغيير جوربَيها، حيث بدّلتهما بآخرَين بُـنِّـيَين، وكان شكلهما غريباً، وأثناء مرورها فوق الثلج، يخرج منهما قماش خفيف.

لكن لا تكونوا على هذه الشاكلة! جلبت لكم السجق والحلوى وكعكة الخبز «سالاديا»([13]).

كنت قد رميت كيساً بلاستيكياً تنبعث منه رائحة طعام من فوق عمود الخشب الموضوع بجانب طوب المنزل أحمر، كما لو أن أرضية المنزل تعتلي فوق الخصر، الذي يفصل المطبخ عن الصالون، وهذا كان كافياً لتعديل مزاج رافا، الذي تجرأ على سؤالها عن عائلة لوس توباريس، وعن ذلك الذي تحدث عنه صاحب المطعم.

هو ذلك التاريخ الذي حدثتكم عنه وبعد ذلك أصبحتم تنظرون إلى الأشياء بغرابة...

كنت أتحدث، وهي تنظر إليّ مستمتعة، على الرغم من أنني واصلت حذري من سلوكياتها منذ اليوم الأول منذ رؤيتي لها، ذلك الحذر الذي كان يعتليني كلما نظرتْ عليّ.

لا تقلق كان قد علق رافا هذا يرى دائماً الأشياء الغريبة. وإذا لم يشاهدها فإنه يعثر عليها في الكتب.

في الكتب؟ سألت كونجا.

ذلك لأنني صحفي رددت عليها، كأنني بذلك أشرح لها كل شيء. ولكن يبدو أن ذلك لم يوقع أي تأثير على كونجا.

صحفي؟ قالت، كأنها كانت تقول: «بائع أخبار؟» يظهر عليها العبوس، وعدم التصديق، أضافت: بالفعل...

قبل ذلك بلحظات، كنت قد قررت أن أحدثهم عن تاريخ المنفي، وإظهار الدور الذي لعبه دي روخاس في الحرب. ورغم أن رافا كان مستمراً بدعاباته، إلا أنه كان مفتوناً بتاريخ البيت. وبابلو، الذي حمَّل آنا مسؤولية ما حدث له، شتم الرحلة والزمن وأوخيار وشتمني أنا أيضاً، بأنني «كنت صاحب فكرة مجيئهم إلى هنا».

ترى حجم السعادة التي تغمرنا جميعاً.

لم يكن النقاش محتدماً أو طويلاً. وإيفا بشعورها المتحمس المعتاد، قالت من الأفضل أن نغادر، «قبل أن يحدث شيء بيننا»؛ القرار نفسه الذي تبناه مباشرة كل من راشيل وآنا، اللتين بدتا أنهما أخذتا الهوس نفسه في البيت.

ولكن ما الذي سيحدث؟ قلت لهن، بينما كنت أنظر إلى موقف إيفا، أكثر ما كنت أخشى العودة إلى حياتنا اليومية؛ لأن هذا ربما يعني قبول زواجنا.

لا تستحق عقاباً إذ إنكم تتشاجرون نهاية الأسبوع أجاب، دون أن يدرك أنني أنا كنت السبب فيما يحدث لنا. نلتقي في مناسبة أخرى وهذا كل شيء. عندما نكون كلنا أكثر هدوءاً.
وفي الحالة التي كنا عليها، عندما وصلت كونجا لتقول لنا إنه ينبغي علينا ألا نتحرك من هناك حتى يتحسن الطقس، الشيء الذي أسعدني كثيراً، لاسيما وأنني لا أمتلك أي نية لمغادرة أوخيار؛ بل على العكس، ليس فقط من أجل إيفا ولا من أجلي أنا نفسي. فأنا أرغب في اكتشاف أشياء أكثر حول بيت لوس توباريس، وكانت لديّ فكرة أردت القيام بتطبيقها، فكنت بحاجة إلى مساعدة شخص آخر، في المقابل، ما زلت أحتفظ بالمعلومات التي عندي، ولم أخبر أحداً بها.
نعم، يمكن أن تقول إنهم جُنّوا استمرت. لكن حتى ذلك الوقت، كنا نعيش حياة مليئة بالسعادة، وما حدث هو أنه في هذه القرية يوجد الكثير من الحسد، والكثير من الأشياء المبالغ فيها. الكبيران في السن تشير إلى الأخوين دون أنطونيو نشآ وترعرعا هنا دون أن يواجها أية مشكلة، وبعد ذلك درسا في ألميريا. كلاهما كانا صغيرين ولم يكونا متدربين بعد. أما تعليمهما؛ فقد تكلفت خالاتهما به، اللواتي كن قد تكلفن من قبل بتعليم والدهما أيضا.
لكن، ماذا حدث؟ سأل رافا بإلحاح.
أشياء للأطفال قالت كونجا. كانوا يلعبون...
كونجا، لا أعرف لماذا تنظر إليّ في هذه اللحظة، وشعرت برجفة. النظرة التي تدلل على اقتراحها: «وأنت تعرف هذه الألعاب، أليس كذلك؟». كان ذلك أقل ما فكرت فيه، ربما بسبب شخصية كونجا، بعيدة المنال في الوقت نفسه، كما أنها أظهرت لنا فخرها الغريب بتقاربها مع من تتحدث عنهم. وسمعت منها أشياء أعتقد بأنها تستحق أن تسمع: كانوا يقضون اليوم كله في اللعب كأنهم في حرب، تعرفون؟ حرب الموريسكيين والمسيحيين وأشياء كهذه. متأكدة أنهم كانوا يستمعون إلى خالاتهم، اللواتي كن يسرن دائماً مع تاريخ البيت ومع العائلة المشهورة التي كانت تعيش هنا لسنوات طويلة قبلهن. وبالتالي كان من الطبيعي أن يحمل الأطفال السكاكين.. وصناعة الأقواس معهن، وربط تلك الأقواس بالحبال من أجل أن يضعوا فيها الرماح... مات الطفل في حضن والدته. والسيدة كارمن لم تتمكن من تحمّله...
هذا كل شيء؟ سأل رافا.
نظرت إليه كونجا نظرة حادة، إلا أنها لم تشعره بأنها تلتفت إليه؛ بؤبؤا عينيها يتسعان، ليتحولا إلى رخامين مظلمين، وهو بلا شك التفكير بزمن الأشياء التي لا يمكننا نحن أن نتخيلها.
كل شيء؟ قالت متنهدة. وبعد ذلك أخذت نَفَساً عميقاً، واستمرت هكذا:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تاريخ لويس دي توبار

يقولون إنهم سمعوا أن دون أنطونيو كان طفلاً محظوظاً جداً، فقد ولد لأفضل عائلة كان يمكنها أن تُنجب، في زمن الجوع، الذي مات فيه نصف سكان القرية بسبب الأمراض الفظيعة التي سببتها الكوليرا. أبوه، دون خوزيه مارتينيث كما حدثوني، كان طبيب القرية، وكان قد قدم من مُرسيا من أجل الزواج من والدة دون أنطونيو، السيدة كارمن توبار. كان دون خوزيه مقاتلاً في الحرب الأهلية، التي هي أيضاً خربت هذه الأراضي، والسيدة كارمن كانت هي المرأة الموجهة لكل الرسائل. كانت هذه مسألة حظ، نعم، مثل الكثير من الأشياء، من خلال منافسة الكثير من الشباب الصبايا ممن كتبوا الرسائل إلى الجنود من أجل تعزيز الروح المعنوية فيهم.

كان الدون خوزيه رئيس دير الكرمل مورسيانا الذي كان في أوخيار علاوة على ذلك فإنه كان مسؤولاً عن دير الفرانثيسكان أوكلوه ببناء المبنى المهمش الذي يوجد الآن مقابل البيت، لكنه استطاع إقناعهم أهمية فكرته التي كانت بعد ذلك هذه القرية، حيث لديهم إقامة معلَمَين دينيين، كما أنه تحمّل مسؤولية تعليم السيدة كارمن، وحثّها على أن تكتب له رسائل باستمرار. رسالة تلو رسالة وشهر تلو شهر، الحب كان يتنامى بين المُعمّد والطالبة، وبمجرد أن أنهى دون خوزيه القتال، إذ إنه كان محظوظاً لقتاله بجانب الوطنيين، فرّ إلى أوخيار من أجل أن يكون الطبيب الجديد، ترك، كما يقولون، مستقبلاً واعداً جداً في أرضه التي ولد ونشأ عليها. كما أنه لم يكن سبباً في الخطأ الذي وقع هنا، لا يا سيدي.

وتزوجا على الفور، واستقرا في هذا البيت الذي اشتركا فيه مع أختَي السيدة كارمن، السيدة كونسويلو والسيدة مارتيريو، المؤمنة بقضاء الله وقدره، انتقل أبواهما إلى هذه القرية قادمين من قرية خورايراتار، ماتا قبل سنوات، أثناء رحلة إلى غرناطة «الحافلة التي كانوا يستقلانها، تعرفون؟ المساكين.. وتركوهما لي وحيدتين». في النهاية تنهدت كونجا بشكل عميق. مضى العام 1942. أكملت السيدة كارمن عمرها العشرين، تصغر السيدة كونسويلو بعامين والسيدة مارتيريو بستة أعوام، وبالتالي فإن مارتيريو هي المسؤولة عن الأختين الأصغر منها.

كانت سنوات صعبة، لكن دون خوزيه أثبت لنفسه وللآخرين أنه طبيب جيد، وأنه حاضر دائماً لتشجيع المرضى ومعالجتهم في أي وقت يستدعونه فيه. خصص غرفة واحد من الغرف القريبة على حديقة البيت القديم، ليتفاجأ الآخرون بأنه فضلاً عن كونه طبيباً جيداً، فإنه كان رجلاً جيداً، حيث إنه يساعد الناس المحتاجين للمساعدة دون أن يأخذ منهم أجراً. من دون شك كانت العائلة قادرة على تحمّل تكاليفه، فالسيدة كارمن وأختاها يمتلكن العديد من الأراضي، التي يستأجرها العديد من العائلات في المنطقة.

بعد أقل من عام من وصول والده، ولد دون أنطونيو، الذي كان مجيئه إلى هذه الدنيا فأل خير في زيادة الثروات. فسرعان ما سيدرك الآخرون أن هذا الطفل ولد وفي مؤخرته وردة[14]، ولم يكن عمر هذا الطفل عاماً واحداً عندما قام البعض بمحاولة قتله، هذا ما أعرفه، وما يعرفه أبواه أيضاً. انتهت الحرب، الكثير من الرجال كانوا يتخذون من الجبال مساكن لهم، بعضهم قال إنهم كانوا آخر المقاومين ضد الزعيم؛ وآخرون كانوا قطاع طرق، هذا ما أعرفه.

ما أعرفه هو أن سكان هذه الأراضي يعيشون على السرقة أو التسول، وعلى مساعدة بعض العائلات الجيدة الميسورة، يهربون باستمرار من عصابات القوميين الذين يمشطون دائماً الجبال. هم من

الخارجين عن القانون، الذين يُطلق عليهم اسم «المتمردون الماقيس»([15]) ، لقد تنقلوا بين جميع المناطق المتاخمة لمنطقة أوخيار وحتى أبعد من ذلك، من سفوح جبال نيبادا حتى رابيتا أو حتى أدرا. يقولون إنهم كانوا يعيشون مثل الحيوانات، وبعض الأحيان، عندما يضغط عليهم الجوع ويكون الشتاء أكثر قسوة ويعلمون أن مع تساقط الثلوج والبرد القارس لا أحد سيأتي للبحث عنهم، فينزلون إلى القرى المحيطة للتزوّد بالمؤونة التي تكفيهم، وإذا لم يأخذوها بمحبة، فإنهم يأخذونها بالقوة. في إحدى ليالي شتاء عام 1943م، وصلوا حتى هذا البيت نفسه. سمعوا ضربات قوية على الباب، وأمي التي كانت تعمل هنا، شعرت بارتجاف يهز جسدها من أخمص قدميها حتى رأسها. وخصوصاً عندما شاهدت البنادق المعلقة على أكتاف قطاع الطرق، وسمعت سؤالهم عن الدون خوزيه. «يذهبون إلى قتل السيد»، فكرتْ. وسحبوه أمام عينيها وجرّوه حتى التل، الذي تسكن فيه الكثير من العائلات الغجرية، وحيث يوجد المسؤول عنهم.

أمي التي كانت شجاعة جداً، تبعتهم دون أن تغطي أنفها بالمحارم، لأنه قيل لها إن الرجال المتمردين رائحتهم نتنة، ولم يغتسلوا منذ شهور طويلة، وبعد سنوات تيقنت من ذلك عندما عادت إلى سرد الحادثة ورائحة الزنخة المنبعثة من الحلق ما زالت موجودة عليها. وضعوه على ركبتيه أمام بيبو الأسود، الاسم الذي أطلق على قائدهم اللص، لا أعرف سبب التسمية، ربما لقذارته أو لحرارة جلده، الذي كان متشققاً بسبب تعرّضه الدائم للرياح ولشدة البرد، وأخبره بما يريدونه: الطعام، النبيذ والبيرة، والأموال.

دون خوزيه أراد أن يرفض، وجعلهم منشغلين بالتفكير، لكنهم استطاعوا التمكن منه وضربه بزوج من البنادق على رأسه ما تسبب في كدمات واضحة عليه. وبعد ذلك سُمع صراخ وبكاء الطفل أنطونيو، الذي صعد إلى التل وهو في حضن أمه. يقولون إنه كان يمتلك شجاعة السيدة كارمن التي تمكنت من إنقاذ الدون خوزيه، وحتى أن شجاعتها كانت مثار إعجاب بيبو الأسود، الذي عبّر عن إعجابه بالسيدة، فلا هو ولا رجاله تمكنوا حتى من لمسها، وهذا ما كان يعجبهم بها، فالمتمردون كانوا يقضون سنوات عديدة من دون نساء.

قالت السيدة كارمن إنها ستمنحهم كل ما يطلبونه منها إذا أطلقوا سراح زوجها، وهكذا وعدها بيبو الأسود بفعل ذلك. أرسل مع السيدة كارمن ثلاثة رجال يرافقونها حتى المنزل، حيث عادوا مع بغلتين والأكياس محملة عليهما. وأطلقوا بعد ذلك سراح دون خوزيه، ولم يروهم بعد ذلك أبداً. يقولون إن بيبو الأسود مات وحيداً، هجر رجاله، وخلا بنفسه في أحد الكهوف ومات هناك، مثل الهامة.

من شدة الخوف، لم تخطُ السيدة كارمن ولا الدون خوزيه أيّ خطوة في تلك الليلة، وربما ذلك ما سبّب للسيدة كارمن العجز في إنجاب الأطفال. نشأ دون أنطونيو على يد أمه وتعلّم على يد خالاته، ولأن الدون خوزيه كان دائماً يذهب إلى عيادته، فلم يكن لديه الوقت للاعتناء بابنه. نما دون أنطونيو ممتلئ الجسم، حيث كانت تغذيته جيدة، كما أنه سيكون رجل الحروف؛ لأنه كان يعشق دائماً قراءة كل شيء مكتوب يقع بين يديه. درس في كلية سايي في ألميرية، وبالتشاور مع خالاته، قرر دراسة القانون في غرناطة.

عندما بلغ دون أنطونيو عامه الثالث والعشرين كان أكثر المحامين شباباً في إسبانيا، وعندما كان يذهب للعمل في أي مدينة مهمة فإنه يقرر بعد ذلك العودة إلى قريته، التي يفتخر بها كثيراً، فهي التي تمثل أصله. حتى أنه قام بتغيير ترتيب عائلاته، حتى لا يفقد لقب توبار، ولكي يبقى ذلك اللقب ملازماً

له دائماً. وهذا لم يكن يهم كثيراً والده رغم أن ذلك يمس أصله نفسه. كان دون أنطونيو يمثل للخالات الابن الحقيقي لهن؛ حتى أنهن يحببنه أكثر من أبنائهن وحتى أكثر من السيدة كارمن نفسها، التي اكتفت بمنحه حب الأم، ليبدو أن حبه لخالاته شغل المكان الثاني في قلبه، لدرجة أنه يحبهن حباً لا مثيل له، وأكثر من أي شخص كان، السيدة كونسويلو والسيدة مارتيريو. كلتاهما كانت عانساً مثلي أنا. الأولى بسبب المهنة، التي كانت على وشك أن تكون راهبة، والثانية بسبب قرار القدر والموت.
الثانية كان عندها خطيب اسمه ألفريدو إيسبينوسا، تاجر ومن عائلة غرناطية جيدة، وبسبب أعماله التجارية خرج للبيع إلى قرية أوخيار. كان قد تعرّف على السيدة مارتيريو في سوق القرية، وقبل اندلاع الحرب بقليل كانا مخطوبين. ومن المؤكد أن عائلته لم توافقه على الزواج منها، لكن ألفريدو كان رجلاً مثالياً، وكان قد أقسم بالولاء للجمهورية، فدافع عنها حتى مات في معركة إيبرو، ترك السيدة مارتيريو مرمّلة قبل أن تكون فعلياً له، وهذا ما جعلها تغار من حظ أختها السيدة كارمن.
وبمشورة أختها السيدة كونسويلو، قررت السيدة مارتيريو أن تنغلق على نفسها داخل دير لعدة شهور، حتى أن الراهبات داخله لم يشعرن أن هناك امرأة مكرسة وقتها للصلاة والتكفير عن الذنوب.
بدأت الاشاعات تنتشر بين الناس مثل النار في الهشيم بأن هناك أشياء غريبة تحدث في الدير، وأن السيدة مارتيريو كانت امرأة مقدسة، حيث إنها تحلّت بالبركة وبتبادل الأفكار مع الله؛ وآخرون قالوا إنها كانت سعيدة بالألم والمعاناة داخل الدير، وإنها كانت على علاقة مع الشيطان. لحسن حظها، أنهم رأوها وهي جالسة في بيتها «لمعرفة ذلك الذي تعلمته هناك بين الكثير من النساء»، تراجعت كونجا كمن لا يرغب بالحديث عن شيء ما، وتغيرت فكاهتها بلا ريب عندما ولد دون أنطونيو، وبالتالي فإن السيدة مارتيريو قامت بتبنّيه كأنه الابن الذي لا يمكنها إنجابه.
توفّي دون خوزيه بسكتة قلبية، كان رجلاً صالحاً، ومع نشأة دون أنطونيو نشأة كاملة، عاشت السيدة كارمن منعزلة في غرفتها، وعندما اكتشف ابنها أنه حقيقة من عائلة توبار، أصبح سيد هذه الأراضي. جاء الناس من كل المناطق ليطلبوا منه المشورة، ولم يكن هناك أي عمل ينتهي من دون إشرافه أو حتى من دون موافقته. كان عمره حينها 27 عاماً فقط مضى عام 1968 أو 1969، أتذكر جيداً، على الرغم من أنهم كانوا يقولون إن البشرات في الحقيقة لا يمضي فيها الزمن، وقالت له خالته مارتيريو إنه حان وقت الاستقرار، وإن أمه وهنّ يحببن كثيراً أن يشاهدن الأطفال يركضون حول البيت. وبالتالي فإنَّ الطفلة الوحيدة التي كانت قد ولدت في هذا البيت نفسه كانت أنا، ساعدت والدتيبحمد الله وفضله!! والدون خوزيه، الذي هو الآخر ساعدنا عندما ولد أخي، الذي كانوا ينظرون إليه بأنه الفقير، آآه!! تنهدت كونجا من جديد.
كثيرون يمكنهم الحديث عن شجاعة والدتي، التي عاشت في البيت الذي تركته السيدة كارمن، أبي غادرنا عندما كان عمري أربع سنوات ليذهب مع عاهرة في ألمرية. هذه حكاية لا تهمكم كثيراً. ولكن نعم، يمكن أن أقول لكم إن من أسوأ اللحظات تلك التي حضر فيها أخي لا أعرف السبب وراء تعظيمه لوالده، بقي كما هو الآن، أفضل مني!!. القضية هي أن دون أنطونيو لاحظ في ابنة عمه من خورايراتار أنها مثل أمه، اسمها هي الأخرى كارمن، وهي المرأة التي كانت أكثر طيبة، طيبة لم أرها من قبل في أي إنسان أعرفه، حتى أنها أكثر طيبة من حماتها.
كانت مثل الملاك، نعم سيدي، بشعرها الأشقر وعينيها الواسعتين، وجلدها أبيض مثل الجير الموجود على هذه الجدران. كان عمه نفسه الدون كارلوس من قدَّمها إلى ابن أخيه، يقولون إن فكرته الوحيدة هي تحسين وضعه الاجتماعي. أما الذي حدثٍ فهو أن دون أنطونيو لم يعد مهتماً بهذا الموضوع،

وكان يكتفي برؤيتها من أجل أن يجعلها غوراً في قلبه، وآخر في غرفة نومه. كان زواجاً متكاملاً في كل ما فيه، حيث دُعي إليه نصف أهل البشرات، حتى أن ساحة القرية أصبحت مثل قاعة كبيرة تضم المدعوين، وما زال يمكنك أن ترى طاولات الخشب الطويلة المغطاة بالأغطية المنسوجة، وعليها عدد كبير من الأطباق والأواني المختلفة، التي يحتاجون إليها لتناول الطعام، بالإضافة إلى عدد من أباريق الخمرة التي لا يتناسب وجودها مع هذه الغرفة.

كان من الممكن أن تكون السيدة كارمن سعيدة جداً بزواج ابنها، ليعاجلها الموت قبل ذلك بأسبوعين، كانت ترى في كارمن المرأة المتعلمة التي ينبع منها الاحترام، وفكرت أن ابنها سيكون معها سعيداً في البيت نفسه، فهي أكثر شباباً وجمالاً، وربما حان الوقت لتخبره بكل شيء. مثلما حدث مع السيدة الأولى كارمن، لم يمر العام عندما ولدت ابنها الأول، الذي أخذ اسم جده خوزيه. وقد كانت خالات دون أنطونيو يخشين أن يحدث مع كارمن الشيء نفسه الذي حدث مع أختهن وأن هذا الطفل سيكون ابن أخيهن حفيدهن الوحيد، عندها وصل خبر أن السيدة كارمن حامل من جديد. أصبح لديها أربعة أولاد، فارق العمر بينهم أقل من سنتين: خوزيه، أنطونيو، خابيير ولويس أصغر واحد بينهم، ليبدو أن بطن السيدة كارمن بدأ يجف أيضاً.

خوزيه وأنطونيو يشبهان والدهما. نشآ بصحة جيدة، فكان جسداهما مفعمين ممتلئين، ودائماً كانا قلقين من أجل الدراسة. ولأن اهتمام خالاتهما في تعليمهما كان قليلاً، فقد ذهبا للدراسة في مدرسة سايي في ألمرية، المدرسة نفسها التي درس فيها والدهما. أما خابيير، فقد كان في رحمة الله، وأما لويس فقد كان كل شيء له مختلفاً. لم تكن الخالات يحببن الأخوين الكبيرين حباً خاصاً، لكن لويس فنعم؛ حيث إن السيدة مارتيريو كان تنظر إليه نظرتها إلى والده دون أنطونيو، فسرعان ما كان الاعتناء به أكثر من غيره.

كان لويس رغم صغر سنه قوياً ومهيمناً على الآخرين، وعندما كان يتملكه الغضب كان يخشاه إخوته، حتى خوزيه الذي كان يكبره بخمس سنوات. كان شعر لويس أسود ومجعداً، وعيناه سوداوين، فهو مختلف عن باقي إخوته، وكأنه لا يبدو ابناً لأمه. خوزيه وأنطونيو كانا خليطاً يشبهان تقريباً والدهما، فخوزيه كان شعره كستنائياً وعيناه بنّيتين مثل والده، أما أنطونيو فقد كانت عيانه زرقاوين تميلان إلى الخضرة مثل أمه؛ لكن لويس لم يكن يشبه أي واحد فيهما، لا والده ولا أمه. يقولون إن في خوايراتار كان هناك بعض من نسل توباريس يشبهونه: داكن البشرة، عصبي، إرث لمن يعرف من أسلافه.

أما خابيير فقط كان من جهته صورة مطابقة لأمه: الشعر الأشقر، العينان الواسعتان، البشرة البيضاء، حتى أن شرايينه تظهر على وجهه وجسده، حتى يظهر للعيان بأنه مريض. والحقيقة أنه عندما كان طفلاً كانت صحته هشة، وشخصيته ضعيفة، لا أعرف إن كنتم تفهمونني أنا فهمتها من المرة الأولى، ربما لأجل ذلك أصبح محط اهتمام السيدة كارمن، فقد كان عينها اليمنى كما يقولون، مثلما كان لويس العين اليمنى للسيدة مارتيريو. وفجأة، نشأت بين الأخوين علاقة خاصة. يبدو أن خابيير كان يشعر بأنه الأخ الأكبر، كان يشعر بهيبة أخيه الذي يصغره، أكثر قدرة وأكثر قوة، وقريباً سيكون بينهما نوع من المنافسة. عاش كلا الأخوين في عالم منفصل ولا يشترك في أي شيء مع عالم الأخوين الأكبر منهما، ولعل عامل الفصل بينهم كان بسبب دراستهم من جهة، وطبيعة الحياة التي يعيشونها من جهة أخرى.

على عكس خوزيه وأنطونيو، فإن خابيير ولويس كانا يمضيان الكثير من الوقت مع أطفال القرية، يشاركانهم في ألعابهم ومشاجراتهم. كان لويس يتمشى دائماً في الجبال والحقول، مثل حيوان بري، وأخوه خابيير يتبعه حيثما كان، على الرغم من أنه كان يقضي يومين في السرير أو يعود وجسده مليء بالكدمات والخدوش.
كانت لدى لويس موهبة فطرية تتمثل في رميه الدقيق للحجارة، حيث كان «صوَّابا»، وكان يستخدم هذه الموهبة ضد كل الأشخاص الذين يحاولون أن يُلحقوا به أذى، ولمهارته في قنص الآخرين بالحجارة، كان الأشخاص الذين يحاولون إلحاق الأذى به عندما يرونه يحمل حجارة يفرون مسرعين خوفاً من أن يقنصهم. ليكون الطفل أسوأ من الألم، وعندما كان عمره ست سنوات، كان يصنع قوساً من غصن شجرة الزيتون ويربطه بسلك وهذا ما سبّب رعباً لأطفال القرية. لأنه كان يضرب به القطط والكلاب ما يتسبب في عور عيونها، وعندما لا يستخدم قوسه ويكون خالياً من السهام، يعلقه على أي شجرة قريبة منه.
لكن لأنه كان ابن دون أنطونيو، لم يكن أي أحد قادر على الحديث معه بأي شيء، ولويس الذي يبدو أنه كان يتمتع بقدرته على بث الخوف بين الآخرين، كان يتجول في القرية براحته، وكان يزرع الخوف في نفوس الأطفال وحتى في نفوس آبائهم أيضاً.
أما الفقير خابيير، الذي كان في رحمة الله، كان عكس أخيه لويس تماماً، فإنه كان يخشى رؤية الدم. فقد كان يقام في منزله الاحتفال بالذبائح، لكن مرة واحدة وفي يوم ما انسل مني فجأة وشاهد كيفية ذبح الخروف، الذي كان قد أهداه الجزار إلى دون أنطونيو قاطعاً رأسه أولاً، ثم تركه ينزف بعد ذلك ثم نظفه وقطعه في حديقة المنزل، وهناك نجد خابيير واقفاً للحظات، ينظر إلى كتل اللحم المعلقة والملطخة بالدماء، يرتجف من شدة الخوف على الرغم من أننا كنا في فصل الصيف. ثلاثة أيام بعد ذلك، لم يستطع فيهما خابيير النوم، فقد أصابه المرض.
عندما استعاد خابيير عافيته من جديد، بدا كأنه بحاجة إلى ردة فعل يعيد فيها ذاته، فكان من دون شك بحاجة إلى رؤية أخيه لويس، الذي عندما علم بما حصل لأخيه خابيير قام يوماً بعد آخر بإحضار الحيوانات الميتة ووضعها عند حافة سريره. وجد في الصباح الباكر حمامة ميتة وفأراً أو قطة، وربما كان خائفاً من أن يتعالج خابيير، ذلك الذي لم يكن سيحدث مع طبيب القرية الجديد دون جاثينو من غير المفيد أن نقارنه بدون خوزيه، الذي كان يقول دائماً إن مرضه كان شيئاً نفسياً، وإنه لا يستطيع أن يفعل له شيئاً.
مع حالته النفسية، كنت قد قبّلت رأسه، إلا أن القس دون ماتياس لم يستطع التخلص من أذى لويس، الذي يبدو أن لديه اشمئزازاً من كل ما له علاقة بالدين والكنيسة، وهذا ما أقلق السيدة كونسويلو. كان لويس يقوم بتكسير زجاج المعبد بشكل مكرر مع طلوع الفجر، وأيضاً كان يرمي بيت القس بالحجارة، حتى أن القس كان يجد أمام باب بيته عدداً من جثث الحيوانات الميتة، والحشرات والزواحف الضارة.
جاء القس دون ماتياس عدة مرات إلى السيدتين كارمن وكونسويلو، إلا أنهما لم يقدما له أي تفسير يُذكر لسلوكيات لويس. ربما يمكن أن يجد جواباً شافياً عند السيدة مارتيريو، لكنها منذ أن ذهبت إلى الدير ولأن حديثها كان جارحاً فقد حافظت على علاقة بعيدة مع القس، وعندما قدم إلى بيتها، وبينما كان يتحدث مع أختها، حبست نفسها في الغرفة. كان لكل واحدة من الأخوات سكنها الخاص حتى وإن كنّا يسكنّ تحت سقف واحد تذكرت المسار الذي سلكناه للوصول إلى المنزل، الشقق في كل جانب من

الطابق الأول، مع حمامات ومطابخ، وهذا ما تمنينه بأن يكون بإمكانهن الحفاظ على استقلاليتهن عن باقي العائلة.
في الواقع، لم يكن غريباً أن تقوم السيدة مارتيريو بحبس نفسها داخل سكنها عدة أيام، ولم يجرؤ أي أحد على إزعاجها، من دون معرفة ما تفعله بالضبط في الساعات التي كانت تخلو فيها مع نفسها. جدران غرفتها الخاصة بها مغطاة برفوف مليئة بكتب التاريخ والدين التي أحضرتها ذات يوم من غرناطة، وكانت كل هذه الكتب مكرسة لدراستها وصلواتها، وكما قلت سابقاً، فإن الكثيرين قالوا إنها كانت على علاقة مع الإله، وأنا رأيتها تفعل أشياء تجعل شعر الرأس واقفاً. أووه!! صرخت كونجا فجأة ليجعل صراخها شعرنا يقف من الرعب، لتطلق بعد ذلك ضحكة وتستمر بالحديث دون أن تتركنا نقبض على أنفاسنا.
الغريب أن الشخص الوحيد الذي سمحت له بالدخول إلى غرفتها كان لويس، الوحيد الذي سار معها معطلاً عليها ممارسة عاداتها اليومية والركض في الجبل، تاركاً خابيير في حالة من الكآبة والحزن والقلق. على الرغم من أنني متأكدة أن السيدة كارمن لم يعجبها شيء من هذا، إلا أنها لم تجرؤ على قول شيء لخالة زوجها، خوفاً من دون أنطونيو نفسه، الذي كان يحترم السيدة مارتيريو منذ طفولته، ولا يناقضها في أي شيء أبداً.
من جهتها، السيدة كونسويلو كانت تسير مشوشة، تخرف مع نفسها، وهي ما زالت شابة، تفكر كل يوم في الله وفي الراهبات، كانت تضحك فقط عندما تتذكر شرور لويس، تفكر في ضعف خابيير ومخاوف ابن أختها. ذات صباح عثرنا على السيدة المسكينة ميتة مثل طير، ترقد على سريرها، والمسبحة في يدها، وهو اليوم نفسه الذي أكمل فيه لويس ميلاده الثالث عشر، كما لو أن المصائب كانت مرتبطة به بطريقة ما. هذا ما كانت تفكر فيه السيدة كارمن، وحتى السيدة مارتيريو، التي كانت حالتها شبيهة بحالة السيدة كونسويلو؛ فقد كانت أكثر من وقف بجانبها عندما فقدت خطيبها في الحرب. منذ وفاتها لم تترك السيدة مارتيريو لويس وحده لا في الشمس ولا في الظل.
ألقي على المسكين فتيلاً هذا ما قالته كونجا بمرارة، واضعة يديها على رأسها، لكنه لم يفعل شيئاً سيئاً لأحد. كانت السيدة مارتيريو هي من عثرت عليهما في القبو، الأول ميت والثاني كان ما زال يحمل سكيناً في يده. والباقي تعرفونه: لم تستطع السيدة كارمن الوقوف، وذهبت بعد ذلك بفترة وجيزة مع ابنها إلى القبر. دون أنطونيو كان ناقماً على حظه، تاركاً هذا البيت إلى الأبد، تركني وحدي برعاية السيدة مارتيريو. هذا هو «كل شيء» للرد على ذلك السؤال أضافت موجهة وجهها تجاه رافا.
وهكذا أنهت حكايتها: مع شعور العجوزين بالوحدة. الطفل مات في حضن أمه. والسيدة مارتيريو ماتت في حضني بعد ذلك بستة شهور. لم يأت أحد من أفراد أسرتها من أجل دفنها. في هذا البيت فقط كان الموت يتبعه موت آخر. وهذا ما كانوا يقولونه، وهذا ما سمعته، وما أنتم تسمعونه. ومَن لديه آذان ليفهم، إن فهم، السعادة في أعينكم لأنكم ترون، وسمعكم لأنكم تسمعون».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللويسيون الثلاثة

فاجأتني طريقة حديث كونجا. من ناحية، تنقل انطباعاً بأن الأحداث التي روتها ستؤثر عليها بعمق، كأنها تقصد بذلك عائلتها نفسها، التي من دون شك كانت تشاركها حياتها لسنوات كثيرة؛ لكن، من ناحية أخرى، ربما بسبب السواد الذي يحيط عينيها المتلألئتين وهذه طريقة تجعّد الوجه كله أثناء الحديث، وفي الوقت نفسه بدت كأنها سعيدة، أو حتى أنها نفسها كانت لها علاقة بشيء ما بما كان يحدث.

بعد أن روت الحكاية، كانت منهمكة، تلتفت إلى قماشها، كأنها ترغب في فك شيفرة حدث آخر في الثلج الذي بقي على باطن حذائها.

ماذا قلت اسمه؟ سأل رافا.

مَن؟ الطفل؟ ردت كونجا، وعادت قائلة:

خابيير.

هذا هو الذي مات؟

نعم.

ومتأكدة أن لويس هو الذي قام بقتله؟

لم يكن هناك أحد معه أكدت كونجا هو لويس من قام بذلك.

ينظر إليّ رافا ويضحك، ولكن فاجأتني كثيراً إجابتها أكثر من أي شيء آخر. كنت أتوقع أن يكون العكس. وأن تقوم كونجا برواية أحداث أكثر، قرون مرت، تاريخ المنفي، مع لويس دي روخاس الذي كان ينزف في حضن أمه. على الرغم من أن الوصف الذي روته كونجا حول لويس دي توبار كان عبارة عن صورة دقيقة للويس دي روخاس الذي تخيلته.

صورة دقيقة لي أنا نفسي، أنا، لويس دي هارو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحديقة

شوينا في مدفأة كونجا نقانق لحم البقر ونقانق لحم الخنزير المجفف (المورثياس)، وشربنا النبيذ من البرميل الخشبي الذي جلبناه معنا من بيدآنا، تغير المزاج بشكل عام، كما لو أننا مررنا عبر نفق صغير، رغم أن مزاجي بعد الأحداث الأخيرة كان يُرثى له، لدرجة أنني كنت أشكك في كل شيء أفعله شيء ما في داخلي يثيرني لأنظر فيما داخل كل شيء مغطى، أن أنظر إلى ما وراء الزجاج؛ لمعرفة ما في داخله، حديث الآخرين، أو السماع إليهم، كما لو أن كل شيء يحتفظ بمعنى خفي ومقرر، ولا أعتقد أن الأمر سيكلف الكثير لأي من أصدقائي ليجعلني أشك في وجودي.
ولذلك، خرجت إلى الحديقة بينما كان رافا ينتظر شيء ما قال لي إنه كان على علاقة براشيل كان قد وافق على الذهاب معي من أجل جلب الحطب من البيت القديم، الذي أردت أن أتفقده هي الكلمة التي كنت أستخدمها في النهاية. ولو لم تكن جذوع الأشجار ظاهرة، والتي كانت مثل الفطر الخطير بقبعات بيضاء، ليمكننا القول إن الحديقة كانت قد اختفت، واستبدلت ببركة فيها مجسم يخرج منه الماء، كأنه حيوان مدفون في الثلج.
الحديقة كانت تقريباً رباعية الزوايا، تواكب مسار الشارع الفرعي بُني جدارها طولياً، فكان مرتفعاً، بينما كان الشارع ينحدر باتجاه القرية، لذا فإن كل من ينظر إلى البوابة المبنية في ذلك الجزء يمكنه رؤية ذلك الجدار من مسافة أربعة أمتار، وحوله نجد بعض البيوت القريبة منه من الخلف أو في الجانب الأيمن المناظر الجميلة، من بوابة الحديقة أو من الشرفات العليا لبيت لوس توباريس.
غرق حذائي داخل نافورة المياه الباردة، ومع ذلك ارتديته من جديد وتجولت داخل الحديقة، ألتفت إلى أشجار البرتقال والليمون المورقة، وهذا ما دعاني إلى الاستظلال في ظلها لأقي نفسي من أشعة الشمس. رأيت نساء يعملن في الحرير الأزرق، ويقمن بجمع الليمون والبرتقال ووضعه في سلال من القش.
البيوت كانت مختفية، أنظر إلى الجبال التي كانت ظلالها تغلف الحديقة والوادي بأكمله، كما لو أننا محبوسون في حفرة كبيرة. أمي تنسج بجانب نافورة المياه، تجلس على مقعد مصنوع من الخشب، وبعض التجار جاؤوا محملين بالحزم يبحثون عن أبي، الذي رحب بهم وقدم لهم النبيذ والتمر، وطلب منهم أن يخبروه عن أخبار المملكة.
من حول نافورة المياه وحتى باب الحديقة كانت هناك كرمة عنب ممددة، جذوعها متساقطة على الأرض، معلقة على سيقان سميكة، فكانت مثل نبتة معرشة. تمر الشمس من خلال أوراق الأشجار الخضراء اليانعة والعريضة، ومن خلال ثمار الفواكه التي تعكس اللون البنفسجي الشبيه بألوان الملابس وجلد عبيدنا الذين يعملون في المهام الموكلة إليهم داخل الحديقة، يحملون أكياس القمح والشعير إلى داخل البيت أو إلى الإسطبل. «كانوا يعيشون بسعادة هنا»، كنت أفكر وأتحدث مع نفسي!!.
ظهر أسفل قدمي الثلج الأبيض، بلون رمادي مائل إلى الزرقة، كان بارداً جداً أكثر من ذلك الذي يهطل في وقت متأخر، كان فيه شيء من قبر، من حياة الماضي المسحوق أسفل طبقات وطبقات من الأرض وموطئ القدم عليها، من الكفن الذي أرادت العثور عليه مع مادة بيضاء شبيهة بالسماء.
أدركت كم من السهل ألا أكون شيئاً، أن أختفي، أو ربما أكون آخر، الذي ينبع منه المشهد، البيت، الزمن، وآخر الذي يحقق ذلك المشهد، البيت وأنا نفسي لم أكن أكثر من انعكاس لوجوده.

سمعت من جديد صوته، من داخلي «أنا نائم بينما قلبي يخفق، أنا نائم، لكن قلبي سيستيقظ فيك» الكلمات الملتهبة التي روت زمانه وحياته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القادة الثلاثة

الثورة والحرب الحمراء 1568-1570()

تجمَّع حشد في ساحة صغيرة في غرناطة، وتحديداً في الساحة التي توجد بين «الكنيسة الملكية» وقبر الملكين الكاثوليكيين و«منزل المدينة»، والأزقة التي تقود إلى «الزاقتين» وإلى الساحة الجديدة وإلى البيازين وإلى ساحة باب الرملة.

جلب التجار معهم هذا المساء أخباراً مربكة، جعلت الناس، الموريسكيين والمسيحيين يتجمهرون في الساحات والشوارع، حيث تمتزج رائحة عرقهم برائحة التوابل المنبعثة من محلات بيعها على الطرقات. فجأة انفتحت الجماهير، عمدة المدينة قادم، يمكن التعرف عليه من قبّعته المليئة بالريش ومعطفه الأسود القصير، يَعْبُر راكباً حصانه إلى ساحة باب الرملة، يصعد من شارع الزاقتين وصولاً إلى الساحة الجديدة، متخذاً الاتجاه الذي يؤدي به إلى تل الحمراء. أعقبه ضجيج الخوذات في المنحدر، ويبدو أن أغصان الأشجار بدأت تتفتح، ترددوا في الاندفاع والانقضاض عليه. حولهم الحصون الحمراء شامخة، الأبراج العالية التي ينظرون من خلالها نحو المشهد غير القابل للتغيير. مثل مشهد الميكانيكا الكونية، التي أعاد الله تركيبها للتو.

الفارس هكذا ينادونه اعتقد أنه سمع تكسر الجذوع وانفجار خشب الصنوبر. هل هي الأذرع التي تشكلت من أجل إحضارها إلى القصر؟ العرق يبرد، يتحلل على ملابسهم، حتى أن الجبال تنظر إلى أرقهم، تسلّقوا فوق الحمامات الخلفية على وجه التحديد؛ للوصول إلى باب الإسبلانادا([16])، حتى أن الفارس عاد يلتفت فيما بين يديه وفي المفتاح الذي معه، يتلو التعويذات المادة والروح التي تحميه قبل أن يكون مندفعاً بداخله، كما لو كان فماً حجرياً قد لقم شيئاً وانفجر، بووم.

في القصر العربي، في صالون السفراء حيث جلس الكثيرون: محمد بن الأحمر الأول، ومحمد الأمير الثاني، وأبو عبد الله محمد الثالث «الأعمى»، ابن جوهر نصار، أبو وليد إسماعيل، مولاي أبو عبد الله محمد الرابع، يوسف الأول أبو حجاج بن إسماعيل، ومحمد الخامس بن إسماعيل بن فرج، وإسماعيل الثاني بن يوسف، وأبو سعيد، ومحمد السادس بن يوسف بن إسماعيل، وأبو عبد الله يوسف الثاني، ومحمد السابع، ويوسف الثالث، ومولاي محمد العاشر الهايزري (في المرة الثانية)، ويوسف الرابع محمد بن الأحمر النيار، ومولاي محمد السادس الهايزري (في المرة الثالثة)، ومحمد الثاني عشر ابن عثمان، وابن إسماعيل الثالث، ومولاي علي أبو حسن، وعبد الله الزغل، ومحمد عبد الله الصغير (بوعبديل)، كل ملوك غرناطة التقوا بماركيز دي موندیخار، القائد العام في غرناطة، طويل القامة، كتفاه عريضتان، ورأسه كبير الشعر أسمر وسميك، يرتدي لباسه الخاص، معلقاً على وسطه سيفه القتالي الواسع.

وكان معه أيضاً دون بيدرو دي ديثا، رئيس محكمة العدل الإسبانية، كان نحيفاً وعظام وجهه بارزة، شعره طويل وكستنائي يصل حتى كتفيه ليغطيهما بالكامل، وهذه من عادات رؤساء المحاكم والأساقفة؛ والسيد دون هيرناندو دي مونتويا، كبير المحققين، رجل خطير وكبير في السن، وجهه قاس وتظهر بعض التجاعيد على رأسه الأصلع، مع ظهور بعض الشعر الأبيض، ومعروف

بصلابته في المعابد، كان يرتدي ثوباً مخملياً أسود، يضيء وسطه الصليب الأحمر الخاص بمحاكم التفتيش، يرافقه بعض الفرسان المشهورين وبعض الإقطاعيين.
على الواجهة الرئيسية، على منصة العرش تذكرت عصراً آخر تعلق لافتة حمراء ذات وجهين، مزينة بسلاح الملكين الكاثوليكيين، التي تركوها كعهدة للمدينة. يتحول الحجر الذي داسوا عليه إلى فسيفساء موضوعة في الجدران، وفي الأقواس التي تفتح الشرفات على حي البيازين، في سماء مرصعة بالنجوم على الرخام حيث كانت مجزأة ومنحوتة على الجدران والأقواس، تقرأ هذه الأبيات:

أنا الرَّوض قد أصبحت بالحسن حاليا
تأمّلْ جمالي تستفد شرح حاليا
أباهي من المولى الإمام محمدٍ
بأكرم مَنْ يأتي وَمَنْ كان ماضيا
ولله مَبناي الجميلُ فإنّه
يَفوقُ على حكم السُّعودِ المبانيا
فكم فيه للأبصار من متنزِّه
تُجِدُّ به نفسُ الحليم الأمانيا
تبيت له خمسِ الثريا مُعيذة
ويصبح مُعَتَلٌّ النّواسم راقيا
به القبّة الغرّاء قلّ نظيرها
ترى الحُسن فيها مستكنًّا وباديا
تَمُدٌّ لها الجوزاء كفّ مصافحٍ
ويدنو لها بدر السّماء مناجياً
وتهوى النّجوم الزّهر لو ثبتت بها
ولم تك في أفق السّماء جواريا
ولو مثلت في ساحتيها وسابقت
إلى خدمة ترضيه منها الجواريا
ولا عجبٌ أن فاتت الشهب في العلى
وأن جاوزت فيه المدى المتناهيا
فبين يدي مولاي قامت لخدمة
ومن خدم الأعلى استفاد المعاليا
بها البهو قد حاز البهاءَ وقد غدا
به القصر آفاق السّماء مباهيا
وكم حلّة جلّلته بُحليّها
ومن الوشي تُنسي السّابريّ اليمانيا
وكم من قسيّ في ذُراه ترفعت
على عمدة بالنّور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيُّها
تُظلٌّ عمود الصّبح إذ لاح باديا

سواري قد جاءت بكل غريبة
فطارت بها الأمثال تجري سواريا
به المرمر المجلوُّ قد شفّ نوره
فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخالها
على عظم الأجرام منها لآليا
فلم نر قصراً منه أعلى مظاهراً
وأوضح آفاقاً وأفسح ناديا
ولم نر روضاً منه أنعم نضرةً
وأعطر أرجاء وأحلى مجانيا
مُصارفة النقدين فيه بمثلها
أجاز بها قاضي الجمال التّقاضيا
فإن ملأتْ كفَّ النّسيم مع الضّحى
دراهم نورٍ ظلّ عنها مكافيا
فيملأ حجرَ الرّوض حول غصونها
دنانير شمس تترك الرّوض حاليا
وبيني وبين الفتح أشرف نسبة
وحسبك منها نسبة هي ماهيا([17])

لا شك أن أخطاءنا في الحكومة هي التي قادتنا إلى هذا الوضع قال موندیخار
هل يجب أن نسمح لهؤلاء الكلاب بأن يصعدوا على لحانا، الذين ألغى جلالته مراسيمهم، الذين أخرجوا قلوبنا بأفواههم؟ رد دون بيدرو دي ديثا بدهاء. ولا حتى بعد تعميدهم تركوا عاداتهم. هم الدود الذي سيفسد التفاحة، أوكد لكم، أن المدينة بل والمملكة كلها يتعرضان للخطر. هل تعلم أننا ألقينا القبض على تاجر اسمه داوود ومعه رسائل من أجل أن يرسلها إلى الأتراك؟ ولكن من حسن حظنا، أن ذلك الرجل لم يأخذ قارباً، بل قام باستئجار زورق صغير من صياد، الذي ذهب إلى سيده خينيس دي لا رامبلا وأعلمه بما حدث، ليكون على علم بما يحدث، فجاءته فكرة مهمة بأن يقوم بثقب الزورق، وتعطيله بعمل الثقوب بالشمع؛ حتى يغرق ويسهل علينا إلقاء القبض عليه. ولو لم يكن ذلك السلوك نابع من مسيحي مخلص، لكان داوود قد وصل إلى الجزائر العاصمة، وتمكن من إيصال الرسائل إلى القادة الأتراك هناك. إلى هذا يقود تسامحك.
ما أريد أن أقوله هو أن الاضطرابات يجب أن تهدأ. لم نكن قد وصلنا إلى هذا الوضع لو امتثلوا للمعاهدات التي وقعت مع آبائنا وأجدادنا؛ لقد عشنا مع بعضنا البعض لسنوات عديدة من دون أي مشاكل.
ألم تكن هناك مشادات في البيازين؟ تدخّل السيد مونتويا . أليست السمرا «الموسيقى الخاصة بهم» وفضائحهم وخرافاتهم وطقوسهم عامل الاضطراب بالنسبة إلينا؟ في كل مرة نعرض أكثر من دليل على ذلك، استهنَّا معهم فأهانوا رؤساء الأساقفة والجنود، التفاخر بأنه قبل الواحد والثلاثين من شهر ديسمبر سيكون هناك «عالم جديد». ما دلالة هذا الكلام، أليست الصحوة؟

أنا أوكد لكم قاطعه ديثا أنني لن أتخلى عن ممارسة القسوة ضد الخيانة.
وأنا لن أكون ضد معاقبة الخائن رد موندیخار؛ أقول فقط أنه ينبغي علينا أن نتروى بالحكمة، وأن نعاجل في دعوة قادتهم إلى مصافحتنا قبل أن تسفك الدماء.
في هذه اللحظات سُمعت ضجة أمام أبواب الصالة، رئيس الأساقفة كان قد وصل للتو إلى القلعة بحصانه، فُتحت له الأبواب، ليمر بين جنود الحماية الموجودين هناك.
سيدي، سيدي!! يصرخ ويوجه كلامه إلى الماركيز . البشرات تثور بالسلاح. قاموا في هذه الليلة في قادش بقطع رؤوس خمسين جندياً بالإضافة إلى قتل القائدين ديغو دي هيريرا وخوان هورتادو، الفارس المعتاد لسانتياغو. جندي واحد فقط استطاع الإفلات من تلك الهجمة وأخبرنا بذلك أثناء وصوله إلى ساحة باب الرملة، لينتشر الخبر كافة أرجاء المدينة.
هناك دمكم!! قال دون بيدرو دي ديثا.
كان وجه الماركيز دي موندیخار أحمر من الغضب الشديد؛ بسبب موقف رئيس الأساقفة من تلك الأخبار، وأنه للأسف كانت أخباراً تؤيد رؤيته وقراراته.
تمردوا ضدنا؟! صرخ، كأنه ما زال غير مصدق ما حدث. احموا المدينة مع الأساقفة، دون بيدرو أضاف مصراً، أنا سأواجههم مع جيشي. هم مَن دفعوا أنفسهم إلى الموت والهلاك. إن الله سيكون معنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البيازين

هذه الليلة نفسها، التي دخل فيها ابن فرج وابن نصار إلى حي البيازين من خلال باب غواديش مع مئتي رجل، مستعدين لمهاجمة المدينة. ابن فرج كان في حالة من النشوة، يشجع رجاله على الغناء والعزف على المزمار من أجل أن يدعوا إلى الإيمان بمحمد. كانت تلك الفترة فترة أعياد الميلاد، فكان معظم الجيران مغلقين على أنفسهم الأبواب ويجلسون في بيوتهم. خططهم كانت تقوم على بث الحماس في نفوس سكان البيازين وبيكا، والسير معهم باتجاه الحمراء.

الشوارع كانت مظلمة، والسكون يعمّ المكان، بالإضافة إلى رطوبة الشتاء في الليل تجعلك تخشى التزحلق من على المنحدرات، ما يؤدي إلى فضح كل الذي يخططون من أجله، ليتفاجأ الثوار بأن الأبواب والنوافذ التي كانت شبه مفتوحة أغلقت في وجوههم، ليقوموا بضربها بقوة مثل الطبل الذي يدق في المسار الجنائزي.

بعد تلقي الأخبار، كان الماركيز دي موندیخار قد قام بجولة قصيرة لعدة ساعات قبل الهجوم يرافقه فيها عدد من الرماة والفرسان للحديث مع الموريسكيين المستعدين للتمرد على الثورة، والذين يفكرون في العيش بشكل جيّد، ويحصلون على العمل وعلى ثمن الحرية للأيام المتبقية لهم. فعدد من الشباب فقط هم من ذهبوا وناصروا ابن فرج وابن نصار صقران ينظران نظرة وعيد، يرتديان ثياباً سوداء بشكل كامل، من العمامة وحتى أخمص القدمين، وعلاوة على ذلك، يغطون رؤوسهم بخوذ مدببة، ودروع محصنة في الأسفل، وفي «الساحة الطويلة»، قاموا بالفعل بفتح شرفة، ليظهر منها الفقيه المبجل، الذي كان رغم ذلك يرتدي ثوبا قشتالياً. حمل في يديه قنديلاً، الذي أضاء جزءاً من وجهه وأظهر بعضاً من لحيته الطويلة البيضاء. فالتزم الجميع بالصمت، وبدأ يحدثهم هكذا:

ماذا ستفعلون؟ ألا ترون أن المدينة مليئة بالجنود؟ كم أنتم؟

ستة آلاف أجاب ابن فرج متباهياً، على الرغم من أنهم حتى مع حلول الظلام كان يقدّر عددهم بحوالي مئة فقط.

ستة آلاف قليل جداً، ويأتون متأخرين. المسيحيون يحذرون. القائد العام أحضر سلاح المدفعية إلى الحمراء وهم مستعدون لاستخدامه من أجل تدمير منازلنا. وبذلك أنت ذاهب إلى قتلنا جميعاً. أتسمع!!

في هذه اللحظات، كما الجميع يمتثل لكلمات الفقيه، كانت أجراس الكنائس قد بدأت تقرع في الوقت نفسه، لتحذر من وجود المنفيين.

عودوا من حيث جئتم. لا يوجد أي شيء لتفعلوه هنا أضاف كبير في السن قبل أن يغلق الشرفة.

جبان! صرخ بعد ذلك ابن نصار . يفضلون العيش مثل العبيد، يلعقون أيادي هؤلاء الكفار!

لكن لم يكن هناك جواب. أثارت الأجراس ضجيجاً أصم، وخوفاً أسرهم جميعاً، ليرى المتمردون أنهم مجبرون على الهرب. حول جدران الحمراء كانت تشعل مئات المشاعل، لتثير انطباعاً بأن القصر كله يشتعل، وحول البيازين الليل كان باسطاً، كأن السماء نفسها تنفث اللهب. لتخرج لهم مجموعة واحدة فقط من الجنود المدججين. المنفيون ما زالوا يمتلكون الوقت للتنكيل بالجثث، المليئة بالحبال وتعليقها على الشجرة الملاصقة للباب الشمالي للمدينة، كما أنهم يحذرون الماركيز موندیخار.

مع طلوع الفجر، كان الماركيز يفكر في كيفية هروبهم عن طريق بيكار من أسوار الحمراء، كيف ساروا وهم يحملون الرايات الحمراء اللون الذي كان يتخذه بنو النصر رمزاً لهم باتجاه قرية ليكرين لتلمع خوذهم ورماحهم المدببة مع الإشراقة الأولى للصباح. وعلى الرغم من خروجه مع قواته

لملاحقتهم، إلا أنه لم يتمكن من الوصول إليهم. كان الدخول إلى القرية محفوفاً بالمخاطر، لاسيما وأن موقعها أمام البشرات. يجب عليه أن يجمع الجيش كله قبل البدء بالمعركة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التتويج

في قرية ليكرين الوضع كان مختلفاً جداً عن وضع المدينة. بعد كل ما حدث، يعرف السكان كل شيء هناك عن قادة الثورة، الجيران والرؤساء من مختلف المناطق في البشرات وحتى من مناطق أبعد من ذلك، وثار السكان الموريسكيون بحمل السلاح والقتال بعنف، متخذين من ابن فرج وابن نصار والمنفيين منهم قدوة لهم، ليبدأوا بعد ذلك عمليات القتل. رجال الدين، الأشخاص العاديون، وكل الذين تزيد أعمارهم عن عشر سنوات، ومَن كان لديهم اسم مسيحي يسقط تحت سيوفهم، ليعاني الكثير منهم من شدة التعذيب حتى الموت.

من ناحية أخرى، قام الدون هيرناندو دي بالور في الوقت نفسه بحمل رايات خلفاء قرطبة البيضاء في داخل البشرات. وقبل ذلك بأيام، كان والده الدون أنطونيو دي بالور قد حُكِم عليه بالسجن لمواجهته رئيس بلدية غرناطة، فارس يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً مثل عمره؛ ليعاقب من الأشخاص أنفسهم الذين كانوا يشاركوه في ذلك الحين العمل في حكم المدينة. في الليلة نفسها ظهر عدد من أعضاء المحكمة مقتولين في شوارع المدينة، ليقول الناس إن مَن قام بذلك هو الدون هيرناندو انتقاما لما حدث لوالده.

وهكذا، فقد كان الدون هيرناندو في عيون عائلته متزناً وقادراً على أن يحكم الرجال، وأن يصبح أيضاً ملبًّيا لرغبة الآخرين للانتقام من المسيحيين وكراهيتهم، هذه السمات كانت عامل تقييمه واختياره من قبل بعض قادة الثورة إلا ابن فرج ليكون ملكاً عليهم. كان عمه الدون هيرناندو الزغير قد أنهى بشكل كامل خططه، واجتمع بعد ذلك مع قادة الثورة في بيثنار في اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من أجل إعلان تعيين الدون هيرناندو دي بالور (ابن أمية) ملكاً عليهم، المحرر الذي تنبأ به بعض الكتّاب الموريسكيين؛ على الرغم من أن عمه الزغير نفسه هو من كان قد دوّن هذه النبوءات والتوقعات في الكتب التي أحرقت في نيران ثيسنيروس، وكان هو نفسه قد زوّقها بالأساطير الغامضة.

ألم يكن معتقداً أنه رأى ذات يوم كيف أن سحابة من الطيور وقفت على الحصان الذي كان يمتطيه ابن أخيه؟ ألم يكن قد رأى بعينيه هكذا كان يتحدث طيرين أكبر من تلك التي شاهدها بوجوه الملائكة جبريل وميكائيل؟ ما دلالة هذه المعجزات، لاسيما في الوقت الذي يقوم فيه الدون هيرناندو دي بالور بقيادة شعبه؟ من دون شك فكر، أن مصير الكثير من الرجال سيتقرر اليوم. ومَن يعرف، ربما يكون أيضاً مصير إسبانيا، وحوض البحر المتوسط، وكل أوروبا.

إنها الليلة، التي يجتمعون فيها في بستان زيتون. المشاعل التي يحملها الخدم تنير الوجوه الخطيرة لساداتهم: هيرناندو الزغير، عمدة كاديار؛ الحبقي، رجل بمكانة عالية، حيكم ويحترم الآخرين، يسكن في غواديش؛ ديغو لوبيث، المعروف بـ ابن عبو، ابن عم الدون هيرناندو دي بالور، من عائلة بني أمية، رجل ممتلئ الجسم، من مدينة بومبارون؛ الدالي، من بالور، معروف بإخلاصه وجرأته، وميغيل دي روخاس، حمو ابن أمية، من أوخيار.

كانوا جميعهم في المقدمة، يرافقهم السوريّ Sorri من لاوخار أندراكش؛ بويرتوكاريرو، رئيس بلدية ثيرخال، المالح من بورجينا، هاشم من بيليث البيضاء؛ الجرافي من بيليث الشقراء؛ ابن بايلي من الكوديا، الخوراكي، والبارتال والخينيث، قادة المنفيين من دالاياس، كلهم كانوا يرتدون اللباس الطويل، بالإضافة إلى أنهم كانوا مسلحين بشكل جيد.

ابن أمية، من جهته، كان يرتدي ثوباً أرجوانياً، بالإضافة إلى مشدّين أحمري اللون، الأول يضعه على رقبته، والآخر على وسطه، معلقاً عليه سيف الملك، الذي أهداه إياه عمه الزغير: صقل منحوت في الوسط مكتوب عليه: «لا غالب إلا الله»؛ وقبضته مستديرة، وغطاؤه مرصّع بالياقوت والذهب، الحماية الموجودة على يد السيف مفتوحة مثل ثعبانيين مختنقين. عند قدميه وضعت أربعة أعلام ملكية باتجاه الأجزاء الأربعة من العالم. يركع عليها، ووجه باتجاه الشرق، ويقول:
أقسم أمام القادة الذين اختاروني ملكا أن أموت في سبيل شعبي، في سبيل الله والنبي والدفاع عن مملكتي.
وبعد ذلك بدأ بالصلاة، ولكن كانت هناك صرخات قوية جعلته يقطع قسمه.
ما هذا؟ أعود من القتال وأجد أنكم تسيرون تحت إمرة ملك؟ أتيت من أجل أن أنهض بشعبي ضد المسيحيين لأجد نفسي أعاني من قائد جديد؟ ابن فرج كان بالكاد يكظم غيظه؛ فلم يتم إخباره بالاجتماع، إلا أنه سمع بالتتويج من الآخرين.
منتفضاً، أتقصد «انتصارك» في البيازين؟ رد ابن أمية مستهزئاً. وقف على قدميه؛ كانت تلك اللحظة الطقس المتعارف عليه التي يختارون فيها ملوك الأندلس وبعد ذلك يعلنون في غرناطة الملك المنتخب. وصلتنا أخبار أفعالك أثناء اجتماعاتنا قبل أن تقوم بها. لا يمكنني أن أقول إنها لا تروق لي، ليس لسخافتها أو لقسوتها غير الضرورية التي تعاقب بها الأطفال والنساء، الذين لا يعرفون إلا القليل عن الحرب.
إنهم المسيحيون! الأعداء! تمكن ابن فرج من قول إنه لا يأمل أن يكون هذا موقف أبناء بالور، الذين اعتاد الأعداء الخوف منهم.
وأنتم مجرمون! رد ابن أمية بدهاء، مشيراً أثناء تلفظه بهذه الكلمات إلى ابن نصار أيضاً، الذي يعود نسبه إلى بني السراج، إلا أنه عاد بضع خطوات إلى الوراء.
أنت المجرم قال بعد ذلك ابن نصار بهمس، الذي برد دمه من الرؤساء، معبِّرا عن انتقامه بلغة التهديد والوعيد. إياك أن يحدث أي شيء لأختي فاطمة، أو يمس شعرة من شعرها، وإلا سأدفّعك ثمن ذلك حياتك.
ولكن كيف تجرؤ على قول هذا؟ كان ميغيل دي روخاس من يتحدث. إنه ملكك.
أنا لا يوجد لي ملك رد ابن نصار. ولا حتى يوجد لي أب أضاف باصقاً على الأرض وحاملاً في يده سيفه.
ابن فرج احتواه، ودفعه على ساقه. سَمع صوت قرقعة سيوف، فكان الجميع، سادة وإقطاعيين، قد وضعوا أيديهم على أسلحتهم، والآن هم في حالة استرخاء.
هذا جيد من أجل الجميع قال الزغير. نحتاج إلى ملك أجمع عليه الشعب كله أجهد نفسه اعترف بذلك.
لا يجب عليّ أن أذكرك بجودة دمك. أنت نفسك ينبغي عليك أن تلتزم برغبات شعبك، نعم هذه هي الحقيقة التي أريدك أن تعرفها جيداً. أم أنك لا تريد أن تخدم شعبك؟
أنا قتلت من المسيحيين أكثر من عدد الحاضرين هنا. من يعتقد أنني أخدم العارف الزغير؟ من تخدم أنت غير عائلتك، وأخيك وابن أخيك؟ لماذا لا يكون الملك قائدنا ابن عبو، الذي هو أيضاً أموي؟
ابن عبو كان ابن عم الدون هيرناندو دي بالور، وبالتالي هو أموي، لكنه من نسب أقل، وبالتالي لا ينحدر نسبه مباشرة من فاطمة، ابنة محمد عليه الصلاة والسلام. في الواقع، بدا ابن عبو نسخة كاريكاتيرية لابن عمه: كتفاه أعرض ورأسه أكبر، لكنه أقصر من ابن أمية، إلا أن كليهما له شعر

طويل وأسود والحاجبين سميكين واللحية كثيفة وبارزة لتمنحهم مظهر العنزة. كان موقف ابن عبو متفقاً مع موقف ابن فرج أكثر من الزغير.
لقد حلفت اليمين وقال وهو ينظر إلى الأرض.
كلنا كنا قد حلفنا اليمين أضاف الحبقي. أنت أيضاً ينبغي عليك فعل ذلك.
كان ابن فرج يبحث عن بورتال وسينيث، كأنه هو من رؤساء المنفيين، لكنهم تجنبوه.
لكن أنا قال ذلك أخيراً؛ بالفعل فإنّ أي قرار كانت نتيجته عكسية، فبدأ به. وتقدم إلى الأمام، وركع وقبّل الأرض التي كان عليها ابن أمية.
ليمجد الله محمد بن أمية، ملك غرناطة وقرطبة! رد الزغير.
بدأ الجميع بالهتاف لابن أمية، إلا ابن عبو، الذي بقي صامتاً، صمت الأموات، كأنه ما زال في صراع مع نفسه، وابن عبو، الذي كان قد حمل الموت وجعله بين عينيه.
المنفيون:
من أجل استرضاء مزاجه، عيّن ابن أمية ابن فرج كبير القضاة، اليد الثانية المتحكمة بعده في أمور المملكة، مع مسؤوليته عن حياة أو موت الرجال، كما كان القائد العام لعمه الزغير. لكنه لم ينس مطلقاً كلمات ابن فرج ولا حتى كلمات ابن نصار. كان يقوم بأعماله بعجل دون أن ينتبه إلى كل ما يفعله: الماركيز دي موندیخار يتجه إلى هناك مع ألف طفل ومئة فارس.
قرر ابن أمية مواجهته بالقرب من جسر تابلاتي، خطوة ضرورية من أجل الدخول إلى البشرات. على الرغم من أنه ليس هو مَن سيقود المعركة، وإنما ابن فرج، الرجل الحديدي وابن نصار، بالإضافة إلى عدد من المنفيين على رأس الجيش. ابن بالور لا يريدهم أن يكونوا قريبين منه على أمل أن يراهم قريباً أكثر من ذلك، وفضَّل التراجع إلى عمق البشرات واستنزف تمرده باتجاه الساحل وألمرية.
قرر ابن فرج وابن نصار، من جهتهما، أن يجعلا معركتهما معركتين: الأولى ضد المسيحيين وبعد ذلك ضد ابن أمية. ابن فرج باعتباره قاضي الملك، لا يمكن أن يعارض أو يتحدى أوامر وخيارات المجلس، ولكن ربما كان لتطور الخصام فكّر أن يضع كل واحد في المكان الذي يمثله. أما بالنسبة إلى ابن نصار، فقد شن الحرب معه، كما لو أنه يشنّها في داخله ضد طفولته وسن مراهقته، ضد والده وجيرانه، ضد التاريخ والمصير. المنفيان قررا الانتظار والترقب لمدة أكثر فائدة من أجل ضبط حساباتهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تابلاتي

أنشأ نهر تابلاتي خندقاً طبيعياً للبشرات، أسفل منطقة بيثنار؛ فهناك كانت فقط الجدران العالية وأبراج القصور الشاهقة كانت مثل الجبال، في الوسط قاموا بإنشاء ممر ضيّق لإجبار مَن أراد أن يتسلل منه أن يمر من وسطه ويسهل القبض عليه. من جبال نيبادا، تنزل جداول المياه، والجسر هو الخطوة القاتمة لأنه بني على عمق 150 متراً. كان عدد الثوار يصل إلى 3000 رجل، محصنين على المنحدرات والتلال التي تحيط منطقة الجسر وتقطع الطريق باتجاه لانخارون. لم ينسوا تدمير كل ما يحيط بالجسر والطرق المحيطة، حتى أنهم لم يتركوا سوى بعض الأخشاب التي بالكاد يمكن أن يمر من خلالها رجل نحيف الجسم.

كان الماركيز ينظر بتحد إلى رايات أعدائه الحمراء والبيضاء، التي كانوا يلوّحون بها في الاتجاه المقابل، وأمر طليعة جيشه ممن يحملون البنادق بحماية الفرسان وبقية القوات. لم تكن الساعة أكثر من العاشرة صباحاً، واقتربوا من الجسر وفتحوا النار: أطلقوا مئتي عيار ناري، أصاب معظمها بعض المتمردين، مخترقة أجسادهم وممزقة بعضهم ومخلفة في بعضهم الآخر ثقوباً تنزف منها الدماء كنهر جار، ما تسبّب بحالة فوضى بين الموريسكيين، الذين ردوا بالمثل على قوات الماركيز، إلا أن أسلحتهم الأنارية كانت قليلة، ليُجبَروا بعد ذلك على الانسحاب.

كانت هي اللحظة التي استغل فيها راهب فرانسيسكاني اسمه كريستوبال مولينا بالمناسبة هو رجل نحيف جداً، من لوّح بالصليب في يده اليسرى والسيف في يده اليمنى، جامعاً ثيابه وحاملاً الصليب يضمه في حضنه كدرع، مندفعاً بسرعة نحو الجسر ليقفز بعدها قفزة هائلة جداً، ليبدو لبعض الجنود الفكاهيين أنه «ذاهب إلى البحث عن الإله» هذا ما قاله جندي بعد ذلك ليصل إلى الجانب الآخر. وتكررت مثل هذه الحادثة التي قام بها عدد من الجنود بحظوظ مختلفة في الوصول إلى الطرف الآخر. فبينما اندفع بعضهم إلى الهاوية «هؤلاء قفزوا إلى الجحيم»، علّق الجندي الذي تحدث سابقاً، «في أحضان الشيطان»، بعض الجنود الآخرين استطاعوا العبور أيضاً ومساعدة الراهب في إعادة بناء الجسر بمزيد من الأخشاب والحجارة.

ونتيجة ما قام به الراهب، استطاعت القوات التي جلبها الماركيز مع خيولهم من المرور عبر الجسر، بينما الموريسكيين بقيادة ابن فرج وابن نصار لم يكن لديهم حل آخر سوى الهرب، والركض في الوقت نفسه، يقفزون قفزة الراهب في فرسخ يتوسط تابلاتي ولانخارون، وهذا ما جعل البعض يتخذون السير على الأقدام سبيلاً للهرب والنجاة بأنفسهم.

ما زال على الماركيز أن يقاتل في الخطوط الأمامية مع وجود بعض الموريسكيين الموالين على الخطوط الخلفية من أجل احتلال ذلك التجمع؛ لكن مع كل جولة كان يمنى بخسارة، وعندما وصل كل من ابن فرج وابن نصار إلى الباب الغربي للبشرات، كان الغضب والكراهية قد أحرقا عروقهما وأعميا عيونهما. خوفاً من الأسوأ، قام راهب لانخارون، الذي كان اسمه سبينوزا، رفقة القندلفت ميغيل مورايس وستة عشر مسيحياً آخرين بالبقاء في الكنيسة، على الرغم من أنهم سيشرعون لأنفسهم للقيام بالأمر نفسه في النار. أرسل ابن فرج من يحرق المعبد وهم بداخله، وما زال ابن نصار يرغب في إنقاذ جثثهم من النيران حتى يسهل عليه بعد ذلك تمزيقها بسيفه.

الماركيز دي موندیخار

أحرقوا الكنائس والمساجد، والماركيز دي موندیخار يعتقد أنه يرى حقولاً مزروعة بالصلبان، بمئات من جثث الفرسان المسيحيين والأتراك والموريسكيين الذين عبروا المضيق من أجل القتال، بالقساوسة والرهبان الذين طبخت أجسادهم بزيت مغلي، بالموريسكيين الذين ذبحوا مع صغارهم وهم في أحضان أمهاتهم، بالمسيحيات اللواتي تم اغتصابهن وقتلهن أمام المذابح.
الماركيز رجل قوي ودمث. يبلغ طوله 12 قدماً، واسع الظهر والصدر، أطرافه قوية جداً، لدرجة أنها تبدو مثل جذوع البلوط، وقدمه كبيرة. لون بشرته حنطية، تميل إلى السمرة قليلاً، عيناه بنيتان، كبيرتان وبارزتان، في عمق بياض عينيه شعيرات حمراء تسبب للناظر إليهما الخوف؛ لحيته ممشطة وكثيفة، ويلبس حذاء من الكاميتو، ويرتدي دائماً قطعة من القماش ليغطي بها سيفه وخنجره، ورمحه، الذي ينتفع منه كما لو أنه قصب، وكان ينبغي عليه أن ينقله عن طريق اثنين من عبيده.
يأكل الماركيز وجبة واحدة فقط في اليوم، ولكن أكله كان عن أربعة رجال؛ لديه غرفة مؤن في بيليث بلانكو، وفي بيليث روبيو، وفي كويباس، وفي الهامة. إنه شجاع، صاحب همة وعزيمة، عدوه الكذب. يعاني الماركيز عندما يقتل، وعندما يخسر المعركة أيضاً، وذلك الذي عادة لا يحدث. الآن ينبغي عليه أن يخترق الأجساد بالرماح، ويقطع أطرافهم، ويؤمن الجزء الخلفي لجيشه. عليه أن يفتح ممراً من خلال البشرات حتى البحر، ومنع نزول التعزيزات البربرية.
المعارك
بمجرد أن اضطر إلى عبور الجسر، وصل الماركيز إلى لانخارون واستطاع إنقاذ أورخيبا، وقاوم مع المسيحيين في البرج لمدة سبعة عشر يوماً؛ ثم تجوّل في منطقة بوكييرا، وأماكن بيتريس وخوبيليس، أوخيار، كاديار، باتيرنا وأندراكس، عقدت مناوشات في الجبال الوعرة وشديدة الانحدار. في خوبيليس تقدم 300 رجل و1100 امرأة، وكانت هناك حاجة إلى ترك ألف منهن بالقرب من الحقول، ليشكلن خطاً أمنياً، حتى يسهل عليهم احتلال الكنيسة والبيوت الموجودة في المكان.
اتجه مسيحي في منتصف الليل إلى أحد البيوت هناك، وكانت فيه موريسكية، حاولت الفتاة أن تقاومه، إلا أن المختطف هددها. وجاء عشيقها الشاب، الذي تبعها متنكراً بزي امرأة، ولكم الجندي، وسحب منه السيف بقوة من أجل أن يصيبه وهجم معها على المسيحيين الآخرين، الذين بدأوا يركضون ويصرخون بصوت عال بأن هناك رجالاً متنكرين بزي النساء. ثم هرع الجنود بالحديد والنار لمقاتلة الشاب والنساء الأخريات. لمعت السيوف، وتوهجت الأسلحة النارية الشريرة، كانوا يضحون بتعاستهم، لذلك لم يكن لديهم أكثر من الدفاع عن دموعهم وآلامهم ونحيبهم. استمر القتل حتى الفجر.
انزعج الماركيز مما حدث، وأرسل في طلب المذنبين وأمر بشنقهم، واعتمد بعناية شديدة لتجنب مثل هذه المشاهد المشينة. كان هذا العمل مخزياً بالنسبة إلى الماركيز فأسف على حدوثه كثيراً، لأنه كان يعمل على تقليص عدد القادة الرئيسيين بإعفائهم من المهام الموكلة إليهم، وما زال هدفه تهدئة الثورة بالتصالح بعيداً عن القتال. ومن أجل أن يخفف انطباع ما حدث، أرسل خطابات ضمان إلى جميع الذين كانوا قد سلموا أسلحتهم طوعاً، وتواصل مع ابن أمية، الذي كان يسير باتجاه أندراكس، أوخيار والكواخارس. ولكن بسبب عدم ثقته بالملك، رفض الاستسلام، وثابر على المغامرة بثروته في سبيل الحصول على الأسلحة.

بعد ذلك، صمم الماركيز على أن يحتل غواخاراس، موقع محصن في قمة تل شديد الانحدار، ولا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق مسار ضيّق وطويل يبلغ أربعة فراسخ. في هذا الحصن الطبيعي كان هناك رجل اسمه الزامر، ومعه ألف رجل، ينتظرون أخذ الأوامر منه، الزامر قائد منطقة خاتار، والمسؤول عن الكثير من العائلات في المنطقة. ركز الماركيز على النّاس في أوخيار، والساكنين في أورخيبا وبيليث دي بيناودايا، سار للاستيلاء على الحصن القوي الواقع على التل في منطقة شديدة الانحدار.

وصل دون خوان دي بيارويل إلى حقول كوخار دي الفاغويت، وتقدم مستهتراً مع عدد من الفرسان مثل لويس دي بونثي دي ليون، خيرونيمو دي باديا، أوغاستين بينكاس، كونثالو أونونو، خوان بيلاسكث رونخيو وبصحبتهم أربعمئة بندقية، الكل متشوق إلى إعلاء مجده. في أعلى منطقة من الحصن الصخري وضعوا عدداً من الرايات الحمراء والبيضاء، ليتجه الفرسان والجنود نحوها، متجمعين مثل نحل العسل.

أجبرت المنحدرات الشديدة الفرسان على الترجّل عن خيولهم، وفي البداية كانوا بالكاد قد مكّنوا أنفسهم للقتال، من أجل ذلك، كان المسيحيون يعتقدون أنهم يعيشون في حالة خوف: بعض طلقات البنادق، بعض السهام، بعض الصخور.. يفكرون في المكافأة، وحتى في الرومنسيات التي تغنى عن الانتصار والاستيلاء على حصن غواخاراس الصخري. التقوا جميعاً في منتصف الطريق التي تؤدي إلى الحصن الصخري، عندما بيلارويل وأصدقاؤه اعتقدوا أنهم يرون كيف أنّ الجبل ينهار فوق رؤوسهم مثل فوهة بركان: الزامر وأربعون من الشجعان سقطوا بعضهم فوق بعض تلفظهم النيران، ومع شدة القتال بدا أنهم تحت سيف حاد يقطع رؤوسهم.

أطلقت النيران من معظم البنادق، ودفع بيلارويل وجنوده حياتهم ثمن تهورهم ورغباتهم الشديدة في الحصول على المجد. أنقذ فقط خيرونيمو دي باديا، كان سيُقتل هو الآخر لولا مساعدة أحد الجنود له؛ حيث أخذه من ذراعيه وسقطا معاً إلى أسفل الجبل، بوصوله إلى الأسفل كان قد أصيب إصابات بليغة إلا أنه بقي على قيد الحياة؛ فقد كان كل جسمه مليئاً بالخدوش والكدمات، وأصيب بجرح عميق وبليغ في فخذه الأيسر.

هذا الحادث، الذي توقعه الماركيز يعارض نفاد صبر بيلارويل، ليجعله يتخذ تدابير حكيمة للقيام بالهجوم. وزع قواته في عدة مناطق، حاصر الجبل واستعد للمضي قُدماً مع قواته المتمركزة للصعود إلى أعلى. الموريسكيون، رجالاً ونساء، دافعوا بشجاعة بإطلاق بعض الأعيرة النارية والحجارة، ليسببوا إصابات مختلفة في صفوف المسيحيين، إلا أنهم لم يحافظوا على مواقعهم، ليتراجعوا بعد ذلك إلى المناطق المعتمة.

اندفع المهاجمون ثلاث مرات للدخول إلا أنهم لم يستطيعوا في أكثر المرات. رأى الماركيز أن الليل يحل وأن النصر لم يكن جليًّا حتى الآن، فالقوات ما زالت تحاول الدخول، فأرسل يطلب سحب القوات وأمر بتأجيل الهجوم الحاسم إلى فجر اليوم التالي. خلال الليل، كان الزامر يتطلع إلى جنوده وينظر في عدم تمكنهم من مقاومة الهجوم الذي ينتظرونه، وأقنعهم بمغادرة قمة التل.

خرج القادة والمتطوعون والكثير من النساء في صمت، ونزلوا عن طريق الصخور، ومن خلال مسار الماعز، متراجعين نحو البونويلاس. عند الفجر، احتلت قوات الماركيز الحصن، ذبحوا العدد القليل المتبقي من الموريسكيين هناك، رجال كبار في السن ونساء، واثقين بعفو المنتصر. قام عدد من الفرسان المسيحيين بمطاردة الفارين من الموريسكيين، واستطاعوا القبض على الكثير منهم. قاتل

الزامر قتال الأبطال، دفاعاً عن ابن له يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، أغمي عليه من شدة التعب أثناء فراره، ليصاب في فخذه، ويتمكنوا من اعتقاله، واقتياده إلى مدينة غرناطة، حيث كان يحكم فيها الكونت دي تينديا، الذي استلم حكم المدينة فترة غياب الماركيز، والده، وحكم على زامر بالموت.

الصليب

مثّل سقوط حصن غواخاراس الصخري خسارة قاسية للموريسكيين، وأيضاً للماركيز نفسه، الذي كان يدرك أنه لم تكن هناك فائدة من إراقة دماء النساء وكبار السن ومزجها في الأرض. وبينما كان هو يقاتل في غواخاراس، كان ابن أمية عائداً متسللاً إلى البشرات، فاستعاد كل ما غنمه موندیخار بالقوة. مثل تنين برأسين، ليوسع سيطرته ويصل المد الموريسكي نحو أرخيبا، ليكون الجزء الغربي تحت قيادة ابن أمية، والجزء الشرقي بقيادة ابن فرج وابن نصار، اللذين احتلا جيخين، أوخيار وخورايراتار؛ وكانا القائدين اللذين سينتهيان بملاقاة بعضهما البعض.

في المعركة، قاتل ابن أمية تحت رايته، ارتدى بشكل كامل زياً أحمر، كان مثار إعجاب رجاله، فقد كان صاحب شأن كبير بينهم، فهو دائماً كان الأول في الدخول إلى المعركة وآخر من يتركها. ابن نصار من جهته، كان يرتدي دائماً الأسود، وفي غياب رايته، التي تجعله يرتعد من ابن فرج، اعترف له يوماً بقسوته، التي ترافقه كأنها أثر صدى من الخوف والكراهية. انتشر بين المسيحيين خبر مفاده أن لا أحد استطاع الهروب من غضب المنفيين، الذين لم يستجيبوا لأوامر ابن أمية ولم يُسجن أي واحد منهم حتى الآن.

في أوخيار، قاموا بجلد الراهب وذبح القندلفت بعد ذلك برمح وأحرقوا أمامهم صورة عذراء البشرات، وربما بسبب اللعنات التي خرجت من فم الراهب، كان ابن نصار في خورايرتار أكثر شراً. أولاً، كما هي عادته، أغلق على كل المسيحيين في الكنيسة، قبل أن يحرقهم. بعد ذلك، دعا الكاهن للمثول أمامه، ليشقّ له بخنجره الرداء الذي كان يلبسه، قائلاً:

أخوك، قسيس أوخيار، أظهر رحمته بلعني إلى الأبد. ولترى امتناني له بأنني سأفعل معك ما فعلته به بالضبط. سأظهر لك كم تبدو لإلهك ولي.

وقف رجلان بجانب الراهب من أجل الإمساك به بقوة من ذراعيه، واقترب منه ابن نصار قليلاً، رافعاً الخنجر بقوة، كأنه يريد أن يضغط عليه. وبدأ يتلو «من أجل الصليب المقدس...»، فتح أمامه بعد ذلك صليباً، يقطر منه الدم بغزارة؛ «لأعدائنا..»، وشقّ شفتَيه من أنفه إلى ذقنه، وفمه حتى خدوده، ليتحول إلى كومة لحم؛ «أنقذنا يا سيدي، يا إلهي...»، وحرك له صدره من اليسار إلى اليمين ومن الأعلى إلى الأسفل، بالكاد استطاع أن يُنزل عباءته الدافئة والسميكة، التي جفت حتى أخمص قدميه؛ «باسم الأب، الابن، وروح القدس...» وعلى الجرح النازف انفسخ الخنجر من أجل فتح أحشائه، ينبغي القول إنه كان الضحية والجلاد في الوقت نفسه بالكاد في التنهيدة الأولى، في الثانية كانت صرخة الانتصار: «آمين».

ابن عبو

ساعد الماركيز سكان مناطق المونيكار، مورتيل وسالوبرينيا، وعاد إلى أورخيبا، حيث وعد بمنح عشرة آلاف دوقية لمن يسلمه رأس ابن أمية. في هذا البيت الكبير والجميل تواصل بصورة عامة مع عدد من الموريسكيين المتأثرين بمنهجيته من أجل أن يعلموه بمكان وجود ابن أمية، وبعدها بأيام قليلة حضر أمام الموندیخار رجل اسمه ميغيل بن ثابا من بالور، وهو مَن حكى له أن ابن أمية وعمه الدون هيرناندو الزغير اتجها في يوم إلى المناطق المجاورة لجبال لوس بيرجوليس، التي فيها كهوف

يصعب الوصول إليها، وحيث كانت عبارة عن مستودعات للثوار، وأنهم في الليل ينزلون ينامون في بالور وفي ميثينا بومبارون، وفي بيوت دالي وديغو لوبيث، ابن عبو.
استدعى الماركيز القائدين ألبارو فلوريس وغاسبار مالدونادو مع 600 جندي من أجل الاقتراب من أماكن البالور وميثينا، إلا أن القائدين فكرا أنهما سيصلان معاً إلى ميثينا قبل الذهاب إلى بالور، وكانا هنا حيث التقيا، هناك من حذرهما، من أجل ذلك قررا أن يقسما قواتهما، يتجه ألبارو فلوريس مع 400 رجل إلى بالور وغاسبار مالدونادو مع 200 رجل إلى ميثينا.
مع حلول الظلام، حاصر مالدونادو البيت، أرسل الجنود إلى الأمام يحملون عدداً من البنادق المخفية؛ حتى لا يُكتشف أمرهم. ابن أمية والزغير والدالي، يولون ثقتهم بالقائد العام، بعد أن أمضوا كل اليوم مختفين فيه داخل أحد الكهوف، ناموا هذه الليلة بالفعل في بيت ابن عبو، يرافقهم العبيد وبعض الرجال. الزغير والدالي تشاركا غرفة واحدة في القسم الخلفي، الذي يطل على واد، بينما ابن أمية رافقته امرأتان في غرفة منعزلة، فلم تخلُ ليلة دون أن يلبي فيها شهوته، مستغلاً بذلك وضعه كملك.
نام ابن عبو وحده في غرفة، ليس من دون الشعور بالحسد أو الكراهية من ابن عمه، الذي أهانه بصمت بحظه وبفخره، الذي استفاد من ولاء شعبه له من أجل الحكم كأنه المزربان.
علاوة على الموارد التي من شأنها أن تحمي المملكة والتي كان قد أشار إليها من قبل وهو، ابن عبو، بصفته قريب الغني، فكان يتوجب عليه أن يساهم مساهمة مضاعفة، الملك الجديد استولى على عُشْر القسمة من الأراضي المثمرة، وخُمْس غنائم الحرب، علاوة على استبداده واستيلائه على كل شؤون رعاياه. ماذا أظهر هذا، إلا الجشع؟
وحدث أن واحداً من الجنود المسحيين أطلق عيارات نارية من بندقيته بالخطأ، وكأنه بذلك يحذر من بداخل البيت. أول من شعر بما حدث كان الدالي، ليوقظ بعد ذلك الزغير، ليقفز الاثنان من النافذة. أما ابن أمية فقد سمع ضربات قوية على باب البيت، راكضا بين الغرف في محاولة منه للهروب، إلا أن بعض الجنود شكّوا في وجوده أسفل إحدى النوافذ.
كان المسيحيون يطرقون الباب بخشبة كبيرة من أجل كسره وطرحه على الأرض، وابن أمية، بين رعب الرجال والنساء، اللواتي ركضن هن الأخريات من جانب إلى آخر في البيت من دون معرفة ما يحدث، اختفى خلسة بين عضادة الباب والباب الرئيسي، وأزال الشريط. دخل الجنود بضربة إلى البيت، دون أن يدركوا أن الموريسكيين كانوا قد اختفوا بين الباب والواجهة. صعدوا بأعداد كبيرة إلى الغرف، بعد ذلك بلحظات، انتهز ابن أمية صعودهم، وقام بالانزلاق إلى الخارج ورمى نفسه في هوة، على أمل النجاة بنفسه، مع أن انزلاقته سببت له بعض الضربات والخدوش.
أسوأ ما حدث لابن عبو، أنه كان قد أنقذ ابن عمه من دون قصد، والآن سيعاني من عواقب ذلك.
أرسل غاسبار مالدونادو بطلب لتعليق ابن عبو على شجرة، واضعين رأسه إلى أسفل، ليقوم جنديان بطحنه من شدة الضرب، فكانا يتعاملان معه بوحشية، فتركاه بعد ذلك للموت. وفي الوقت نفسه، قامت القوات بنهب البيت بكل ما فيه من ممتلكات، وأسر سبعة عشر موريسكياً، والاستيلاء على ثلاثة آلاف رأس من الماشية.
يتماسك على نفسه من شدة الألم، ما زال رأسه في الأسفل، يمكن لابن عبو أن ينظر كيف كان البيت مشتعلاً، وتحول بيته بعد فترة وجيزة إلى نار. قبل أن يفقد وعيه، أقسم الموريسكي أن يأخذ بالثأر، ثأره الأول من المسيحيين، من كل الذين تسببوا في ضرره في هذه الليلة المشؤومة؛ وثأره الثاني من ابن أمية، الذي كان قد هرب مثل كلب بينما هو يتلوى من الألم. ابن عبو لم يعط ولاءه لأي أحد، ولا

حتى للإله. بالنسبة إليه لن يعيشوا جيداً لا في سلام ولا في القانون ولا في النعيم. الموت فقط هو ما يستحقونه.

الزغير

لم يحل فصل الربيع، إلا والزغير يعلن توبته من الأفعال التي قام بها، ومن انتخابه لابن أخيه، الذي عنده ثلاث زوجات، ونبذ فاطمة دي روخاس، ملقياً على نفسه غضب رجاله المطيعين، بما في ذلك والد زوجته، مَن أمر الملك بقتله، متهماً إياه بأنه باعه إلى المسيحيين. هو نفسه أرسل بعض المبعوثين إلى الماركيز دي موندیخار من أجل الموافقة على شروط الاستسلام، وينتظر الجواب في بيته في كاديار. ربما ما زال يمكن تجنب البؤس، وسيكون من الأفضل أن يتحمّل عقوبة أنه سيموت، هرب إلى بيربيريا التي عاش فيها مثل عبد في أرض مغطاة بالدم.

في الحرب يكشف الرجال عن الأفضل والأسوأ في أنفسهم، وهيرناندو دي بالور أظهر أنه رجل شجاع، ولكنه أيضاً طفل مدلل، أعمى من الجشع والشهوة، كما انتقده بذلك أبناء أعمامه. أما بالنسبة إلى عمه، المسؤول الرئيسي عن ثورة البشرات والذي جعله ملكا، تخلص من جزء من ممتلكاته بحجة الحرب. هل أرسل أحداً لقتله هو الآخر؟ الزغير تعب في سريره، منهك، مريض، يشعر بألم خفيف داخل أذنيه وفي صدغيه، كيف يغير شيئا داخل نفسه.

إنه مرتعب، عيناه محمومتان برؤية حقل مليء بالجثث. تبدو الأجساد فيه مفتوحة في قناة، مقطوعة الأطراف والرؤوس، والدم يغمر أرض حمراء. هبط الليل على ساحة المعركة، ولكن هناك طائران كبيران ينزلان من السماء، ولهما جناحان كبيران، يتمددان، ليشكلا ضوءاً لاختيار الجثث المناسبة لأكلها.

يشعر الزغير بسلام عظيم في داخله نفسه، ويفكر أن هذين الطائرين ملاكان مثل الموريسكيين الذين يعيدون الشيء أكثر من مرة جاءا لمسامحته، وأخذه معهما. ولكن مع نزول الطائرين على الأرض، يتم اكتشاف أنهما مثل نسرين مفترسين يتشبثان بمخالبهما كأنهما جسد واحد. إنه يشعر بمخالب أحدهما تنغرز في ذراعيه، رائحة مقززة من منقاره المفتوح جزئياً والقريب إلى وجهه. «سأموت من ذلك الذي أراه»، يفكر، «سأموت بسبب إراقة دماء أبناء شعبي». مع الفجر، ارتقى جسده، ليجدوا جسده ميتاً على السرير، فمه جاف وملتوٍ، عيناه مفتوحتان من الخوف، والوجه غث، منهك من الحمى.

أنا؟

في الثلج، عند قدمي، بينما كنت أرفع رأسي وألتفت إلى الجبال، أنا رأيت أحداث المعركة، كل ذلك الذي حدث هناك نفسه قبل مئات السنين، لكنني شعرت بطاقة هذه الأرواح ومراثي المحتضرين داخلي أنا، عظام الكثير من الرجال والنساء المتعبة داخل الأرض التي أخطو عليها.

أنا لويس دي هارو، لويس توبار، لويس دي روخاس، تأملت حياتهم مثل صفحات الكتاب التي تذوب على بعضها، لتحكي تاريخهم الذي مُزج مع تاريخي من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى المستقبل. لكن لم تكن الكتب تلك التي تحدثت عني، بل ذلك الصوت الذي يحضر في داخلي من أصلي، ليس في هذه الأرض الي أسير عليها، ولكن في تفكيري نفسه. وكانوا شعري، جسدي وعضلاتي التي يتذكرونها.

أرى شخصيات أخرى تقترب، ينظرون إلى صدري بشراهة، لكنهم لا يمتلكون القوام وغير متماسكين. ما عدا واحداً بقي إلى جانبي، معي، يتحدث نيابة عنّي. صوته هو صوتي. أريد أن أصرخ

لكنني لا أستطيع. أصابعه الباردة تفتح فمي ويثني بها لساني نحو الداخل، صك أسناني، بالشكل الذي ملأ فيه كل التجويف كأنه كرة ولا يمكنني نطق حتى كلمة واحدة. وينظر إليّ، وأشعر بما هو يشعر به، خوفي وخوفه، تذكرت تاريخه الذي هو الآخر تاريخي، وتاريخ لويس دي روخاس، ولويس توبار ولويس دي هارو.

الأب

لا يوجد ثلج الآن في الحديقة، ولكن رياح باردة جداً تُسقط الأوراق الجافة عن الأشجار المثمرة. جليد بجانب نافورة الماء، ملت عليها، أمال ميغيل دي رخاس رأسه على الواجهة، وأنا أرى ما يراه. أنهى إغلاق عينيه، وعاد إلى فتحهما من جديد، وكان يتملكني شعور بدوار لا يُطاق. الغضب والخوف بالكاد يسمحان له أن يتنفس، ذلك ما جعله يعمل بتثاقل. شُحذت ملامحه، ويبتهل ابتهالات غير مسموعة تقريباً إلا أنها ظاهرة من خلال حركات شفتَيه، يتمتم في صلاته، ربما من الندم. لا أتحرك. لا أتحدث معه عندما أذهب إلى البيت لرؤية أمي، ولرؤية أختي، فاطمة، التي تخلى عنها من يدّعي نفسه بأنه ملك.

تبرأ ميغيل دي روخاس من ابنه والآن يتبرأ من ابنته. لويس ملعون منذ مولده، يعاملونه كأنه سيد، يخشونه، ولكنهم يطيعونه. فاطمة التي تزوجت من الملك، يعاملونها كأنها عاهرة، أولئك اللواتي تحملت سلوكياتهن معها في بيتها السابق، وهنّ أنفسهنّ اللواتي الآن سيستولين على سريرها، وسيستخدمن جَهازَها. ميغيل دي روخاس ينظر، كما لو أن شيئاً جديداً بين يديه، ثيابه، أغطيته، مفارش من الحرير، الخروج من مكان عمله.

توجد في عينيه عزيمة قوية، وفي الوقت نفسه كان ممتعضاً. هو أجاب دعوة أبناء شعبه، وقدم لهم البضائع، وهو الأمر نفسه الذي أوصى به. جاؤوا لقتله. يعرفه، وكان في بيتنا ينتظر الموت. قبل ذلك بلحظات نظر إلى الموت في السماء المحمرة وقت المساء، في عين دوار الشمس الضخمة، ملطخة بالدماء ومؤذية، سمع الموت في نداء بومة صغيرة، التي لم يرد عليها أحد. أنا أيضاً لن أرد الآن. يمكنني أن أتأمل كل ذلك الذي حدث له، كما لو أنه لم يكن هناك. أمي، فاطمة، تلمحانه من الشرفة، حيث يدير مغيل دي روخاس عينيه للحظات، ليكتشف أن نزلة برد حلّت على زوجته، يزدريها قبل أن تغلق الأبواب.

أمي لن ترى دخول الجنود إلى الحديقة، ولن ترى كيف قطعوا رأس زوجها، أبي، ووضعوه في كيس؛ من أجل أن يحضروه إلى الملك. لن ترى كيف تحوّل جسده إلى سبيل آخر ودمه يتشرب في الأرض نفسها التي كانت تدوس عليها في الكثير من المرات.

قرارات

الفرص المواتية للمسيحيين كانت سريعة الزوال، فقط ساهموا في إخماد عزيمة المتمردين وأولئك الذين ألقوا أسلحتهم في انتظار العفو عنهم. حتى أن الملك فيليب الثاني فكر في أن تكون قواته تحت قيادته، إلا أن السلطات المحلية وقادة الجيش نصحوه بأن تكون تلك القوات تحت قيادة أخيه دون خوان دي أوستريا، الذي كان عمره في ذلك الوقت أربعة وعشرين عاماً، عمد إلى تعزيز قوة جيشه بقوات كبيرة ومنضبطة.

دبّ صوت بين المسيحيين بأن الأمير سيحضر شخصياً، وكان هذا كافياً للتخلي عن السرقة والقتل والاغتصاب الذي أحدثوه في قرى الموريسكيين الذين لم يتخلوا عن سلاحهم، ناقضين بذلك وعودهم للماركيز دي مونديخار.

في غرناطة، قتل مئة قائد موريسكي كانوا قد سجنوا مثل رهائن في سجون محاكم التفتيش، ليزيد هذا الخبر من غضب الموريسكيين، حتى من أولئك الذين ما زلوا لم يتجندوا مع المتمردين. هكذا، في بالور، قام بعض الموريسكيين بدفع وتعزيز من القائد دالي بمهاجمة قوة من الجيش مكونة من 800 رجل، من أفضل وحدات الجيش المسيحي، بقيادة القائدين أنطونيو دي أبيلا وألبرو دي فلوريس، اللذين ذُبحا في معركة كبيرة.

ابن أمية، الذي حضر بعد ذلك لمحاصرة ألمرية، استقبل هذه الأخبار بقلق وتوجس شديدين، على الرغم من قلقه الشديد من الحالة المعنوية لرعاياه، ومن ابن فرج الذي يتمنى التخلص منه، ومن ابن نصار، الذي أقسم أمام كل مَن أراد أن يسمع له أن يقتل ابن أمية بيديه؛ لأنه أذل أخته وقتل أباه، فالتأثير القليل الذي تركوه فيه لا يقلل من إهانته له.

ولكي يحافظ على سلامته، دفع ابن أمية من جيبه ثمن البنادق لتسليح أربعمئة رجل من الأتراك والموريسكيين الذين قدموا من بيربيريا وحملوا راية خمرية اللون مع رأس للملك الجديد. ثم قام بعد ذلك بتحصين مناطقه. فوض المالح الماركيز ديل الزناتي على حدود قادش وباثا ونهر المنصورة، ابن عبو يصارع على بوغيرا وفيريرا، ومناطق خابا وأورخيبا إلى ابن مكنون، مناطق لاتشار وجبال فيابرا وكادور إلى خيرون دي أرشيدونا، وإلى يندات قرية لاثيرون وساحل موراتيل والمونكيار، وغيرها من المناطق الأخرى، التي منحت الختم الملكي، لترسل إليهم، ويكونوا على معرفة بالأماكن التي لهم، والتي يمكنهم التجول فيها بأريحية، وعين عليها بعض المسؤولين والمستشارين مثل الدالي والحبقي. فقط ابن فرج وابن نصار والمنفيون استبعدوا من كل تلك التقسيمات، وأمر ابن أمية بعد ذلك بإعدامهم شنقاً.

دون خوان دي أوستريا

وصل دون خوان دي أوستريا إلى إثنايوث في 12 من أبريل لعام 1569، بحضور أستاذه لويس كيخادا، واضعاً آماله بالانتصار بمساعدة القائد العام دون لويس فاخاردو، وماركيز بيليث. عبّر الناس في غرناطة عن فرحهم، واستعدت السلطات للاحتفال بوصول الأمير. أما الماركيز دي موندیخار، فعاد إلى غرناطة قبل ذلك بأيام، وخرج لملاقاة الأمير يرافقه عدد مع القادة، وبقي مع دون خوان في تلك الليلة، يعلمه بأوضاع الحرب.

في اليوم التالي ذهبوا معاً إلى المدينة، وهناك التقوا بالكونت دي تينديا وهو مَن خرج لملاقاته مع مئتين من الفرسان المرتدين الثوب المتعارف عليه عند الموريسكيين والمسيحيين، مسلحين بالبنادق، الدروع، والرماح. رئيس محاكم التفتيش والأساقفة اجتمعوا مع الأمير في بيلار ديل تورو، بجانب الساحة الجديدة، واستقبل دون خوان كل شخصية على حدة بكل دماثة، واستقبل كذلك رؤساء البلديات وبقية الأجلاء الكنسي والفرسان الأربعة والعشرين.

كما خرج في استقباله أكثر من أربعمئة امرأة مسيحية، من اللواتي سيئت معاملتهن من قبل الموريسكيين في البشرات، أرامل وأيتام يرتدين الخرق، واللواتي صرخن ونتفن شعرهن يطلبن الانتقام. فوقهن النوافذ التي تطلّ على الساحة، كنّ مغطيات بالأقمشة المُذهّبة والحرير، وكان هناك الكثير من السيدات والعوانس الغرناطيات، المعروفات بثرائهن، واللواتي أعجبن بدماثة الأمير، بهيئته الملوكية، بفروسيته، تنهداتهن امتزجت ببكاء نساء أخريات، وشوقهن امتزج بالنحيب. نزل دون خوان في قصر مسؤول الأساقفة، وبعد أن استمع إلى كل ما قاله الكونت دي تينديا، الأسقف والرئيس، دون بيدرو دي ديثا، كان عليه أن يخبره بأن يبقى مستريحاً.

بالكاد قضى الدون خوان استراحته، حتى أمر باجتماع بعدد من الموريسكيين، الأغنياء منهم وأمراء المدن، ومَن الذين اشتكوا مِن مظالم السلطات المسيحية ومن إهانات واعتداءات الجنود الغاضبين على أبناء عرقهم من الموريسكيين، رجال وشبان، نساء وأطفال، من دون التمييز بينهم. اجتمع الأمير بالسيد لوبيث دي ميسا ليفهم منه شكاويه، وبالسيد بيثكيث دي أرياس ومونتينيكرو لإدارة الممتلكات المصادرة من المتمردين.

بعد ذلك بأيام قليلة، وصل الدوق سيسا، عضو المجلس الذي أرسله أخوه الملك فيليب للحالات السياسية الصعبة وللحرب، واحتفل بعض أعضاء المجلس الآخرين من أولئك الذي حضروا، بالإضافة إلى قائد الجيش والرئيس ديثا، الأسقف، وغيرهم من قادات محليين. واجهوا مرة أخرى الماركيز دي موندیخار والدون بيدرو دي ديثا، وهذا الأخير اقترح طرد كل العائلات الموريسكية من مملكة غرناطة التي بقيت تحت وصايا المعادات القديمة، وهذا الطرد من شأنه وفق حكمه أن يضع حداً نهائياً للحرب.

اعترض الماركيز على رأي دي ديثا، ودون خوان ينظر إلى همم المحيطين به تتعالى، فقد اعتذر عن التصويت لدي ديثا حول هذه التدابير، تحت ذريعة أنه ينظم أولاً جيشه. وقال إنه بحاجة ماسّة إليه، فابن أمية سيطر بشكل كامل تقريباً على المملكة القديمة في غرناطة، من آخر مالقة حتى نهاية جبال ألمرية، باستثناء العواصم فقط. كان الملك قد هزم القوات المسيحية في ميناء رغوة، وفي فريخليانا وفي مناطق أخرى، ما تسبب في موت الكثير من القادة ومجموعات كاملة من الجنود.

كانت انتصارات ابن أمية محفزة له، فتجرأ بعد كل المعارك التي خاضها على مهاجمة بارخا برفقة 10000 رجل، دون أن يكون على معرفة بأن الماركيز دي بيلث كان متمركزاً هناك مع أفضل القوات في جيشه، فقد جاء من مرسيا بأمر من الأمير نفسه. كان بيليث منافساً للموندیخار، وربما، ظهر ذلك التنافس بشكل جليّ في مبنى المحكمة وفي قصر رئيس الأساقفة، عندما كان يلتفت إليهما دون خوان حينذاك، إذ كانت رؤيته لا تتوافق مع رؤية الثاني مازال الأول في القيادة الذي كان ليّنًا مع الموريسكيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دي لوس بيليث

كان الماركيز دي لوس بيليث رجلاً دمثاً، متوسط طوله اثنا عشر قدماً، وظهره ثلاثة أقدام، وصدره ثلاثة أقدام أيضاً؛ كان قويّ الذراعين والساقين، ولون شعره شاحب قليلاً، عيناه كبيرتان وبارزتان. ذقنه طويل وممشط، يحب ارتداء الأثواب المائلة إلى السمرة والأرجوانية والخضراء، يلبس حذاء طويلاً ومفتوحاً، مربوطاً برباط. قوته بقوة أربعة رجال، وعندما تنظر إليه تخيفك ساقاه، وعيانه تقدحان ناراً؛ كان شجاعاً، صاحب عزيمة، جسمه ضخم جداً، حتى إنّ حصانه يرتجف ويتبول عندما يريد أن يركبه.

كان يأكل أكل مجموعة من الرجال، حتى أنه كان يحتفظ بمؤنة خاصة به في عدة مناطق مثل: لوركا، وميناء لومبيراس، الهامة دي مورثيا، بيثا. كان حكيماً وعارفاً بكل شيء ومحط احترام الجميع، لديه عادة استماع القداس مرتين في اليوم، على الساعة الواحدة والساعة الثانية عشرة؛ كان يحب الليل كثيراً، أما النهار فيشغل نفسه فيه بالقنص على الأهداف باستخدام بندقيته أو باستخدام القوس والنشاب. كان عادلاً ومحباً للرماية باستمرار، يضرب الرمح ليردّه دائماً إلى الوراء، كان يحمل الرمح مربوطاً بثقالة بخيوط سميكة من الحرير الأخضر، وبالكاد يستطيع عبدان حمله بهذا الثقل، لكن هو كان يحمله كأنه عود من القصب.

بيرخا

كان الماركيز يُحضّر للدفاع عن بيرخا، إلا أنه قبل ذلك بأيام ألقى القبض على خمسة جواسيس من الموريسكيين الذين كانوا قد اعترفوا بعد تعذيبهم بآلات التعذيب الخاصة بخطط ابن أمية. أرسل أربعة منهم مربوطين بأذرعهم وسيقانهم، وقاموا بتعليقهم من السقف، وتمديدهم بطريقة تجعل أطرافهم التي عندما يحركونها من ظهروهم تواجه الخشب المدبب الذي إذا أدخل في قفاهم جعلهم يتمنون الموت.

أما الخامس فقد كان ممتلئاً، سميناً، كانوا قد أجلسوه على منقل نار ولم يشعروا بالأسى عليه، ولا حتى عندما أخرجوا أسياخ الحديد من ساقيه، صدره، ذراعيه، رقبته، فمه، بعد ذلك جلبوا لحمه وقطعوا أحشاءه. لكن حتى عندما تم تحذيرهم، فإنهم لم يتمكنوا من البداية احتواء الموريسكيين، من أولئك الذي ذهبوا إلى تتويج بعض البرابرة بأكاليل من الورود، شهداء طائفتهم، الذين قاتلوا حتى الموت، قطعوا الأعضاء والرؤوس، وسحقوا قوات الماركيز دي لوس بيليث، ليضعوهم في الخطر. فكان على الماركيز أن يقفز على حصانه ويدخل الحصن، الذي كان يدافع عنه مجموعة من الجنود من كاستيا دي لامنشا تحت قيادة قائد اسمه باريونويبو. شتت الموريسكيون صفوفهم وهم يطاردون الماركيز، الذي أنقذ حياته خمسمئة من الفرسان الذين يحملون البنادق بقيادة رودريغو دي مورا وخوان وفرانثيسكو فاخاركو الذين جاؤوا لمساعدته.

خرج لوس بيليث بعد ذلك من بوابة صغيرة يرافقه مئتا رجل ليتفاجأ بوجود عدد من الموريسكيين خلفه، وابن أمية، الذي وقع بين نارين، لم يكن أمامه سوى الانسحاب باتجاه دالاياس ولواخار دي أندراكس، خاسراً في هذه المعركة ما يقارب الألف وخمسمئة من رجاله. ومع ذلك، فقد تراجع الماركيز دي لوي بيليث والخوف يعتليه إلى أدرا، وهو ظرف استفاد منه ابن أمية للانسحاب إلى كاديار وبالور، ليقوم هناك بإعادة بناء جيشه من جديد.

القتل

كنا قد اختبأنا في جبال خورايراتار، هرباً من دوريات الملك، الذي وضع ثمناً على رؤوسنا. لكن نحن كنّا تقريباً مئتي رجل، السيف القادر على قطع رقبة القائد، الذي هو الآن ينام كما دائماً محاطاً بالحراس، الأتراك والموريسكيون المرتزقة لا يريدونه أيضاً، وبالتالي لا يوجد من يشبع الملك من عطشه للمال وللنساء وللدم. الآن أنا مَن لديّ يدان ملطختان بالدم. كيف وصلنا إلى هنا؟ هذا هو البيت الكبير الذي تعود ملكيته إلى دالي، المأخوذ من رجل مسيحي، موندیخار، تيندیا، ديثا، وأخذ من جديد من الدالي إلى موندیخار، تيندیا أو ديثا، لا أعرف، الآن هو ليس لأحد، لنا، ربما، بينما سأستمر في توسيعه.

تتمدد أمامي الجثث، نساء مفتوحات في القناة، أجساد من دون رؤوس، أطراف مقطعة. هذه امرأة لا يمكنك حتى تحريكها. لا تستطيع فعل ذلك رغم أنها غير مقيدة، من دون الحبال التي تمتد على الأطراف، وتربط على أربعة أوتاد، توضع تلك الأوتاد بعد ذلك في الأرض. الذعر يغمي العينين، يفسد وجه تلك المرأة كثرة النمش الذي عليه، شعرها طويل، مثل النار يحيط رأسها. جلدها أبيض مثل الحليب، صدرها كبير وحلمتاها موردتان، متصلبتان من الخوف أو من البرد. تنظر إليّ كأنني غير موجود.

في الواقع لا أعرف إن كانت تنظر إليّ. أنا نعم، أنظر إليها: أنا لم أكمم فمها، فككته. أحب أن أسمعها تصرخ. على الرغم من أن أكثر صراخها كان عبارة عن حشرجة، القرقرة المألوفة للموت. وضعت أصابعي على ثدييها، فتلمستهما، من أجل أن تصرخ، وأغرقت أصابعي أكثر في لحمها، وقضيبي في داخلها الذي تمزق.

شعرت بالأرق. الهواء جاف. أريد أن أتقيأ، لكن جسدي لا يستطيع، وبالتالي فهذا ليس جسدي، الذي يستمتع هو لويس دي روخاس، وابن نصار. الآن خرج من فمها صوت هدير. ابن فرج يضحك بصوت عال على بعد أمتار من هناك، بينما كان يضاجع فتىً يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً.

تنظر إليّ، يوجد رجال آخرون لا أعرفهم. أرض صالون البيت، حيث توجد بعض الحروق من المدفأة الكبيرة، هناك سجادة ملطخة بدم الجثث التي كانت تتلوى. اجتمعنا هنا بكل نساء المنطقة. قبل أن نقتل كل الرجال، كل العجائز والأطفال، اليوم نقدم البيعة. الآن أنا أمسك برأس أحمر اللون لهذه المرأة بينما جسدها ينزف دما دفق من رقبتها المقطوعة تحتضر مع ضربات عنيفة التي يمكنني أن أشعر بها في جسدي نفسه، وبالتالي فأنا ما زلت بداخلها.

مع الفجر، تركنا البيت. الرؤوس المقطوعة لثلاث وعشرين امرأة تركناها عند الباب، على بعد خطوات، ينظر الناظر إلى تلك الرؤوس كأنها قرابين.

الطرد

طيبة الموريسكيين وتكبّر وتعنّت ابن أمية للقيام بالحرب آذتهم بعمق، بالإضافة إلى عجرفة الدون خوان دي أوستريا. كان الأمير في غرناطة ينتظر التعزيزات المطلوبة للقيام بالفتح، كان ينتظر بفارغ الصبر. وفي الوقت نفسه، أصر المستشارون على طرد الموريسكيين الذين ما زالوا ماكثين في المدينة، يتظاهرون بالسلم، ولكنهم على الأرجح يحضّرون أنفسهم للتمرد.

أكثر المصرّين على الطرد الدون بيدرو دي ديثا ورئيس الأساقفة في المجلس الأعلى وفي المحكمة، الذي جازاه الملك فيليب بهذه التدابير، ليأمر أخاه الأمير الدون خوان لتنفيذها. وهكذا، في الثالث والعشرين من شهر يوليو ومع طلوع الفجر، كانت الشوارع قد ظهرت عليها تجهيزات المدينة وإعداد القوات وإحضار كتيبة تم سحبها من الماركيز دي موندیخار. وعلى الفور أعلن عن القانون

الذي يأمر الموريسكيين كافة باللجوء إلى الأماكن المخصصة لتجمعهم، ليقوموا بذلك بصرخات عالية جداً، كأن الجنود يقودون ماشية إلى المسلخ.
وهذا ما فكر به كثيرون، بأنهم ذاهبون إلى الموت بذبحهم قبل أن ينتهي اليوم، مثلما حدث مع الأسرى في سجن الحمراء، وكان هناك مَن يندب حظه لأنه لم يَثُر ويحمل السلاح قبل ستة شهور، عندما كان بإمكانهم أخذ القلعة الحمراء تحت قيادة ابن فرج. بقوا محبوسين في الكنائس طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي نقلوهم إلى عمود كبير في دير للمجانين، الذي بقي على حاله حتى الآن كما يبدو ظاهراً، يصرخون بيأس خلف الصليب الكبير الذي فتح للحاشية، يقودهم دون خوان دي أوستريا، دوق سيسا والماركيز دي موندیخار. رجال، نساء، أطفال وعجائز يسيرون خلف الرهبان، وكانوا على بُعد خطوة من الموت بسلاح الجنود الذين معهم، عندما قام شاب بجرح ضابط كبير في السن برمي طوبة عليه، ذلك الفعل الذي دفع ثمنه على الفور حياته، وقاموا بجرّه إلى الموت أمام أمه التي بدأت بالصراخ: «أوه! أسفي عليكم، إنهم يقودونكم كالخراف إلى المذبح! أليس من الأفضل لكم أن تموتوا في البيوت التي ولدتم فيها!»
احتوى الأمير شخصياً جنوده، وكان على استعداد لتقصير مهمة طرد الموريسكيين، على الرغم من أنه لم يمنع في اليوم نفسه بتدمير كل ما يتعلق بهم: بساتينهم وبيوتهم ومعظم ما يتعلق بهم سواء في المدينة أو في المروج المحيطة بها، تلك المناطق التي لن يتأملوها بعد ذلك أبداً.
الانتقام
بينما كان الدون خوان ومستشاروه مشغولين بعملية طرد الموريسكيين من غرناطة، كان ابن أمية يتوغل في نهر المنصورة، يتقدم معه عدد من المجندين الجدد، والسلاح والخيول. أثناء عودته إلى لاخوار دي أندراكس، كتب إلى الدون خوان دي أوستريا وإلى الماركيز دي لوس بيليث يشتكي من التعذيب اللاإنساني الذي ألحقته محاكم التفتيش بحق والده الدون أنطونيو دي بالور، وعرض عليهم إطلاق سراح 80 أسيراً مقابل الافراج عنه.
تذكّر الأمير أنه يمكنه هو نفسه بالضغط على الدون أنطونيو ليكتب إلى ابنه رسالة من أجل تهدئته، الظروف المعروفة التي كان يمر بها ابن عبو، جعلته يوقف إحدى الرسائل بفضل القائد التركي حسين، قائد الحرس الملكي. ألم يحاول الملك خيانة شعبه من أجل أن ينقذ رأسه؟ وهكذا جعله يتعرف على ابن فرج وابن نصار، وهم مَن علاوة على الانتقام لا يحتاجون إلى المزيد من الأسباب لإنقاذ رأسه من أجل إنهاء حياة ابن أمية.
القادة الأتراك والموريسكيون وجدوا حلاً لقتله وتتويج ابن عبو ملكاً، فسرعان ما عثروا على الوسيلة لتنفيذ أهدافهم، فحتى المقربون من ابن أمية كانوا متشككين في نواياهم، وبالتالي لم يذهبوا إلى تأمين شخصياتهم ولا حتى إلى تأمين ممتلكاتهم، وأقل بكثير تأمين زوجاتهم، اللواتي جميعاً يعملن وفق ما يريدون.
وكانت بين النساء أرملة اسمها زهرة، الزوجة التي من خارج بثنتي Vicente دي روخاس، قريبة ميغيل دي روخاس، الذي كان قد قتله صهره الملك نفسه. كانت زهرة امرأة جميلة، أكثر أناقة من حيائها، الذي لم تُظهره إلا إلى ابن عمها ديغو الكواثيل، القريب البعيد لميغيل دي روخاس وبالتالي فهو قريب أيضاً للويس دي روخاس، ابن نصار، فكان الكواثيل رغم ذلك الرجل الثقة بالنسبة إلى ابن أمية، وللقليلين ممن بقوا معه. لكنّ الملك سرعان ما طمع بالمرأة، وبدأ بإرسال الكواثيل إلى تنفيذ المهام التي تُبعده عن البيت، بهدف التمكن من قضاء المزيد من الوقت معها.

تحدثت المرأة إلى الكواثيل وأخبرته بكل ما جرى معها، ليذهب ويحتج على ابن أمية، مطالباً بأن يُحكم عليه بالإعدام، إلا أن ذلك لم يتحقق؛ لأن الكواثيل أدخل نفسه في متاهات مع الملك، فما كان منه إلا الهروب من لاخوار دي أندراكس، طالباً الحماية من ابن عبو، ليعلن ولاءه الكامل له.
وفي الوقت نفسه، كانت هناك خلافات في الجانب الآخر، بين الماركيز دي لوس بيليث، المتذمر من أوامر الدون بيدرو دي ديثا، رئيس الأساقفة، ومن الماركيز دي موندیخار وحتى من مستشاري الأمير، الذين لا يعرفون شيئاً عن الحرب، السبب الذي استفاد منه الملك فيليب من أجل دعوة الماركيز دي موندیخار إلى المحكمة بحجة إعلامه بالأحداث التي تجري وخاصة في غرناطة.
في الواقع، فكّر العاهل بأن هناك الكثير من القادة للدفاع عن المدينة الواحدة والقيام بالحرب الواحدة، فقام بتنصيب الموندیخار نائباً له في بلنسية ثم بعد ذلك في نابولي، ليدفعه بعيداً عن الأحداث الجارية في الأندلس. وعلى اعتبار أنه القائد المعروف والمنظور إليه في الجيش، واجه الماركيز دي لوس بيليث في الوقت نفسه بعض الصراعات الدموية في كهوف بيرا، البسيط دي أرخيبا وقرية لوكرين، المناطق الأخيرة التي دخلها ابن أمية. لأن الكواثيل كان على علم بالأماكن التي يتجول فيها الملك عن طريق عشيقته، التي هي بدورها كانت تُعلم ابن عمها ابن نصار بمكان تواجده، وابن نصار يقوم بدوره بإخبار ابن فرج، والأخير يخبر ابن عبو، الذي يقوم في النهاية بتحضير المؤامرة.
في لاخوار دي أندراكس كان ينام مئتان من الموريسكيين، الذين كانوا ينتشرون لحماية الملك كل ليلة. وفي الصباح الباكر، وبينما تهبّ الرياح الباردة مارة على شوارع القرية كافة، يرافقها مسير أربعمئة رجل، ممن يجوبون تلك الشوارع ويفرون فيها. كان ذلك في شهر أكتوبر، وابن أمية كان نائماً مع امرأتين بعد العودة من حفلة السامرا. كان قد حضّر حصانين مسرجين من أجل الهروب مع زهرة بعد ذلك بقليل، لكن، وكما هو معتاد، ولأنه يثق بحظه، فإنّه فضّل البقاء قليلاً ليستريح لبضع ساعات.
لكن زهرة لم تنم. فهي أيضاً كانت تنتظر لحظة موت الطاغية لأنها ستكون حُرَّة. قبل ذلك بساعات كانت قد كتبت إلى ديغو الكواثيل، وتقدم المتآمرون من كاديار متجهين إلى أندراكس، أربعمئة رجل، نصفهم من الموريسكيين، والنصف الآخر من الأتراك، كانوا تحت قيادة ابن عبو، وابن فرج وابن نصار.
حسين، قائد الحرس الملكي، تركهم يمرّون، تأكد من أنه لا يوجد أحد عند أبواب غرف الملك لمساعدته. كسروا باب غرفة النوم التي كان فيها الملك، ووجوده عارياً، يحتضن النساء، اللواتي قفزن بدورهن من السرير. شعر ابن أمية بكراهية الرجال الثلاثة، الذين لم ينطقوا بأي كلمة. وهو أيضاً لم يقدر على منعهم من ربطه من يديه، ولف الحزام الملكي على رقبته، ليأخذوه، ويمسكه كل واحد من طرفه، ابن نصار من جهة وابن فرج من جهة أخرى. اقترب منه ابن عبو متأملاً آلامه، وبينما كان اثنان من المنفيين يسحبانه، بصق في وجه ابن عمه، الذي مات بابتسامة مريرة على وجهه. حتى أنه لم يتمكن من مسح اللون الداكن الذي ظهر على لسانه. كان ابن أمية حينها قد أكمل الثالثة والعشرين من العمر. يعرف جيداً أنه لن يعيش أكثر، لكنه كان قد استمتع بخوضه الكثير من المعارك، بمشاركته في احتفالات السامرا وبالنساء. الآن رقد على الأرض، مغطى بالحزام الملكي، وتظهر على محيّاه ابتسامة الموت المريرة.
الهزيمة

جذوع الأشجار تهتز داعية على الملعونين، ورقائق من الثلج تتساقط على الأرض تمنحها شكل وجوههم، وما تبقى من عظامهم، مغذية بذلك المشهد الطبيعي. كان ابن أمية قد حكم مدة عشرة شهور، وهي المدة نفسها التي حكم فيها ابن عبو بعد ذلك. يعلم جيداً أن عليه الآن أن ينسى قتله للملك، فبذل كل جهده في الحرب، اقترب إلى بلدة أرخيبا، وهزم هناك الدوق سيسا، الذي كان قد خرج من غرناطة مع عدد كبير من القوات؛ لمساعدة المحاصرين. الذين كانوا قد فرحوا بخروجهم.
وأخيراً خرج دون خوان دي أوستريا في الحملة، حيث جاء ثلثا المقاتلين من أوروبا، مرتزقة وجنود مدبوغين على حرفة القتال في الحرب، كل المعارك التي خاضوها تخبّر عن انتصاراتهم. حرروا ويسكار وألمرية، ومحقوا الموريسكيين هناك، حيث وجدوهم، دخلوا إلى البشرات من جهتها الشرقية من أجل الاستيلاء على الثورة في البؤرة نفسها. أما دوق سيسا فقد دخل من الغرب، من الهجمة الأولى قام بتحرير أرخيبا، وفرض على ابن عبو والمنفيين التراجع إلى الجبال.
الدالي والحبقي، من جهتهما، رغبا في الانتقام من قتل ابن أمية، وهما اللذان بقيا وفيَّين له، فبدآ بالتفاوض مع الأمير، وعلى الرغم من أن ابن عبو كان ما يزال قادراً على قتلهما، إلا أن جيشه انخفض إلى 300 أو 400 رجل تقريباً، المنفيون لخينيث، بالإضافة إلى عصابة ابن فرج وابن فرج التي تضاءلت هي الأخرى. احتلوا قمم جبال نيبادا، حيث إن معظمهم لن يعود من هناك.
الخينيث دفع ثمن حريته مقابل قتل ابن عبو وتسليم رأسه إلى المسيحيين. ابن فرج لم ينزل مطلقاً عن الجبال. مات من الجوع والبرد في أحد الكهوف هناك، تخلى عنه رجاله كما لو أنه حيوان خطير.
أنظر في وجهه القاسي المتحجر في الكهف، وأتخيل معاناته من الألم في الظلمة، مرتبك مثلي أنا، الجوع والعطش لا يطاقان ويجعلانك تشك في كل ما يحدث له، الألم الحاد في المعدة، الذي يذهب ويعود، الألم الجسدي الذي سيجعله يتوق إلى نصل الخنجر أو القبض عليه، الرغبة في التقيؤ من دون القدرة على فعل ذلك، البرد الذي يجعلك تتوق إلى حرارة القبر. رغم ذلك، يوجد من قال 'إنه تمكن من الهرب إلى الجزائر، وإنه أصبح قرصاناً لعدة سنوات حتى أنه كان كبيراً في السن ليتمكن من حمل سلاح القراصنة وقام ببعض الغارات على بعض السواحل الإسبانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيوف من الماء

كان ابن نصار قد تمكن من خداع رجال خينيث والقوات المسيحية، ومشى يومين وليلتين. لينزل إلى ميناء رغوة، يتأمل في برج كنيسة أوخيار، المسجد الزائل، ويلتفت إلى سقف بيته الذي تغطيه الثلوج. كان الأول من شهر نوفمبر من عام 1570م، يوم موته، الذي لن يكون يفكر على أيدي المسيحيين. على بعد مسافة، بيوت القرية تبدو مليئة بالماء الذي كان مجمداً، ولويس دي روخاس، ابن نصار، بدأ بتوديع الأرض التي ولد عليها. متابعاً طريقه باتجاه القرية، والأشجار تبدو أنها مفتوحة لعبوره، منحنية له. عاش ثلاثة أيام من دون طعام. وصل إلى حدود بعض البيوت وتابع وصوله حتى الكنيسة، حيث دخل بين البيوت دون أن يراه أحد.

بُنيّ! فاطمة بوجهها الهزيل بسبب كبر سنها، معاناتها وجوعها. جلس لويس دي روخاس فكيف يمكن للغضب أن يسيطر عليه، فهو لا يمتلك القوة للرد عليها، على الرغم من أن دماغه ما زال يزنّ عليه للانتقام. وجدهم في غرفة أمه. ينظر لويس دائما إلى هذه الغرفة عندما يأتي إلى البيت، كما فعل في طفولته. رفع يده باتجاه وجه فاطمة. ابتسم. يتحدث بصوت فيه حسرة وتلهف، يقول:

أريدك، أمي.

بالكاد تعرفت فاطمة على ابنها. بدا لها رجلاً عمره خمس وثلاثون أو أربعون سنة، على الرغم من أنه أكمل عامه الرابع والعشرين. شعره كان رمادياً، وجهه شاحب وغلبت عليه عثرات الزمن.

جاؤوا يبحثون عنك، بني! بقي الجنود في الحديقة يوماً كاملاً وليلة وهم ينتظرون قدومك.

تذكر لويس دي روخاس الأغنية، الكلمات الأولى التي سمعها من فاطمة.

أمي قال، غنّي لي وأنت تحضنينني الأغنية التي كنت ترددينها أثناء نومي وأنا صغير.

قبلت فاطمة تلبية رغباته للمرة الأخيرة، النوتات الحلوة التي ظهرت على صوتها الحزين:

يوجد أربعة فرسان
يحملون سيوفاً من ماء
إنها ليلة مظلمة
السيوف الأربعة تجرح
عالم الورود
ستجرح قلوبكم
لا تنزلوا إلى الحديقة!
لا تنزلوا إلى الحديقة
فهناك توجد السيوف التي تجرح

أغلق لويس عينيه، وخلال لحظات، رسم ابتسامة لطيفة على وجهه. الأم والابن جلسا في حالة إغماء. وفاطمة؟ سأل فاتحاً عينيه محدقاً.

قامت الأم بإيماءة سلبية أثناء تحريك رأسها، ولتبدو التجاعيد الجديدة مرسومة على وجهها، مشوّهة فمها مع تعبير آخر عن الألم.

يجب عليك أن تساعديني قال لويس دي روخاس بعد ذلك.

الثلاثة سيعيشون إلى الأبد في هذا البيت.

يوجد شخصان متجمهران في فناء بيت لويس دي روخاس. جسد الابن، لويس دي روخاس، ابن نصار، المنفي، نزف الدم ببطء من ذراعي أمه، فاطمة، حتى أن الأرض المحيطة بالشخصين شكلت بركة من الدم. لكن في النهاية، عندما تغادر الحياة جسدها، لا توجد زلازل، ولا حريق، ولا ملائكة تأتي من السماء.

عندما دخل الجنود البيت بعد ذلك بثلاثة أيام، عثروا فقط على جثَّتي الفاطمتين، يرقد جسداهما على السرير.

تجولت في الحديقة، أبحث حول الأشجار، شارد الذهن، أنظر نظرات سريعة إلى الشوارع الفارغة وأتخيل الناس تلفّهم نار حامية. تذكرت الحطب الذي وجب علينا البحث عنه وفكرت في دعوة رافا. ولكن كان هو مَن نادى عليّ من باب البيت. كنت قد وقفت، وعدت على أثر خطوات قدميّ، الواضحة، في إطار مميز لحذائي الرياضي، اكتشفت خطوات أخرى، باهتة، من دون أي بروز، لكنها واضحة وناعمة، ترافقني، قليلاً على يميني وخلفي. كأن بعضهم كان يتبع خطواتي، ربما يكون خلفي، أو يهمس لي ببعض الأشياء فكرت أكر من مرة لأسمع، مررت يدي فوق كتفي.

ولكنني لم أسمع شيئاً، وكأن الحياة في القرية كانت قد اختفت، فلا طيور فيها، ولا عواء كلاب؛ وصراخ رافا بالكاد كنت أسمعه، فهو يعتلي المنطقة الباردة جداً، كما لو أنه يجمد الهواء من حولي، ليعزلني عن المكان والزمان، اللذين يجريان من دوني. فقط الرياح، التي بدأت بالهبوب مصحوبة برطوبة تنبئ بعاصفة جديدة، ذكرتني بأنني كنت في الحقل، في أوخيار، وأنني كنت على قيد الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المنفي

خشيت أن تكون كونجا قد أغلقت باب الحديقة بسبب سوء الأحوال الجوية. على الرغم من أنها لم تعطنا المفاتيح، فقد كلفتنا بالعمل على فتحه، وبالتالي فقد كان الخشب قديماً وبالياً، فهدفنا إلى إدخاله في الإطار. فتح رافا الطريق. الجذوع كانت مرتبة على طول الجدار، الجذوع والعصي المعفنة في الجزء الذي يحيط جدران غرفة الاستقبال الصغيرة، حيث كان هناك أيضاً بعض الآلات الصدئة: المعاول، فأسان، مجرفة، ونير قديم، تلك التي توقفوا عن استخدامها منذ سنوات طويلة.

من الأمام، فتحت على فناء البيت، فوجدناه مليئاً بالثلج، كما لو أنّ ذلك كان كافياً لنشعر بالبرد الشديد الذي لا يُطاق، وضعنا أيدينا على أذرعنا، على الرغم من أننا نرتدي معاطفنا. قمنا بملء الأكياس الكبيرة بالحطب الذي كنا قد أحضرنا معنا وتركناه أمام الباب. وبعد أن دخلنا الفناء يحضر أمام ناظرينا البيت الذي كان يسيطر على أروحنا. لم يقل رافا شيئاً، ولكنه كان مثلي أنا يشعر برطوبة المكان، بالصمت الملاصق للجدران، بهمس الرياح فوق الأسقف، الجو المحمل بالتهديدات.

تحت السماء البيضاء، ومع الثلج المتراكم على أرض الفناء، كان الممر مثل صندوق من الزجاج، وأكوام من الثلج ترسم عدداً من الشخصيات الوهمية أمام الأبواب، على الزجاج، كأنها المادة نفسها التي كانت على استعداد لاغتنام الحياة.

رافا؟ ناديتُ، والبخار الأبيض يخرج من فمي ليبدو أنه متجمد، يسقط على قدمي، ليعود تاركاً بصمته. أردت إظهاره على الشرفة، السلالم، كابس الكهرباء، لكنه مشى بصمت من أمامي، مثل منوم مغناطيسي، مع نظرة ثابتة على مدخل الدرج الذي يؤدي إلى القبو.

رافا! كررتُ

بعد ذلك وقف رافا متجمداً، ونظر إليّ بوجه متحجر من الخوف، أشار إليّ باتجاه المدخل. على بُعد خطوات كان يقف هناك شخص أسود، الذي بدا منتشراً في الهواء، متمسكاً بكل ما يحيط به. أنا فقط كان بإمكاني رؤية وجهه بوضوح: العينان اللتان احترفتا لتشدا انتباهك، لتمتصك لترى ذلك الذي تراه، أو ربما من أجل ألا تعود لرؤية أي شيء على الإطلاق أكثر من تلك النظرة نفسها. من دون أن نتحرك، تأملنا أنفسنا كيف يقترب منا الظل ويلفنا إليه كما لو أنه يحضننا. أرى عينيه أمام عينيّ، وشعرت بصوته يتحدث بداخلي. أردت أن أفتح فمي لأقول شيئاً، لكنني لم أستطع. كان رافا هو مَن يصرخ.

لا أريد أن تخبرني شيئاً عن هذا قال لي رافا تاركاً البيت. فالأمور ستزداد سوءاً. غداً نعود إلى هنا ونتحقق من ذلك الذي كان يختبئ خلف هذا الجدار اللعين.

نعم قلت، كنت مسروراً بأن رافا كان يمتلك أفكاراً مشابهة لأفكاري. علينا النزول إلى الأسفل. هناك علينا أن نجد قبر المنفي.

المنفي؟ نظر إليّ رافا من جديد مثل مجنون، وهذا ما كان عليه منذ لحظات، حيث كاد يفقد وعيه من الخوف.

مَن سيكون؟ هو ذلك الذي لم تره؟

توقف رافا متجمداً. ترك الأكياس التي كان يحملها على الأرض. أخذني من كتفي وضغط عليهما كثيراً وكان على وشك الصراخ. لكن هو من فعل ذلك.

أنا لم أر أي منفي! أتعرف ذلك؟ أنا لم أر أي منفي! رأيت امرأة ميتة يبكي رافا رأيت راشيل ميتة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النار

بسبب الرطوبة، انبعث من الخشب الذي كان يحترق داخل المدفأة دخان أبيض داكن في بعض الأحيان، وأنا، في طقطقة النيران، التي أنتجت عن استهلاك الجذوع الصغيرة فرقعات، نظرت إلى عينَي المنفي، ينظر إليّ، يتحدث معي، يطلب مني مقابلته. لكنني أنا شعرت به معي، بجانبي، يؤثر فيّ، ينقلني معه، الشعور الذي كنت أشاركه مع إيفا، التي منذ الصباح غيّرت موقفها مني، كأنني أصبحت بالنسبة إليها شخصاً غريباً. كانت قد أغلقت على نفسها في الحمام بعد تناول الطعام، وعندما صعد رافا وأنا، لم تكن ترغب في سماع أي شيء من ذلك الذي أردت أن أخبرها عنه على الرغم من أن رافا قد أنذرها.

«أنت مهووسة»، قال، «ألا تدركين ذلك». في داخلي غضب كان ينمو تجاهها، وذلك بسبب موقفها مني، لأنني شعرت أنها لم تخن ثقتي بها فحسب، وإنما أيضاً علاقتنا الحميمة، الجزء الأهم مني الذي يمكن أن أقدمه لها. هذا ما كنت أفكر فيه، كما لو أننا وجدنا هذا الجزء فجأة في هذا البيت، الذي كان سره في الصباح اليوم التالي منتشراً، وكأن إيفا تزدري هذا الجزء. ولكن لست أنا فقط، الكل هنا بدا منغلقاً على نفسه، وعلى الرغم من أننا بالكاد كنا منفصلين عن بعضنا بعض السنتيمترات فقط كنا قد اشتركنا في الجلوس على الأريكة الجديدة، مقابل النار المشتعلة، كنّا مثل الكاميرات المغلقة المحمية مما يمكن أن يكسرها.

بابلو، الذي شعر بعدم قدرته على فعل شيء لآنا، وذلك ربما لأنه فكّر بأنه كان قد ضيّع وقته، سن المراهقة وأفضل فترة من شبابه معها؛ راشيل، التي لم تفهم أيضاً ذلك الذي كان يحدث لرافا، الذي تحوَّل إلى رجل عنيف وقاسٍ؛ رافا نفسه، الذي كان مثلي أنا، واجه صعوبة في التعرف على ذاته، ويخاف من كل شيء يفعله هو نفسه؛ آنا، التي عادت إلى غضبها ولم تنهض لتتمشى قليلاً في الصالون، تجلس بسبب أزمتها مع بابلو أو تنظر إلينا واحداً واحداً بخوف من شر مرتقب؛ وأخيراً إيفا، عاجزة لا حول لها ولا قوة، كما لو أنها كانت مربّطة بأطنان من الثلوج، تعاني من أجلها نفسها ومن أجلي أنا أيضاً، ربما قررت في النهاية أن تتخلى عني.

بمجرد حلول الظلام، بدأ الثلج بالتساقط من جديد، ومثل شرير يبتهل، عادت الرياح إلى ضرب مصاريع النوافذ، تربكنا وتضغط علينا. وبالتالي، لا أعرف لماذا، ربما لأنني أشعر بأننا كلنا نذهب للانفصال عن بعضنا شيئاً فشيئاً، تذكرت ذلك الذي قرأته هذا الصباح حول نهاية ابن أمية وابن عبو: كلاهما تعرّض للخيانة؛ ولكن كلاهما كان خائناً وقاتلاً أيضاً، وقتلا نتيجة تعرضهما للقتل وللخيانة. وبعد كل ذلك، مات ابن فرج وابن نصار أيضاً نتيجة الخيانة والقتل. عندما ماتوا، كانت أعمارهم مثل أعمارنا تقريباً، لكنهم بدوا أنهم يعيشون أكثر من حياة، ليس مثلنا نحن، الكل متعلق بالحاضر، بالعصر الذي رغم ذلك لا نستطيع تداخله، الحقائق والعوامل الحاسمة الإرهاب، الحروب، الجوع، الاقتصاد تعود إلى العالم بالأخبار السيئة، فلم نكن متمردين ولا أبطال قضية التي من أجلها نلعب بمستقبلنا، من يوم لآخر، بهذه القرارات الصغيرة التي ربما لم تكن حاسمة ولا حتى محزنة. هكذا نحن، فالمفارقة أننا عشنا معلقين بحياتنا، التي فرّت منا دون أن نتمكن من إصلاحها. رأيت وجوه ابن أمية وابن عبو، وابن فرج وابن نصار، مرتبكة مع وجوه أصدقائي، مع وجهي أنا، نحترق في النار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الليل

كانت النار مشتعلة أيضاً تحت الأرض، في المغارة المغطاة بالمشاعل التي يحتفظون بها أسفل الغرفة التي نرقد فيها، رغم أن ذلك حدث في وقت سابق، أو حدث لي أنا شخصياً، لا أستطيع أن أعرف ذلك تحديدا، في هذا الفضاء من دون الزمن الذي اعتدنا عليه بين منتصف الليل وطلوع الفجر؛ في هذا الفضاء، ربما، حيث اعتاد المنفي. قبل أن نستلقي، عانت آنا من أزمة أخرى أفقدتنا أعصابنا، وأنه من المحتمل أن تكون إشارة افتتاحية لتسارع الأحداث.

وضعت يدها على أذنيها، كما فعلت في المرة السابقة، رغم أنه لم يتحدث أحد حتى الآن، وبدأت تستفرغ علينا بالشتائم الفظيعة، دعتنا بالزناة والقتلة، لتصرخ في النهاية بأننا كلنا ذاهبون إلى الموت في ذلك البيت الملعون.

أنت المسؤول! كانت تصرخ عليّ. أنت المسؤول. ألا يمكن أن تتركوه ليستريح؟

إذا لم يكن الأمر متعلقاً ببابلو وبرافا، اللذين كانا دائما يقفان عند رأس آنا، متأكد بأنها هي نفسها كانت قد حاولت قتلي. رغم أنني أعرف أنها كانت مريضة ومجنونة، لم تستطع أن تتوقف عن سؤالي حول مشاعري تجاه كلماتها، التي ربما كنت سأشاركها إياها لو لم تتبع منها هي على وجه التحديد.

يستريح؟ ذهبنا لنستريح قليلاً هذه الليلة، التي على الرغم من ذلك، بدأت بمشهد ليّن جداً بيني وبين إيفا، وكأن شيئاً لم يحدث بيننا. في السرير، تغطينا بالأغطية المخملية، ربما بسبب الضغط المتراكم والطقس غير السار، والرياح العاصفة التي هبّت من جديد والثلج الذي يفترش أرض الحديقة ويغطي شوارع القرية، كانت إيفا تمارس الجنس معي بيأس غريب، كما لو أنها علمت أنها المرة الأخيرة لفعل ذلك.

أنا أدرت لها ظهري في البداية، وبعد ذلك فكرت أنها، مثل البارحة، لا تريد معرفة أي شيء عني. كنت مستعداً لتجاهلها أو للحديث معها في الساعات المتبقية حتى اليوم التالي، عندما سنكسر الجدار السري في الأسفل سأظهر لها أنني كنت على صواب، وأن هناك دافعاً حقيقياً ومعروفاً لما كان يحدث لنا. وبالتالي، لاحظتُ كيف خلعت ملابسها والتصقت بظهري، يداها تحسّسان صدري وبطني وقضيبي المنتصب. أنزلت البنطال، التفتت إليّ ووضعت نفسها عليّ. وعلى الرغم من ذلك في اللحظة الأولى، في الظلمة عرفت لمس جسدها الناعم، بعد ذلك، تحولت الغرفة: الجدران أخذت خشونة حجارة الكهف، حيث تُعلّق المشاعل التي مكنتني من رؤية السرير المستدير الذي وجدنا أنفسنا ننام عليه، كان أكبر من غرفتنا، سرير من القش مغطى بالحرير، بشرة راشيل الداكنة تحيط بي وصدرها مع بعض الهالات الكبيرة واللحمية، لونها بندقي، مختلفة كلياً عن تلك التي على إيفا، أصغر ومدببة الشكل، عيناها السوداوان يحدقان فيَّ، والشعر أسود وطويل يصل حتى الكتفين، شعر عانتها مجعد يتمايل عليّ، يتنعم بها عضوي، أما آنا فشعرها أشقر ونهداها متصلبان ومتوسطا الحجم، مع حلمتين صغيرتين كنت قد قرصتهما بشراسة، رطوبة الجنس، تفتح وتنهم بين الشعر البني والمتناثر، بطني مبتل بالسوائل المنبعثة منهن الثلاث، اللواتي للحظات أخذن شكل أفعوان ذي سبع رؤوس حيث برزت أجسادهن ووجوههن مع جسد ووجه أمي، فاطمة، وأختي، فاطمة، وكان ذلك سبباً لتنمو بداخلي الضحكة التي جعلت عويلنا يوقظ مشاعرنا وأمنياتنا المجهولة بالنسبة إليّ.

رأيت مشاهد من حياتي، ممزوجة مع تلك التي حدثت هذا المساء وفي الأيام الأخيرة، اعتمدت نظاماً مختلفاً لأتمكن من تفسير ذلك الذي لم يحدث بعد. تذكرت اليوم الذي تعرفت فيه على إيفا: الدعوة

لشرب القهوة بعد تناول الطعام مع أصدقاء مشتركين. مررت في المساء لأحكي لها كل ذلك الذي كان قد حدث في حياتي وما كنت آمله في ذلك الحين معها، وبالتالي، فإنني كنت مقتنعاً بأن هذه هي اللحظة التي ستكون هكذا. كنتُ كمن يبوح لنفسه بشيء ما، مثل شيء يجردني من كل مشاكلي، من كل شيء لا حاجة لي به؛ بحيث تتناسب ذكرياتي وتجاربي مع هذا المنظور الجديد.
الآن لديّ شعور مشابه، لكنّ الفراغ ممتلئ بمادة هلامية تجري في عروقي لتتناسب مع عضلاتي، وأعضائي وعظامي، لتحل محلها مادة أكثر غموضاً وأكثر قوة. ساحات المعركة التي كنت قد رأيتها أو تخيلتها هذا المساء متماسكة بالحقائق، بالخيانات، بمن ماتوا بمرارة الذكريات الممزقة.
كانت إيفا غارقة في هذا المشهد الأسود، وكل الذي حدث معها في الشهور الأخيرة كان بالفعل انعداماً في التوازن. الفاطمتان عانقتاني كأنهما مثل أم ومثل عشيق، وأنا، في داخلهن، شعرت أنني وجدت في داخل بطونهن أصلي وقدري، المتعة والألم والأمنية بالبقاء هناك، في هذا المكان حيث لا يوجد هناك معايير للمجتمع الذي يفتقر إلى الجنس البشري، ضحية الحلم العميق الذي مات. السنوات التي تعلمتها في المدرسة والجامعة تراجعت بتواضع، معتذرين لاستضافتي مكبلاً حتى داخل عالمهن اللطيف، فنشوة يوم النشور تستولي عليّ.
أدركت أن أفكاري لا تستجيب لطريقة وجودي؛ لكنني على الفور تملكتها، وكما كانت دائماً تلازمني وأنا لا أفعل شيئاً سوى التعرف عليها في النهاية، لتتركني أستحصر أوهامي، من خلال تلك التي كنت أتخيلها لأول مرة والتي كنت قد رأيتها رفقة إيفا، آنا وراشيل. كان الأمر أشبه بأن تكون شخصاً أفضل، أكثر جرأة، أكثر قوة، وجود من دون تعليمي وأحكامي المسبقة التي كانت بشكل متناقض دائماً معي؛ ومن أجل ذلك كان عليّ أن أنفذ رغبات المنفي، التي كانت هي رغباتي أيضاً.
كان لضحكته صدى في الكهف، حولنا، عاد إلينا من جديد بظله. وابن فرج، الذي عاد إلى النظر إليّ بوجه كريه، الذي كان وجه رافا، شدني، شجعني على الاستمرار، ضحكنا معاً على بابلو، كلانا في الكهف، نشرب مثل شهوانين ينتظران دورهما، نصرخ، ونصفق بشكل استعراضي.
لأن لويس دي روخاس، لويس دي توبار وأنا تناوبنا على الرقص، وإيفا، وآنا وراشيل كنّ قد حللن محل الفاطمتين، اللتين عادتا إلى التحول بشخصيات راشيل وآنا وإيفا. كان السرير موجوداً في وسط مكان أشبه ما يكون بكهف قبته عالية، متوهج بوجود مئات من المشاعل داخله، يتوسطه كرسي عرش أسود. وجدت عليه سيدة كانوا ينادونها بالخالة مارتيريو، جافة وذابلة، بالكاد تكون هيكلاً عظمياً متوجاً بخصلة شعر بيضاء التي تتباهى فيها في الاحتفالات، كأنها هي نفسها التي تجسد الرابط بين الأزمان الثلاثة التي تقاربت في البيت.
كانوا يرافقونها مثل حشد جائع، تجد ابن فرج وابن عبو، الزغير ودون خوان دي أوستريا، الماركيز دي لوي بيليث وميغيل دي روخاس، دون بيدرو دي ديثا بعباءة رئيس الكهنة، والماركيز دي موندیخار بطلّته القاتمة: جثث من زمن آخر اللواتي أشرن إلينا وتجادلن إن كنا نستحق العيش أم لا. ولكن تجادلوا فيما بينهم، اللعنة، المهانة بأفواه من دون شفاه على وجوههم المتعبة، اللحوم الممزقة داخل أحواض فارغة.
الجنود، الموريسكيون، القتلة، المتمردون، الزناة... ماذا تصنع لتفجر مقداراً كبيراً من النيران بحجم قليل!! قال الدون بيدرو دي ديثا.
الجميل أنهم ليسوا رؤساء أساقفة ولا أمراء ردّ الزغير، الذين إذا أهملوك، يغمرونك بالخداع والمعاهدات.

المعاهدات؟ سأل المونديخار، خارجاً عن صمته.
أنا أعني المعاهدات المبرمة أجاب الزغير
تنظر الخالة مارتيريو من على عرشها إليهم بعينين تقدحان شرراً. يبدو أنها تقضي وقتاً ممتعاً، كأنها تحضر مشهداً كانت قد نسيته، ربما استخرجته من بعض الكتب التي كانت تحتفظ بها في غرفتها.
لأنني لم أرك جئت بي إلى الجحيميؤكد ديثا، لتعلم أنك ستنتهي هنا، فسيكون من الجيّد ألا تنقذني، بل لتذهب حيث لا يمكنك الدخول.
وبالتالي كانت هناك ضجة كبيرة، أصوات، ضربات وبكاء ممزوج بالشتائم والشكوى. لعدم وجود الرماح والسيوف والأقواس، ألقوا بالأعضاء المحروقة، بأجسادهم أنفسهم، التي تطايرت على سقف الكهف؛ الأمير نفسه، برأسه المتوّج بالأكاليل والجسم مليء بالجروح، التي نزفت على رؤوسهم.
وابن فرج يصرخ بأعلى صوته:
أنا ولدتُ من جديد، أنا عدتُ إلى الحياة، نعم أنا متّ مرتين....
نعم إنه أنا، أنا، أنا.. نعم ولدت من جديد ألف مرة، وفي كل مرة تعود فيها ميتاً ميتة أسوأ! رد الماركيز دي لوس بيليث.
وأنت أيضاً! صرخ ابن عبو. ستدفع لي سبعة أضعاف دَيْني الذي عليك.
ومن يريد أن يعيش؟ عبّر ميغيل دي روخاس في هذه اللحظة بمرارة. لنراكم مرة أخرى في الحياة، ونتقاتل من أجل جزء من المملكة؟ اللعنة على من يريد العودة إلى الولادة ونتغذى باشمئزاز تسعة شهور! سأبكي لأنني ولدت، سأعيش من دون أن أعرف ما هي الحياة، سأبدأ بالموت من دون معرفة ما هو الموت... الجحيم ليس أفضل. وبالتالي، قليلون هم الناس الذين يوجدون في الحياة، ويمارسون عاداتهم. من أجل أن تكون غنياً عليك أن تكون لصاً، ليس كما يريد الواحد، وإنما تسرقون من أجل الذي يحسدكم على السرقة، ومن أجل من يعجب بكم، ومن أجل من يحكم عليكم، ومن أجل الذي يُبقي عليكم. إذا أردتم أن تنجحوا عليكم أن تعانوا وأن تكونوا سيئي السمعة. إذا أردتم أن تتزوجوا عليكم أن تكونوا ديوثين. إذا كان ذلك ما تريدونه، فسيكون لكم ذلك (إذا أهملتم) من دون تجزئة، وحيث تستطيعون. من أجل أن تكون شجاعاً ينبغي عليك أن تكون خائناً وشارب خمر وكافراً. إذا كنتم فقراء لن يتعرف عليكم أحد؛ أما إذا كنتم أغنياء فلن تتعرفوا أنتم على أحد. إذا عاش أحدهم قليلاً يقولون لم يبلغ مراده، وإذا عاش كثيراً يقولون لا يشعر. لترى جيداً عليك أن تناقش نقاشاً لا فائد فيه وأن تكون مبذراً؛ لأن مَن يفشي أسرار غيره فهو منافق، ومن لا يفشيها فهو زنديق، وإذا كان الإنسان فرحاً يقولون إنه مهرج، وإذا كان حزيناً يقولون إنه نكدي. يدعون الشخص المهذب بأنه لبق وذو شخصية، أما غير المهذب فيدعونه بالوقح. اترك هذه الحياة للشيطان يعيش فيها! لا تعد من حيث يأتي كل العالم، من كل البشرات، حيث متنا جميعاً. المتمردون والخائنون، المدانون بذنب أو بغير ذنب، كانوا يسمعونني، هل يوجد أحد منكم يريد أن يعود إلى الولادة من حيث جاء، ويعيد الحياة حتى بطن أمه؟
الصمت! صرخت بعد ذلك الخالة مارتيريو. انظروا، انظروا إلى ما نحن عليه. لا شيء أكثر مما هو موجود، من ذلك الذي تراه. إن هؤلاء الأمراء والوزراء لا يلتقون إلا وقضيب كل واحد منهم في الآخر. ليبدأ اجتماع السحرة.
سمع صوت اشتباك في عمق الكهف، كأن الأرض تفتح، ليظهر من فوّهته مئات من الأشخاص، نساء ورجال وشباب وجميلون، بوجوه بيضاء مثل الرخام، يرتدون اللباس مع أهداب مذهبة، تلك

التي تعطيهم شكل تماثيل تمشي. كان ابن أمية في المقدمة، ثوبه أرجواني اللون، وكان في وجهه شيء قبيح ومقزز، بأذنين كبيرتين ولباس مفتوح ليظهر رجولته المبالغ فيها والباعثة على السخرية.
في الخلف كانت عربة النصر، يجرّها أسدان، ويركبهما العجوز ابن نصار، الذي يظهر عليه جرح بليغ في رقبته، مفتوح وينزف. ومن الخلف موكب من كائنات لها سيقان كبش، بوجوه جميلة وقاسية، تعزف في الأبواق والعود وقرون الحيوانات الملتوية.
اقتربت الحاشية من وسط الكهف. وابن نصار مستلق على السرير، محاط بالنساء، وهنّ كنّ محاطات بكل الحاضرين. لكنني أنا مَن كنتُ مستلقياً على السرير، من كان ينشج مثل كلب مصاب بداء الكلب، من سمعوه يصرخ:
مات! مات! مات!
وكانت أيضاً صرخات بابلو ورافا اللذين سمعاني. وعدت إلى الشعور بجسد إيفا، وآنا وراشيل. وبالتالي، أنا؟ ما زلت أتمنى قتلهم لأتمكن من البقاء وحدي دائماً معهن الثلاثة، في هذا الكهف الذي يجب أن يكون فيه قبري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خطط

استيقظت يوم الأحد، وجسدي منهك من التعب، شعرت بثقل رأسي، وما زال مذاق أجساد إيفا، راشيل وآنا في فمي، ورائحة أجسادهن، ملابسهن الداخلية باردة دبقة ومبللة؛ على الرغم من أن إيفا وحدها هي فقط من كانت تنام بجانبي، جسدها العاري تحت الأغطية. إلا أن ضحكات رافا وبابلو العالية ما زالت تتردّد في أذني، ممزوجة بضحكات المنفي، تلك الضحكات التي حثتني على الاستيقاظ.

الحلم كان عبارة عن مشهد من حياة إلى حياة أخرى، القليل من الموت، بينما الشيطان الذي كان في داخلي عاد إلى الظهور من جديد، وخمدت النيران في رغباتي، ربما التي كانت تصوره. لكنه تبعني إلى هناك بطريقة أخرى: مع دمي، عظامي، كروموسوماتي؛ النار التي كانت تكفي لتفعيل الطاقة التي تحتفظ بي للحياة.

اقتربت إلى غرف رافا وراشيل، بابلو وآنا، وشعرت أنهم يعيشون أو يحلمون بالليلة نفسها التي عشت فيها أحلامي، كما أن أسرّتهم كانت تتحرك، وأجسادهم عارية أسفل الأغطية، فجعلني فضولي أقترب منهم أكثر، من دون إيقاظ أي واحد منهم، يمكنني أن أعدّ رائحتهم ممزوجة برائحتي أنا، الشعور أيضاً بالحنين الشهواني لذلك الذي ربما لم يحدث ولن يحدث.

لكن عندما تناولنا وجبة الإفطار معاً، ذهب ذلك الشعور، وخاصة عندما تحدثت أنا ورافا عن خططنا، التي أيّدها بابلو على الفور، مُظهراً عداء كبيراً ضد المنزل. وبالتالي كنا جميعاً قد بدأنا بمشاركة بعضنا البعض من جديد كما كنا في السابق، إيفا وراشيل بريبتهما، آنا بقلقها، بابلو ورافا وأنا، على الرغم من ذلك، تقدمنا بفكرة راسخة التي يجب علينا تنفيذها بلا مبررات.

عاد الضباب الكثيف هذا الصباح إلى القرية، كأن السحب قد قررت في النهاية النزول إلى الأرض بعد أن كانت محملة بكميات كبيرة من الثلوج فوقها؛ وبالتالي اتضح عدم فائدة مثابرتنا لمغادرة المنزل، إيفا وراشيل التزمتا برعاية آنا، التي على الرغم من تناولها الدواء، فقد ظهرت بحالة مزاجية مقلقة هذا الصباح، كما لو أنها على علم بما حدث بيننا في تلك الليلة، إلا أنني لم أجرؤ على قول ما حدث، ولا حتى أن أشرح ماذا حدث. وبالتالي، ورغم أنني لم أفتح فمي منذ أن نهضت، كانت عيناها رماديتين هذا الصباح، مثل الغيوم تبحلقان فيّ، تنتفضان أكثر عندما تلتقيان مع عينيّ أنا.

إيفا وراشيل تصرفتا كالمعتاد، مع خيبة أملهما بعدم قدرتهما على مغادرة القرية.

وكيف ستشرح ذلك لكونجا، آه؟ تفاجئنا. ألا تدركون أنكم عدتم إلى جنونكم؟

رافا، أحلّفك بالله! عاندت راشيل. يمكنني أن أتوقع ذلك منهم حتى اليأس ينبغي أن يكون مجزأً وسيئاً، فكرتُ. ولكن منك... إنني لا أعرفك! أين تركت تفكيرك المنطقي السليم؟

أثار ذلك اهتمام رافا، فكان هو أول من بدأ بالمبادرة.

ذلك أقل ما يقلقني الآن قال لراشيل بصوت أكثر حزماً. علاوة على ذلك، فإنّ العاصفة الثلجية التي قد بدأت بالفعل، ومع هذه الغيوم الملبّدة، فإنني لا أعتقد أن كونجا ستتاح لها فرصة المجيء إلى هنا. يمكننا التفكير في شيء ما. ربما يمكننا أن نترك كل شيء على حاله كما كان. يبدو أن هذا الجدار ليس قوياً فهو من الطوب، وفي البيت توجد أدوات لهدمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القبر

ولكن ترك كل شيء كما كان أمر مستحيل. وبالتالي لا شيء أكثر من أن ندخل ونقترب من المكان السري، قام بابلو بضربتين كبيرتين متتاليتين في وسط الجدار، حيث بقع الرطوبة التي كنت قد رأيتها في اليوم الأول. للحظة، انتظرت رؤية سقوط الدم، لكنني رأيت فقط جرحاً عميقاً في لبنة الطوب، جرحاً من الغبار والطين المطبوخ، تتناثر إلى قطع صغيرة.
ضرب بابلو الجدار بغضب غير عادي، الانتقام، فكرتُ، من كل ذلك الذي حدث له حتى الآن، من أزمات آنا والسنوات الطويلة من المعاناة وهو ساكت، من كل ذلك الذي حدث لنا خلال هذه الأيام دون أن نكون قادرين على فهم ما يحدث.
اللعنة على هذا البيت يصرخ . اللعنة على هذا البيت!
وقام بضربة أخرى التي تردد صوتها في كل البناء، كما لو أننا كنّا نفتّش عن شيء في أحشائه. في الضربة الثالثة، الضربة الحاسمة التي انهار فيها الجدار. اقترب رافا حاملاً فانوساً كان قد جلبه من السيارة تمكنت من الوصول إليه على الرغم من تساقط الثلوج، وكانت كل ملابسي مبلّلة، وأضاء أرضية القبو الذي كان نوره خافتاً. فتحنا قليلاً حول الطوب المكسور واكتشفنا الغرفة التي تُوصلنا حتى واجهة المبنى، وفيها نافذة صغيرة تبدو من الخارج مثل بالوعة، ومن خلالها يدخل ضوء خافت. طول هذه الغرفة يبلغ حوالي خمسة عشر متراً وعرضها أربعة أمتار، وشكلها صورة مطابقة للشقق العلوية، رغم ذلك فإننا كنا قد توقفنا فجأة أمام الجدار الجديد. وقلت إننا توقفنا بسبب السقف الذي كان مقعر الشكل، بحجارة لامعة بسبب الرطوبة، ليعزز ذلك فينا العمل باستمرار على هذا الجدار المبني من الحجارة، وبالتالي فهو أكثر صلابة من الجدار الذي كان في الخارج الذي يشمخ أمامنا.
الحقيقة أننا عثرنا على هذا الجدار على بعد نصف متر إلى اليسار من الباب الذي أنهينا فتحه، وإن لم يخب ظني، الغرفة التي كانت كونجا قد أشارت لنا إليها وحيث وفق ما قالت لنا كانت قد ولدت فيها. يجب أن نجدها خلف الحائط وفوق رؤوسنا؛ لذلك، وبالنظر إلى البناء الهيكلي للبيت، فإن العثور على القبو يتطلب منا الاستمرار بضعة أمتار أخرى.
بدأ القلب من جديد بالخفقان بشكل سريع، يمكن أن نجد أنفسنا تحت مستوى أرض الساحتين اللتين فيهما بابا المدخل الرئيسي للبيت. ذلك ما قاله رافا ببرودة أعصاب:
هذا القبو يجب أن يقودنا إلى مكان ما، لا يمكننا أن نتوقف هنا. وإلا لن يكون لوجوده أي معنى، ألا تعتقدون ذلك؟
أنا كنت قد استخدمت المجرفة لسحب الطوب الذي كان قد سقط في الداخل، لكن الضربة الأولى لبابلو ورافا على الحجر العلوي منحني انطباعاً بأنه البيت نفسه الذي بدأ فيه الأنين، وأن شيئاً ما في داخلي بدأ بالتحرك. تناثرت شذرات من الحديد المحطم مع صخور الحائط، ويبدو لي أنني سمعت صرير السلاسل، وأفران النيران حيث كانوا يصنعون أساساته.
الحائط مبني بحجارة ضخمة قال رافا. هذا يدلل على أن مَن قام ببنائه عزم على ألا يعود إلى فتحه مرة أخرى.
اضرب بقوة! صرخ بابلو، متابعاً القيام بضرباته القوية والمدهشة.

بعد ذلك بوقت، تمكنوا من إزالة صخرة كبيرة، وعلى الرغم من رؤية ما في الداخل إلا أنه ما زال هناك عشرات السنتيمترات لعبور الحائط، بدأنا نشاهد ثقباً صغيراً في البداية، ذلك الذي كان يعبر منه الهواء إلينا.

يوجد شيء هناك! صرخ رافا.

وبالتالي، مع ضربة بابلو الجديدة بالفأس، سقطت بعض الحجارة، ليفتح بذلك فجوة كبيرة، يمكن من أن يعبر من خلالها شخص؛ ولكننا لم نكن مستعدين لذلك الذي كنا ذاهبين إليه. في الحقيقة الوصول إلى القبو ما زال يحتاج إلى الاستمرار لبضعة أمتار أخرى إلى الأمام، وإلى الجدار الداخلي، كان هناك باب، الذي من خلاله كانت تتسرب أشعة ضوء باهت، الضوء الذي يلقي بظلاله على الجدران، كأنه مزود بالنار.

عبرنا العتبة مسلحين بالمجاريف والفؤوس. وجدنا أنفسنا في غرفة ثانية طويلة، التي تُوصل حتى حد الواجهة الأخيرة للبيت، في الأسفل كانت هناك إسطبلات، تقع أسفل الغرفة التي كنا ننام فيها بحوالي عشرين متراً. في تلك الغرفة توجد شمعتان كبيرتان لونهما أحمر، يصدر منهما ضوء خافت، موضوعتان على قبر من الرخام الأسود موجود في وسط الغرفة. توجد على جانبه صورتان مبروزتان داخل إطارين فضيين، ينظر من بداخلهما إلينا. يظهر على يسار إحدى الصور طفل بعمر العشر أو إحدى عشرة سنة وبوجه أصفر مشوّه، ولكن ما زال يظهر فيه شعره الأشقر وابتسامة فرحة بين خدوده النافخة. يرتدي لباس بحار نظرت فقط إلى الرأس والجسم، يبدو أنه ما زال يضحك مع المصوّر، الذي خلّد تلك الصورة بالأبيض والأسود، الألوان التي كانت شاحبة بالأصفر الداكن والبني. من الصورة الثانية، رأينا امرأة بشعر مجعد، وتظهر على وجهها ملامح اللطف والثقة، على الرغم من أن في عينيها علامات قسوة، وحركة فمها تشي بحزن عميق كان قد أصابها.

انظر! قال بابلو، مشيراً إلى أسفل القبر.

منحوت على الرخام، يلمع كثيراً حتى في الوقت الذي عمل فيه، تمكنت من قراءة نقش مكتوب باللغة العربية، على الرغم من أن جزءاً منه كان محذوفاً. اعتقدتُ أنّ بإمكاني أن أقرأ الحروف([18])، كانت كأنها تهمس في أذني، في داخل رأسي، وكأن العالم كله اختفى من حولي وأنا ما زلت موجوداً.

يوجد هنا المنفي الذي تحدثت عنه كان رافا محتاراً. ولكن هذا ليس أمراً عادياً. الهواء ليس ناشفاً، ويوجد أحد ما قام بتعليق الشمعتين والصور هناك. أنا متأكد أن صديقتنا كونجا تعرف الكثير من الأشياء التي من الممكن أن تحكيها لنا. آه! شرح. أشار إلى فتحة موجودة في أسفل الجدار، على يمين القبر، يوجد قوس مدبب حاد صغير، لم ينتبه إليه أحد لأن الإنارة لم تكن مسلطة على تلك الجهة، كما فعل رافا في هذه اللحظة عندما قام بإنارة تلك المنطقة لنكتشف وجوده هناك. أراهن على ذلك الذي تريدونه أضاف أن هذا النفق يقودنا حتى الكنيسة.

تخيلت أن كونجا داخل الكنيسة، نزلنا إلى النفق، وكان على استعداد للوفاء بالوعد. الآن فهمت الغموض في كلماتها، وحدة ذكرياتها، التي كانت ممزوجة بجرعات من الحزن والسعادة معاً، ربما هو شعور بالندم. من دون شك أن هذه الصور كانت للسيدة كارمن وللطفل خابيير. أما زالت كونجا تشعر بالندم على موتهم؟ هل كان ذلك هو الواقع؟

إن ما روته لنا هو أنها تعرف سبب ما حدث لهم قلتُ. لم تكن قاصدة لعب الأطفال، ولكن شيئاً أكثر حقارة. هذه هي صورة السيدة كارمن.

والطفل؟ سأل بابلو.
متأكد أنه ذلك الطفل الذي مات قال رافا. ولكن ما لا أفهمه ماذا تفعل هذه الصور هناك، حول القبر. الخميس كان يوم «الكل مقدسون»، نعم، ولكن ينبغي أن تكون أجسادهم مدفونة في مقبرة القرية، وليس هنا. هل تعبدهم أم تعبد المنفي؟ تعال، لنذهب لرؤية ذلك الذي عثرنا عليه.
اعتقدت للحظة أن لويس توبار خرج من قبر لويس دي روخاس، رفقة أمه وأخيه خابيير، لأشرح له كل ما حدث لنا خلال هذه الأيام الأربعة، ليتحقق من بأنني علاوة على ذلك اندمجت في هذا صباح، هذا اليوم الأحد مع كل ما حدث خلال الخمسة عشر عاماً في هذا البيت، انتقلت من عائلة إلى عائلة ومن جيل إلى جيل؛ ولكن بعد ذلك، فهمت أن ذلك ليس مهماً، فالمنفي نفسه كان هناك معنا، يرافقنا، يسير معي مثل ظلي، يتبع حتى خطواتي.
عند الدخول إلى النفقكان مرتفعاً، وعرضه واسع يكفي لشخص واحد يمشي فيه من دون صعوبة في الوقوف، شعرتُ كيف انفصلت عن ذلك الذي كنت أعيه حتى هذه اللحظة، عن عائلتي وعن عملي، وعن ماضيَّ وعن إيفا أيضاً، التي ابتعدت عنّي بمحض إرادتها. تبعني رافا وبابلو، ولكنهما شعرا بأن الهواء بدأ يقل ويثقل كما لو أنهم في قبر لا ينظر إليه أحد لأنه مهمل، بل على العكس، كان مثل شخص ما ربما كونجا كان يستخدمه باستمرار وبشكل منتظم.
بدا أن النفق محفور داخل صخرة نقية، على الرغم من أننا رأينا بعض الرطوبة في بعض الأجزاء صوت قطرات ماء هنا وهناك، كانت الجدران نظيفة، خشنة ولامعة بضوء ينير ما حوله. ومع ذلك، فكل خطوة أخطوها كانت تبدو وكأنني أخطوها من داخلي أنا نفسي، إلى بعض الأجزاء التي أفقد فيها وعيي ولا أرى شيئاً مما يحيط بي، انزلق جسدي في قالب غير مرئي والقيم الإنسانية انكفأت على نفسها مثل الأقنعة.
لم نكن قد سرنا أكثر من أربعين أو خمسين متراً عندما وجدنا باباً من الخشب، ثقيلاً، مكسوراً، مع صليب أسود وملاكين؛ لم يدهشني أن هذا المكان كان مقدساً، وهو نفسه الذي يغلق المسير إلى الشقة العليا في الطابق الأول من بيت لوس توباريس. إنه الباب الذي لا يمكنني عبوره. ما زلت أمسك بالمجرفة في يدي، لكنني شعرت فجأة بأنني أنفصل عن الأشياء المحيطة بي، كما لو أن هناك مَن أغلق عليّ داخل فقاعة كبيرة سمحت لي بأن أرى من خلالها كل شيء، أدركت أشكالها، ألوانها ولمستها، على الرغم من أنني لست الذي كنت هناك.
حاول بابلو ورافا فتح الباب ولكن من دون فائدة، وذلك لأنه يُفتح فقط من داخل الكنيسة وكان يقف على بُعد خطوات من العتبة الجديدة، في نهاية الصالة الصغيرة الدائرية حيث ينتهي النفق. شعرت أن ذراعيَّ قد توقفتا، حتى أنني لا يمكنني التحكم بهما، مسكوا المقبض بقوة كبيرة حتى أنني شعرت أن أصابعي تصلبت حول الخشب. وناولوا رافا ضربة قوية على رأسه، الذي سقط على إثرها مرمياً على الأرض. سقط منه المصباح وأنار وجه بابلو، الذي نظر إليّ ببلاهة، حاملاً الفأس في يديه، كان أكثر اندهاشاً مما يحدث من رعبته؛ والضربة الثانية أدت إلى سقوطه هو الآخر.
أنا لا يمكنني التحكم بنفسي، ولا حتى بضحكتي العالية، التي تردد صداها في النفق. تمكنت فقط من حمل المجرفة حول رؤوسهم مرتين. أشعل المصباح وأنار كتلة من العظام، الجلد والدم، وجزء من كتلة دماغية التي كانوا قد احتفظوا بها معلقة في حذائيّ، وفي بنطالي، على الجدار؛ شعرت بوجه ملطخ بالدماء، وطعمه الصدئ في فمي، والضحكة المفزعة نفسها يتردد صداها في داخلي، لتخرج من أوتاري الصوتية، حتى أنني اعتقدت أنني أصبحت مخبولاً. كنت قد انحنيت بقوة عندما شعرت

بحركة قوية في معدتي، أجبرتني على التقيؤ فوق رؤوسهم، أرحت يديّ على الأرض، فوق بركة من الدماء.
بدأت ببكاء متشنج، لكن في الوقت نفسه واصلت الاستماع إلى ضحكات المنفي، ظل عطشي للدم يزداد. وقام المنفي بسحبي من هناك وجرّني من قدمي حتى البيت، على الرغم من أنه مشى مع خطوات قدميَّ ويرسم على وجهي تعبيراً مفزعاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كونجا

لم أتفاجأ بوجود كونجا في الفناء، ولم تتوجه إليّ بنظرة اهتمام عندما قالت لي: «أنت عدت بالفعل إلى المشي، أها؟»؛ كما لو أنها تعرف كل ما حدث لي في الأيام السابقة وما يجري في رأسي من أحداث، لتلوث أفكاري ومشاعري، لينتهي بي الأمر بعد ذلك. وبالتالي، فهمت أن جنوناً غامضاً كان مرسوماً على وجهها وإيماءاتها، وينبغي أنها استسلمت منذ سنوات لتأثير البيت والمنفي.

بعد كل شي، عاشت هي عقوبتها، التي كانت مشابهة لعقوبتي، والأكثر مشابهة لعقوبة أمي في الحياة الأخرى، التي كانت قد دفنتني في أسفل البيت نفسه؛ حتى لا ينبغي عليها أن تنفصل عني مطلقاً.

ينظر المنفي إلى كونجا بعينيه، شاكراً، وبالتالي، كانت هي مَن جلبتنا إلى قبره وساهمت في إخماد عطشه الدموي، على الأقل لفترة زمنية وجيزة.

وكونجا، بالانحناءة التي جعلتني أبتسم ابتسامة خفيفة، أخفضت رأسها أمامي بوجهها المائل، وقامت بفعل إشارة الصليب عدة مرات بيدها اليسرى. نهضت بعد ذلك ووضعت السكين في يدي: لديك نصل على شكل منجل، رقيق وحاد، أدخل في مقبض خشبي خشن: سكين راع أو قاطع طريق، فكرتُ، ينبغي عليّ أن أوقف المذابح التي بدأت، سفك الدماء المنغمس لتحقيق مجد المنفي، ومن أجل هذه التضحية الجديدة فنحن كنا مستعدين لفعل أي شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النهاية

في الواقع، فإنّ كونجا كانت قد جاءت إلى البيت فترة غيابنا. على الطاولة، بجانب الأريكة، كانت هناك بقايا أكواب القهوة التي قامت هي بتحضيرها، كما أنني افترضت، أنها قامت بوضع نوع من المخدر ربما، آنا وراشيل وإيفا نمن معاً على الأرض، أسفل النوافذ، مقيدات ومكممات بخرق المطبخ البالية. تخيلتهن يدردشن مع كونجا، بغضب، تتحدث عن بعض الأعذار حول غيابنا، لتخفي ذلك الذي تعرفه أكثر عنا.

أسعدني كثيرا أنهن كنّ نائمات، وأنهن لسن مضطرات إلى مواجهتي بخوفهن، بندمهن الذي سيواجهني بعد ذلك. قتلتُ إيفا بالحب، ببطء، فتحتها من البطن حتى الرقبة، لأضع بعد ذلك يديّ في جسدها، وأنتزع قلبها، الذي أكلته بينما ما زال يخفق. آنا، أسندتها إلى الحائط وقطعت رقبتها، كررت حركة اليد التي فعلتها معي، وقمت بعد ذلك بغرس النصل كاملاً، وفتحت فيها فماً جديداً الذي خرج منه نوع من الصراخ الذي تضاءل مثل البالون الذي يفقع في الهواء الذي ما زال باقياً في الرئتين، إلى جانب بعض فقاعات الدم التي تدفقت مباشرة بعد ذلك بشكل متناثر، بالشكل نفسه الذي كنت قد رأيته على الحائط. راشيل، جعلتها تبتلع السكين، ولكن قبل ذلك أيقظتها وضاجعتها كثيراً وكما أنني كنت أرى ما يفعله ابن فرج الأسود تلك الليلة الأولى، نفس وضعيته وضرباته، حتى أنني لم أتمكن من إسكات صراخها ولهاثها، ولا الإمساك بجفونها التي لا توجد فوق عينيها، لتزيل ما حولها، وتحقنها بالدماء.

الأمر الذي كان أكثر فظاعة هو أنني لاحظت كيف أن غضب المنفي بدأ يهدأ بداخلي، بينما كنت أنا أرتكب جرائم القتل، كان نائماً، مخدَّراً، كأنه الحاضر الغائب، إلا أن تلك كانت يديّ، حركات أعضائي، والميتات هنّ لي، على الرغم من أنني أنا أيضا كنت ميتاً معهن. على عكس ما كنت أفكر فيه، المنفي كان الوجود الذي عاش في الحاضر، وأبعد من هذا الحاضر لم يكن شيئاً، كان ظلاً أو فكرة، استحواذياً ومستبداً، ولكنه قادر على الاستيلاء على إرادتك واستغلالها.

بعد أن استحممت، نظرت إلى نفسي وحملت الحقيبة. فقط عندما خرجت من بيت لوس توباريس، غادرني المنفي نهائياً، تركني محملاً بذنوب ثقيلة. الغيوم، ما زالت كثيفة، بالكاد تسمح لي بالرؤية مسافة متر واحد، والقرية كانت غارقة في صمت جديد غير طبيعي، وينبغي أن يكون متأخراً، كما لو أنني أردت الانضمام إلى حفل تكريم منذر بسوء. ومع ذلك، وصلت السيارة، التي راوغت بنفسي بأن أفكر أنني أنا أيضاً يجب أن أقتل نفسي، فقط أنا من دون مساعدة أحد، ولكن ليس قبل كتابة هذه الصفحات مع أمنية وحيدة هي أن أكون الضحية الأخيرة للمنفي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

المقدمة

الوصول
كونجا
البيت
ديخا فو
الكابوس
الكتب
آنا
المنفيون
الأصدقاء
الأساطير
في بيت لوس توباريس؟
أشباح
الحلم
تاريخ الدون لويس دي روخاس
حلم؟
الشر
الدم
كونجا
مجانين، نعم.
تاريخ لويس دي تويار
اللويسيون الثلاثة
الحديقة
القادة الثلاثة
الثورة والحرب الحمراء)1568-1570(
البيازين
التتويج
تابلاتي
دي لوس بيليث
سيوف من الماء
المنفي
النَّار
الليل

خطط

القبر.

كونجا

النهاية

[←1]
هو عبارة عن محطة عبور، يسلكه السيّاح والمتزلجون للعبور إلى سلسلة الجبال الطويلة التي تقع جنوب شرق مدينة غرناطة. (المترجم)

[←2]
إحدى قرى مدينة غرناطة، تقع شرق سلسلة جبال البشرات، جنوب غرناطة، كان لها حضور مهم في التاريخ الأخير من وجود المسلمين في الأندلس. (المترجم)

[←3]
مفهوم جغرافي، يرتبط بالتأثير الذي تتركه تربة المنطقة على الأشخاص الذين يسكنون عليها. (المترجم)

[←4]

ليلة الموتى، هي إحدى الليالي التي يخصصها الكبار في السن للحديث عن القصص والأساطير المخيفة لأبنائهم وأحفادهم، يتخلل هذه الليلة بعض الطقوس الغريبة، مثل: تخصيص غرفة تكون بعيدة عن مركز البيت عادة، يطفئون الأضواء فيها كاملة، ويكتفون بأضواء القناديل، يجهزون المشروبات والأطعمة، ويستمعون إلى المتحدث، وهي تتشابه مع يوم الهلوين المشهور. (المترجم).

[←5]

هو مصطلح فرنسي، يُقصد به «الشي الذي سبق أن رأيناه من قبل»، وهو الاعتراف الغريب ببعض التجارب التي نشعر بها، ووصفها كما لو أننا عشناها بالفعل، يتعامل هذا المفهوم مع الأحداث التي «نشعر» بأننا نعيش فيها، وهي في حقيقة الأمر ليست كذلك، وستبنى بعض أحدث الرواية على هذا المفهوم الذي يصيب بطل الرواية لويس. (المترجم)

[←6] يُسمى رئيس البلدية بالإسبانية بـ «الكالدي» Alcalde، وهي كلمة عربية مشتقة من كلمة «القائد».

[←7]

والمقصود بها عملية تحويل ما تبقى من المسلمين إلى مسيحيين. (المترجم)

[←8]
هي مدينة تابعة لإقليم غرناطة جنوب إسبانيا، تُعرف بالعربية باسم «المنكب». (المترجم)

[←9]

نوع من أنواع الخمور المشهورة في منطقة غرناطة. (المترجم)

[←10]
الخامون؛ هو شرائح لحم الخنزير المجففة، وهي من الأكلات المشهورة في إسبانيا كلها، وتعتبر أحد مقاصد السياح الزائرين لمدن إسبانيا المختلفة. (المترجم)

[←11] هو عرض تلفزيوني، يتم إنتاجه في الأصل في بعض دول أمريكا الجنوبية، ويروي قصصاً، تكون في العادة خارجة عن الواقع، وتختم بنهاية سعيدة. (المترجم)

[←12]

في الواقع هو الشيء الذي حدث لكل العالم. معظم الأشخاص لديهم هذه الأعراض، ربما واهنون، ونرجح في بعض الحالات بين النشوة والكآبة. أما الشر، فمن لم يرغب في التسبب بالإهانة، بالضرب وحتى القتل في بعض الأحيان؟ هي الأشياء التي قد تحدث لكل الناس. وأن تصبح تلك الأشياء حقيقة، فإن ذلك يعتمد على الظروف والاستعدادات لكل واحد. وأنت على صواب فيما تقوله حول سلوكنا: يمكن للتوتر أن يحوّل أي شخص إلى آخر مريض، حتى لو كان ذلك للحظة مؤقتة فقط؛ التفكير في العزلة، والاضطراب العقلي العابر، الخوف الذي لا يمكن التغلب عليه والإعفاءات الجنائية الأخرى المعترف بها في قوانين العديد من الدول، كما تعرف جيداً من خلال مهنتك. ربما يتعلق الأمر بالعظمة، بصعود أو انخفاض المحفزات الكافية، على الرغم من ذلك ومن دون شك ينبغي أن يكون هناك استعداد وراثي. علاوة على ذلك، حول الاضطرابات النفسية، ما لم تكن حادة، فإننا دائماً نتحرك في أرض كل شيء فيها غامض. مَن يمكن أن يؤكد لك أن الشخص الذي يؤمن بنفسه بشكل مفرط لا يعاني من انفصام في الشخصية؟، أين نجد الحدود بين الحماسة والهذيان؟ من الممكن أن يكون الطبيب النفسي أو علم النفس على قدرة للتمييز بينهما. يمكن لأي شخص أن يقنع نفسه بأي شيء. لا يحدث شيء مميز في هذه القرية ولا في هذا البيت. التاريخ أيضاً هو المادة التي تثير أعظم الاقتراحات. وإذا لم يكن كذلك، فابحث عن لويس. الحقائق تتطور في الواقع الداخلي أكثر من الواقع التاريخي. على الرغم من أنني يمكنني أن أمنحك تعبيراً سحرياً بنبرة خاطئة: في كل جيل، يوجد وقت ليتجول فيه الوباء الروحي داخل هذا المنزل ويهاجم الأرواح التي تعيش هناك مع وضع خطة تبقي معظمها مخفياً، ومنذ أن ظهر على الوجود ذلك الذي ظهر منذ القرون التي يعيشها هنا ويتوق إلى استرداد شكله ومادته: ينزعون بعنف الأكثر حميمية حتى يتمكنوا من العيش. يمكن أن يكون ذلك مستمراً بيننا، من دون أن نلاحظ ذلك. حدث ذلك مع لوس توباريس، وفق ما حدثنا به صاحب البيدانيا؛ لأن القدر في هذا البيت يحوم في الدائرة نفسها ويعود دائماً إلى النقطة نفسها. وهذا ما يحدث الآن لآنا ولويس. بالمناسبة، انظر إليهما. ما الذي حدث لهما؟

[←13]
هي عبارة عن كعكة من عجينة الخبز يوضع عليها الملح، وتوضع في الفرن، هذه الأكلة مشهورة في مقاطعة غرناطة. (المترجم)

[←14]
من الأمثال الشعبية المعروفة في إسبانيا، وهو مرادف للمثل العربي «يولد وفي فمه ملعقة ذهب». (المترجم)

[15←] مجموعة من العصابات الشيوعية والأناركية المقاومة في إسبانيا، نشطت أثناء الحرب الأهلية الإسبانية. (المترجم)

[←16]

المعروف أكثر باسم «باب العدالة». أشار لويس دي هارو بعد ذلك بقليل إلى تفسيرات سرية حول التعويذات التي تحمي الحمراء، وذلك عندما يضمونها، وفق الأساطير التي جمعها (واشنطن إيرفينج) في عمله المشهور، ستسبب هذه التعاويذ بتدمير القصر وسيتم اكتشاف الكنوز المدفونة. رغم أن بعض الدارسين يعتبرون خطأ «يد فاطمة» كعلامة أو كرمز عربي في المقام الأول، يتعلق الأمر بتعويذة قديمة جداً، التي تستدعي الأيادي المعاقة الموجود حقيقة في كهف لاكاوس (المغارة، كما نعرف، هي رمز أيضاً لبدء العمل؛ والغريب، المكان، وفق لويس دي هارو، تم فيه تحول لويس دي روخاس). من العادات الموجودة بين الفرس، وضع اليد داخل الفم، وراحة اليد تكون خارجه، من أجل إغلاق الطريق على الروح الشريرة التي تحاول العبور إلى الجسد. وعادة ما يعتبر ذلك رمزاً تقليدياً أكثر. وفق ما ذكره ديغو هورتادو دي مينودثا في كتابه «حرب غرناطة»، «سلاح ملوك الأندلس القدماء كان مفتاحاً أزرق من الفضة، محفوراً عليه بعض الآيات من القرآن الكريم، ما يعني أنهم بالمهارة والسيف فتحوا عن طريق جبل طارق بوابة الغرب». في شعور خفي، الروح (المفتاح) والمادة (اليد) تعملان معاً ومفعولهما واحد. اليد والمفتاح يُنظر إليهما ليكونا العمل والروح.

[←17]
استعان المترجم في ترجمة هذه الأبيات بديوان ابن زمرك نفسه. انظر: صريحي؛ محمد بن يوسف. ديوان ابن زمرك الأندلسي. تحقيق: محمد توفيق التيفر. بيروت: دار الغرب الإسلامي. 1997. ص125. .

[←18]

«بسم الله الرحمن الرحيم. يرتد في قبك صدى تحية عال: ينعش رفاتك؛ هكذا مثل انتعاش أجسادنا بهواء الصباح النقي الممزوج برائحة المسك الجميلة. يقبل الله القربان الذي أودعه الموت في هذا المكان السر الذي أخفي فيه. تلك اللغة الأكثر ممارسة في تسميته؛ وذلك القلب الأكثر شغفاً في حبه. غادر ابن نصار هذه الحياة إلى الأبد عندما ما زال على وجهه غبار المعارك التي خاضها : نساء السماء سينظفته بأيديهنّ في الجنة:وسيمتحنه شرب الماء العذب اللذيذ الذي يجري بين الحدائق الغناء. وإلى الذين سعدوا بموته؛ سيقدمون الطعام للشياطين في جهنم؛ حيث سيسجنون هناك إلى الأبدء لا يأكلون إلا من ثمار أشجار مسّتها الشياطينء وسيشربون ماء ذا رائحة كريهة؛ يذوب في بطونهم ويقطع أمعاءهم» .